القافلة

مجلة ثقافية تصدر
كل شهرين • سبتمبر - أكتوبر 2004

البترول.. المخزون الاستراتيجي

سياحة مع البيئة ولها..

ملف العدد

القصص المصورة



العدد 5
المجلد 53

معارض ومؤتمرات

سبتمبر 2004

- مهرجانات ملابس المرأة المسلمة
  كوالالمبور – ماليزيا: 7 - 8
  فاكس: +60355134269
  yasmin@w2w.com.my
- المعرض الكويتي الدولي للهدايا
  الكويت: 22 - 1 أكتوبر
  afnan@kif.ne
- معرض الشرق الأوسط العالمي الرابع عشر للأثاث والتصميم الداخلي
  دبي: 22 - 26
- معرض الكتاب العربي
  دمشق: 29 - 9 أكتوبر

أكتوبر 2004

- معرض الحدائق الخضراء
  الكويت: 3 - 13
  shatti@kif.net
- معرض عُمان الدولي للكتاب
  مسقط: 4 - 14
- معرض فرانكفورت الدولي للكتاب
  فرانكفورت – ألمانيا: 6 - 11
- الصالون الدولي للاستثمار الفلاحي والتكنولوجيا
  تونس: 6 - 9
  www.tunisie.com/apia/siat2004.pdf

القافلة

أرامكو السعودية
Saudi Aramco

الناشر
شركة الزيت العربية السعودية (أرامكو السعودية)، الظهران

رئيس الشركة، كبير إدارييها التنفيذيين
عبدالله بن صالح بن جمعة

نائب الرئيس لشؤون أرامكو السعودية
مصطفى عبدالرحيم جلالي

مدير العلاقات العامة
ناصر بن عبدالرزاق النفيسي

رئيس التحرير
محمد عبدالعزيز العصيمي

مدير التحرير الفني
كميل حوّا

سكرتيرا التحرير
عبود عطية
خالد الطويلي

فريق التحرير
حبيب آل محمود
محمد أبو المكارم
مأمون محيي الدين
محمد الفوز
رولان قطّان (بيروت)
ماجد نعمة (باريس)
رياض ملك (لندن)

تصميم وإنتاج
المحترف السعودي

طباعة
مطابع السروات، جدة

ردمد ISSN 1319-0547

محطات العدد

سبتمبر – أكتوبر 2004
رجب – شعبان 1425

توزع مجاناً للمشتركين
- **العنوان:** أرامكو السعودية
  ص . ب 1389، الظهران 31311 المملكة العربية السعودية
  البريد الإلكتروني: alqafilah@aramco.com.sa
- **الهواتف:** رئيس التحرير 7321 874 3 966+
  فريق التحرير 0607 897 3 966+
  الاشتراكات 6948 874 3 966+
  فاكس 3336 873 3 966+

رسالة المحرر

1

لم يغب النفط كمصدر رئيس للطاقة عن الأضواء منذ زمن، لكنه اليوم يعود بقوة ليحتل الصدارة، خاصة مع الارتفاع الأخير في أسعاره. وتخزين النفط كسياسة استراتيجية بند رئيس في النقاشات الدائرة. الدكتور ماجد المنيف يبحث هذا الموضوع انطلاقاً من دور وكالة الطاقة الدولية.



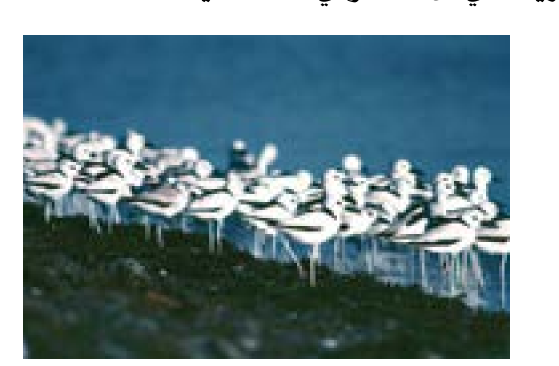
كيف انتقل الإنسان من الدكان إلى اقتصاد الشبكات.. في هذا العدد تناقش القافلة تطور عمليات الشراء والبيع عبر شاشة الكمبيوتر، فيما بات يعرف حول العالم بالتجارة الإلكترونية.

2

مع بداية الموسم الدراسي تعود أسئلة التحصيل العلمي إلى حياتنا اليومية ومنها الضعف الدراسي كمصدر لقلق الآباء والأمهات والمعلمين على السواء. في مناخ القضايا ثلاثة مختصين يعرضون أوجهاً للضعف الدراسي: يركز أحدها على عوامل الضعف، في حين يتناول الثاني المعلم الخصوصي، ويتناول آخرها مشكلة خاصة تعرف بالقُرّاء والتي لم يلتفت إليها الطب كمعضلة إلا منذ أمد قريب!.

3

يعتبر البعض "السياحة البيئية" تعارض في الألفاظ.. فكم اتهمت السياحة بأنها مسيئة للبيئة. اليوم تقوم مساعٍ جديدة للموائمة بين الاثنين بتحويل حُب الناس للسياحة إلى مصدر حفاظ على البيئة والحياة الفطرية.. في كل مكان وفي المملكة أيضاً..



السباق بين وكالتي الفضاء الأمريكية "ناسا" والأوربية "إيسا" في البحث عما في كوكب المرّيخ يجدد الأسئلة المتواصلة حول هذا الكوكب الغامض منذ فجر التاريخ. ومن المدهش أن نعرف أن العلماء يخططون لإنزال إنسان على سطحه عام 2011م.. ولكن ما الذي يدعو إلى هذه المغامرة ما دامت الاكتشافات قد قطعت الشك باليقين في مسألة انعدام الحياة على هذا الكوكب..؟؟

الملف المصور



يوم بعد يوم يحتل التصوير الفوتوغرافي مساحة أكبر في اهتمامات الشباب السعودي الفنية. وتقدم القافلة في الملف المصور هذا العدد اسماً آخر من المنطقة الشرقية هو علي عبدالجبّار السميّن.

4

هل نقتل التلفزيون أم نطرده أم نكتفي بإيقافه على ذمة التحقيق؟ التلفزيون متهماً هو موضوع باب الحياة اليومية، الذي يناقش واقع التلفزيون وآثاره على حياة الفرد والعائلة، ويلتفت كذلك لتلفزيون الواقع.



5

ما إن يودّع أديب أو مفكر أو مثقف الحياة حتى يتساءل الناس: ما هو مصير مكتبته.. ثروته الثقافية؟ إنه تساؤل محير، كثيراً ما شغل بال هؤلاء المثقفين أنفسهم في حياتهم. القافلة تستوضح أمثلة عن مصير مكتبات خاصة وتوثق بعض ما منيت به بعض هذه المكتبات!

6



ميكي، سوبرمان، بطوط، لائحة طويلة من الأسماء التي كانت تصل إلى الأولاد كمجلات دورية يفرحون بشرائها وقراءتها مرات ومرات. عالم القصص المصورة، أو "الكارتون" كما يسميه الكثيرون منّا، كان فتحاً كبيراً في دنيا الوسائل الثقافية الفنية، انتقل إلى الشاشات المتحركة فازداد اتساعاً في مساحته ودوره. يستعرض ملف هذا العدد تاريخه المتشعب الطويل.. مقارناً بين فوائد الضحك البريء ومخاطر العنف غير المبرر.

المحرر

الرحلة معاً

اقرأوا تصحُّوا..

حسب طرق توزيع هذا العدد، طالت أم قصرت، فإن القارئ ربما تصفحه في هدأة من أيام رمضان، التي يتراجع فيها اللهاث اليومي لحساب السكينة والتأمل والقراءة. والأخيرة بالذات عادة ترتفع وتيرة ممارستها في هذه الأيام المباركة، وهو ما يحدونا إلى أن نرحل معا بصحبة الحديث عن القراءة.

إذا شئتم، فإننا سنستضيف في هذا الحديث رأيين. الأول يكتسب صبغة كونية عامة، كما هو الحال عند صاحب كتاب "تاريخ القراءة" الأرجنتيني ألبرتو مانغويل. والثاني يكتسب صبغة عربية بحتة و(متشائمة!!) كما هو عند المثقف العربي المرموق شاكر لعيبي، الذي يبدو له مأزق القراءة والمقروء مدوياً في العالم العربي اليوم، حيث لا يظهر - هذا المأزق- فحسب في انحسار المقروء لصالح المرئي، وكلاهما في الثقافة العربية مشكلة معرفية، لكن في هجوم مرئي غير أصيل ومقلِّد على مقروء ذي أصول تاريخية.

ويظهر أن لعيبي أراد في هذه المقالة، التي كتبها قبل سنتين تقريباً، أن يفتح على نفسه وعلينا أبواب جحيم المرئي العربي، الذي ينظر إليه البعض على أنه سفَه أحلامنا وهمَش، أو هشَم، آمالنا لكونه يمتلك قدرات لا يمتلكها المقروء العربي، بينما نحن المنتسبين إلى قبيلة المقروء نتحول، من وجهة نظر قبيلة المرئي، إلى رجعيين متعلقين بالأرفف المغبرة، في الوقت الذي تلمع الفضائيات بوجوه الحسناوات المعاصرات وتذر الرماد الثقافي في عيوننا عبر برامج حوارية تُطبخ على عجل وتُبهَّر بالاستوديوهات الفارهة في الوقت الذي لا تخلو فيه من ثقافة الشائعة.

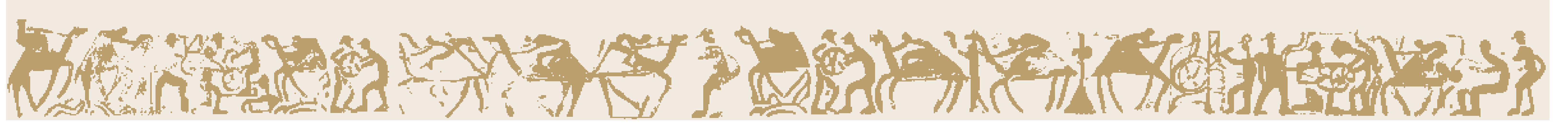
شاكر لعيبي، أيضاً، صنف القارئ العربي على هذا النحو: هناك من لا يقرأ مطلقاً، وهذا يشكل نسبة عالية في الأوساط المتعلمة. ومن يقرأ لكي يعيد لاحقاً صياغة الأفكار التي يتلقاها ناسباً إياها لنفسه. ومن يقرأ لكي يقتنص، فحسب، بعض الأفكار لكي يردَّ عليها. وهناك من يقرأ لكي يؤول ما يقرأ على مزاجه. ومن يقرأ بطريقة خاصة تؤكد له أفكاره هو. ومن يقرأ وهو لا يرى جديداً على الإطلاق في ما يقرأ. وهناك من يقرأ للمؤلفين الذين يعرفهم شخصياً ويخلط تصوُّره، الجيد والسيئ، عنهم بمضمون كتاباتهم. ومن يقرأ للمؤلفين الذين لا يعرفهم شخصياً البتة، ونتائج القراءة هنا مثمرة في الغالب وموضوعية نسبياً. وهناك قرّاء مجهولون نادرون، يقرأون بعمق نادر وهم لا يشكلون أية ظاهرة في الثقافة العربية المعاصرة. ومن يقرأون فحسب للأسماء اللامعة والشهيرة أو التي تثير أعمالها الفضائح. وأخيرا هناك شاردو الذهن الذين يحسبون أنهم يقرأون بينما هم لا يقرأون على الإطلاق.

الحقيقة أنني لم أظفر بتصنيف للقارئ العربي، وربما غير العربي، من قبل على مثل هذه الصورة من التوسع والدقة. ربما كانت أنواع القارئ ملقاة على الطرقات يعرفها الجميع، لكن ما فعله هذا المهموم بفعل القراءة هو أنه التقطها من هذه الطرقات ولمعها ورصها رصاً بيناً ليعرف الكاتب مع أي نوع من القراء يفترض أن يتعامل.

في المقابل أين تضع نفسك أنت كقارئ من هذه التصنيفات؟ لديك فرصة، إذا وقع بين يديك هذه الأيام نص، أن تتدبر مقروئيتك وربما تعيد قولبة علاقتك بعادة القراءة. المهم أن تتجاوز كل القوالب، بما فيها قوالب شاكر لعيبي. وهنا بإمكاننا أن نستعين بتحليل ألبرتو مانغويل، فهذا المؤرخ يرى أن القراءة لا تقدم دوماً ثراءً داخلياً، فالعملية نفسها التي تملأ نصاً بالحياة، وتستخلص منه ما يوحي به وتضاعف تنوع معانيه، وتعكس فيه الماضي والحاضر وطاقة المستقبل، يمكن أيضاً أن تستخدم من أجل تشويش النص والقضاء عليه. فكل قارئ من القراء يحقق لنفسه طريقة قراءته الخاصة به التي تنحرف أحياناً عن النية الأصلية للنص، لكنها لا تمثل بالضرورة تزويراً. غير أن القارئ يستطيع تزوير النص عن قصد إن أراد عند وضعه في خدمة عقيدة معينة وإساءة استعماله في تبرير الغبن والعنف على سبيل المثال.

وبعيداً عن مزالق الاستطراد، فقد اختلف العلماء في تفسير طبيعة القارئ المجرَّد في علاقته بفعل القراءة. وإذا اتفقنا أو اختلفنا معهم فالمهم من وجهة نظري هو أن نصاب بعافية الفكر لأننا نقرأ، أياً كان نوع قراءتنا أو أياً كانت طريقتنا في التعامل مع النص الذي بين أيدينا. القراءة بحد ذاتها متعة. لتكن القراءة من أجل القراءة، فهذا يكفي ولنترك الباقي تحدده مسارب القراءة على هواها. جربوا في فرصة رمضان أن تواصلوا أو تتعودوا على القراءة.

رئيس التحرير



قافلة القرّاء

إلى.. رئيس التحرير

ترحب القافلة برسائل قرائها وتعقيباتهم على موضوعاتها، وتحتفظ بحق اختصار الرسائل أو إعادة تحريرها إذا تطلب الأمر ذلك.

شروط النشر

قرأنا كثيراً أن القافلة ترحب بالمواهب الشابة وتدعو أصحاب المواهب إلى الكتابة على صفحاتها. وقد أرسلت إلى حضرتكم مقالة بعنوان "الثقوب السوداء" ولكني فوجئت أخيراً بأنها أعيدت إليّ مع رسالة اعتذار عن نشرها.

الرجاء إطلاعي على الشروط المطلوبة في المقالة كي تصبح صالحة للنشر. فأنا متعطش للكتابة، وأدرس الإعلام سنة أولى، ومن أشد المعجبين بالقافلة وبمستواها المهني الراقي.

نصير ناصر الدين بلحاش

الجزائر

القافلة: تعتز القافلة بهذا الاهتمام الذي تبديه للكتابة فيها. ولا يجب أن يكون الاعتذار عن نشر أية مقالة سبباً في إحباط كاتبها. وجواباً عن سؤالك نشير إلى أن موضوعات المجلة موزعة على مناخات محددة يتضمن كل منها عدداً من الأبواب، ونحن نرحب بأية مساهمة تصب ضمن هذه المناخات والأبواب التي يمكنك أن تعرفها بالتفصيل من خلال الاطلاع على أي عدد من أعداد القافلة. كما أن التمعن في مضامين الموضوعات ومعالجتها توضح لك نوعية المادة المطلوبة. فالقافلة تقدم قراءة ثقافية للتحولات والقضايا، وكل المواضيع التي تتناولها، ولا تتوقف عند سرد مجموعة معلومات يمكن أن تكون متوافرة بسهولة في الصحف اليومية والمجلات. فنحن نرحب على سبيل المثال بمقالة تتناول التحديات التي يواجهها فن العمارة في العصر الحديث، أو التغيرات المرتقبة فيه وأسبابها، ولكن عدد صفحات المجلة يضطرنا إلى الاستغناء عن مقالة تتناول سيرة مهندس شهير وتعدد أبرز إنجازاته لأن الأمر متوافر في كتب ومجلات عديدة أخرى. ونكرر أن خير معين لأصدقاء القافلة الراغبين بالكتابة فيها، هو التمعن ملياً بأبوابها ومحتوياتها، ومحاولة التوجه إلى باب محدد، ويستحسن أن يكون حجم النص ملائماً للمساحة المعطاة لهذا الباب كي لا يتعرض إلى الاختصار.

المواهب والمحترفون

أريد أن أستفسر عن أمر إذا سمحتم: هل تنشرون قصائد للمواهب أو قصصاً وموضوعات أم أن ذلك مقتصر على المحترفين في هذه المجالات فقط؟.

عبدالواحد سالم

القافلة: لو تمعنت بأسماء الكتّاب في القافلة لتأكدت من أننا نرحب دائماً بالمواهب الشابة كما لو كانوا محترفين. فالمعيار هو جودة المادة المرشحة للنشر، وليس شهرة كاتبها.

القافلة في الأسواق

يطيب لي أن أشكر لكم إرسال أعداد مجلتكم الموقرة لي مواصلة منكم وصلكم الله بعفوه وكرمه، كما أشكر لكم مرة أخرى جهودكم في إخراج المجلة بثوبها القشيب الرائع وما فيه من اختيار موفق للمادة العلمية وأبحاث هادفة وتحقيقات رائعة واختيارات لطيفة طريفة، متمنياً لكم التوفيق والنجاح المتواصل في حياتكم العملية، كما أهيب بكم أن يلتحق بمجلتكم شيء من الإضافة كأن يكون التعريف بكتاب أو استطلاع عن مدينة أو قرية مندثرة أو عرض لسوق شعبي قديم داخل المملكة أو خارجها، كما أود الاستفسار عن طرح المجلة في الأسواق كمجلدات للبيع أو الإهداء.

بندر السبعان

الأحساء

القافلة: اقتراحاتك محل اعتبارنا، أما طرح "القافلة" في الأسواق فهو قيد الدراسة.

رؤى عربية مضيئة

يسرني أن أشكر لكم إهدائي أعداد مجلتنا الغرّاء القافلة تباعاً، وأن أعبر عن ثنائي المستطاب عليها وتقديري للجهد الموفور المبذول في سبيل النهوض بها حتى أصبحت في طليعة المجلات الثقافية العربية، فهي تعبر عن رؤى إنسانية مضيئة وعميقة، واهتمام مميز بالمواد المعروضة وإخراجها فى أحسن صورة، مما يؤدي إلى إيصال رسالة الفكر والثقافة والعلم التي تضطلعون بها بصورة رشيقة حديثة وقابلة للإبحار في أفئدة القرّاء وعقولهم، وتحقيق ما تنشدونه من استنارة وتوعية بكل ما هو جميل ونبيل وجليل.

أشد على أياديكم وأدعو الله لكم باضطراد النجاح والتوفيق.

دكتور حسن فتح الباب حسن

القاهرة

معرض أرامكو السعودية

كم سرني أن أطلع على العدد الرابع من المجلد الثالث والخمسين من مجلتكم القافلة أثناء زيارتي معرض أرامكو السعودية بالظهران، فقد تذكرت تلك الأيام الخوالي حينما كنت أفتش جنبات مكتبة مدرستنا الابتدائية بالمدينة المنورة بحثاً عن العدد الجديد من مجلة قافلة الزيت إن لم تخني الذاكرة، فكم كنت شغوفاً بمتابعة جديدها الذي لا تبليه الأيام، وكم عظمت في عيني مجلتنا عندما قرأت في العدد المشار إليه أن أول صدور للمجلة كان عام 1373هـ أي قبل ثلاث وخمسين سنة، وهذا يدل على رسوخ المجلة وثباتها في عالم الدوريات المقروءة.

أود هنا أن أعبر عن امتناني للشركة الرائدة أرامكو السعودية حينما وفرت للزائرين ذلكم المعرض الرائع، وإنني أحدث نفسي بأن أي سؤال يطرأ على ذهن الإنسان في مجالات عديدة ومنها المجال النفطي فما عليه سوى التوجه إلى ذلك المعرض فسيجد الجواب الشافي لتساؤلاته، وكما استمتعنا برفقة العائلة بزيارة المعرض فلا تفوتني الرشادة بفكرة رحلة مع المسبار، فقد كانت رحلة ماتعة مفيدة لجميع أفراد العائلة.

أكرر شكري الجزيل وأتمنى أن تقبلوني مشتركاً في مجلتكم الغرّاء.

خالد بن محمد الغفيص

القصيم - بريدة

القافلة: شكراً على رسالتك، وقد أحلنا عنوانك على قسم الاشتراكات لتصلك القافلة بانتظام إن شاء الله.

مكتبة بركة الموز

لا يخفى عليكم بأن مجلة القافلة لها دور ريادي وفعّال في تنمية مدارك الإنسان العربية وصقل فكره ورفع من مستواه الثقافي في شتى مجالات المعرفة الموثقة بالصور المميزة، لا سيما وأنها تعتبر مرجعاً لكثير من طلبة العلم. وإيماناً منّا ومنكم بأن الثقافة هي ركن أساسي في بناء المجتمع وتقدمه، فقد تم بفضل الله ثم بجهود الإخوة افتتاح مكتبة بركة الموز الأهلية العامة، وجميع مرتادي المكتبة في شوق إلى أن يروا مجلة القافلة على رف من رفوفها وبهذا تشاطروننا نشر الثقافة على شريحة واسعة من المجتمع كما عهدناكم دائماً. نحيطكم علماً بأن المكتبة تحت إشراف المديرية العامة للثقافة بوزارة التراث والثقافة بترخيص رقم 136، ونأمل تفضلكم بإرسال أعداد من مجلة القافلة إلى مكتبتنا العامة.

مكتبة بركة الموز الأهلية العامة

سلطنة عُمان

القافلة: نعتز بأن تكون مجلتنا على رفوف مكتبتكم، وأحلنا عنوانكم على قسم الاشتراكات، حتى تصلكم القافلة بانتظام إن شاء الله.

ينبع

اطلعت على بعض أعداد القافلة في مكتبة كلية ينبع الصناعية عند زيارتي لها قبل فترة، وقد أذهلتني هذه الأعداد بمادتها الإعلامية والجهد المبذول في المجلة ككل. وقد وجدت رقم الاشتراك في المجلة، لكني لا أعلم إن كان يحق لي ذلك، لأنني أعمل في الهيئة الملكية بينبع وليس في أرامكو السعودية.

إنكم تعلمون ما تتمتع به ينبع من مكانة مرموقة في الوقت الحاضر، لكن الغريب أن تاريخها لا يحظى بأي اهتمام إعلامي، لهذا أرجو من حضرتكم إيلاء موضوعها الاهتمام اللازم ليتعرف العاملون في أرامكو السعودية وغيرهم إلى ما تتمتع به ينبع من تاريخ. وقد أعددت دراسة ميدانية عن الآثار في المحافظة، وسجلت الكثير من الكتابات والرسوم الموجودة في جبالها، كما جمعت الكثير من صورها القديمة.

فإن ارتأيتم أن تجد مكاناً في مجلتكم، فسأبعث إليكم ببعض المواضيع للاطلاع عليها ونشرها.

محمد بن عبدالله الذبياني

الهيئة الملكية - ينبع

القافلة: الاشتراك في المجلة ليس حكراً على موظفي أرامكو السعودية، بل هو مفتوح لكل المهتمين فعلاً بها، وقد أدرجنا اسمك على لائحة المشتركين. أما بالنسبة لما كتبت عن ينبع فيسرنا الاطلاع عليه، وبحث إمكانية نشره.

الصوم فيك لربي

منذ ابتدأت خطىً.. والحب يحملني
إلى معانٍ، أراها فيك تذهلني
غيري يصومك صوم الجوع.. يحرمه
بعض الطعام، وصومي فيك يثقلني
والروح في صومها تهفو إلى متع
غير التي لاحتياجاتي تكبّلني
وليت أن التي تهواك جارحة
من الجوارح - عند البلوغ - تظلمني
لكنما أنا أحيا نبض عاطفة
تخضرُّ فيك، وبالآيات.. تلهمني
والصوم فيك لربي.. كيف أهمله؟
ومن أكون إذاً.. والله يهملني؟
شهر الصيام.. وأنت الآن تنقلني
إلى رحابٍ.. بها ربي.. يجملني
أكاد أشعر أن الله يقبلني
وأنه فيك بالإحسان يشملني
أكاد أصعد.. آيات الهدى بيدي
إلى سماء بها ربي يعلمني
ولست أنكر أن الحق أنطقني
سبحانه.. كل ما حولي.. يكلمني
والصوم لله، يجزي من أراد به
فمن إلى الصوم، بعد الصوم يسلمني؟
ومن يسارع بي.. إن جئت ملتمساً
باب السماء.. من الريان يدخلني؟
يا صوم أنت.. ولولا أنت.. ما نهضت
إرادة.. لجنان الله.. تحملني

شعر: يس قطب الفيل

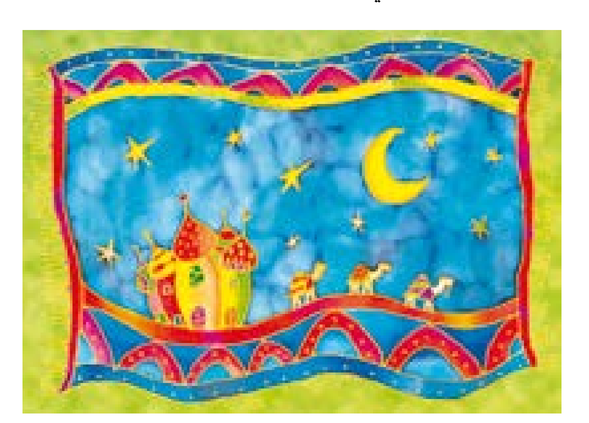
دمنهور - مصر

قافلة القرّاء

بطاقة رمضانية

القافلة: تحاول القافلة تحاشي نشر ما يرد إليها من رسائل المديح المحض، وتركز على نشر ما تنطوي عليه من ملاحظات أو محاورات. وقد لفتت انتباهنا بطاقة بريدية جميلة من قارئة.. ويسرنا أن ننشر الاثنين معاً:

ما زلنا نتواصل معكم من خلال مجلتكم الراقية والمتميزة "القافلة" التي ما انفكت تستحوذ على إعجابنا وتقديرنا لجهودكم المثمرة البنّاءة والتي نلمس آثارها في الإخراج الفني المتميز لموضوعات المجلة ومحتوياتها.



إن الأعداد تصلني بانتظام وأنا حريصة على تلقيها كل شهرين وأنتظرها بفارغ الصبر.
وهنا لا يسعني سوى أن أقدم شكري الجزيل لكل العاملين في المجلة شاكرة لهم حسن إخلاصهم وتعاونهم في مجال الإبداع والابتكار. وتقبلوا فائق الاحترام والتقدير.

عائشة إبراهيم حسن الملا الجفيري
الدوحة - قطر

كتبت عنها

يسرني سيدي الفاضل أن أهنئكم ولو متأخراً بالحلة الجديدة لمجلة القافلة. إن القافلة مجلة غنية بشتى الموضوعات الثقافية التي يحتاج إليها المرء في كل وقت، ولا جدال في ضرورة الاحتفاظ بها كثروة معرفية. إن شهادتي في القافلة الغرّاء ليست جديدة، فقد سبق وأن كتبت عنها أكثر مرة في بعض مقالاتي، وفي كتابي الأخير (تحديات معاصرة) الصادر في دمشق عام 2003م.
كما أرجو منكم إعادة إرسال العدد الأخير من القافلة (مايو - يونيو 2004م) إن كان بالإمكان، إذ إنه وصل بالبريد، وهو في حالة يرثى لها، إذ يبدو أن مادة كيماوية انسكبت عليه، وخرّبته وجعلت رائحته مهيجة للعين والقصبات الهوائية، وهذا يحصل معي للمرة الأولى.

دكتور غالب خلايلي
العين - الإمارات العربية المتحدة

القافلة: شكراً على محبتك للمجلة، ونعتز برأيك فيها، وستصلك نسخة بدلاً عن التالفة إن شاء الله.

الأقلام الصديقة

سعدت اليوم بتسلمي العدد الرابع (يوليو - أغسطس 2004م) الذي احتوى بين دفتيه مقالي (الأخلاق تحت رحمة الطب) وكم أتمنى أن يصبح قلمي متعانقاً دائماً مع صفحات تلك المليحة الرشيقة التي ينهل منها كل عقل عربي بشغف واعتزاز. ومنذ فترة طويلة وأنا أحاول أن ألبي نداء قلمي للكتابة إليكم، خاصة عندما أطالع كل إصدار جديد لتلك الجوهرة الثمينة "القافلة" الأصيلة، وبالفعل بدأت أكتب. وسوف أرسل قريباً ما أفرغ من كتابته. لكني وددت أن أكتب رسالتي هذه تحديداً للتعبير عن شكري الجزيل لتفضلكم بنشر مقالي سالف الذكر، والحق أن كلمات الشكر والتقدير مهما كبرت واتسعت حروفها تبقى واهية أبداً أمام عظمة المشاعر وروعة الأحاسيس، ولن تعبر أبداً عمّا نكنه لكم من إكبار وإعزاز وتقدير. وفقكم الله دائماً إلى ما فيه كل الخير.
وتفضلوا بقبول وافر التقدير والاحترام.

أ. د. فاتن أحمد مرسي غازي
السفيرة بوزارة الخارجية المصرية

القافلة: شكراً لاقتراحاتك، ونرحب بمساهماتك في باب ديوان الأمس وديوان اليوم، آملين الالتزام بالشخصية الخاصة بهذا الباب.

المشتركون الجدد

يوسف محمد غريب، جدة - رنا جميل زاد خان، الجبيل - عبدالكريم جابر النجفي، النجف العراق - سليمان بن محمد البحيري، المذنب - علي بنعياش، المغرب - سعد بن عبدالله أحمد المليص، الباحة - علي مكي الشيخ، القطيف - حورية منصور عباس عبدالله، البحرين - نسرين مكي الدار، القطيف - منى عيسى القلاف، الكويت - عبدالله الخال، البحرين - عيسى ابراهيم، البحرين - علي خميس، البحرين - محمود شاهين، سورية - نداء عبدالله الرميحي، البحرين - أنور المجنوني، ينبع - عاهد محسن عودات القرعان، إربد الأردن - مها الحجيلان، الرياض - الدكتور حسين بن علي الجامد، الظهران - عبدالله الحزيمي، الجبيل - غانم سليمان الحربي، ينبع - الدكتور هجاد بن عمر الغامدي، الباحة - عبدالله محمد عثمان الراشد، الرياض - ياسر عمر با هادي، جدة - سامي على الأحمدي، ينبع - أحمد عامر سعد، مكة المكرمة - فاطمة أحمد أوال سلمان، البحرين - عبدالله سعود الحداد، المبرز - مدارس دار الأرقم الأهلية، جدة - فايز بن ابراهيم الدارج، الجبيل - آسية عبدالكريم محمود، عجمان - بدر الشمري، الجبيل - حمد الكعبي، الدمام - محمد أحمد القائد، البحرين - فاضل جعفر الجابر، الخبر - علي أحمد بو خمسين، الدمام - عبدالرحمن سعد المريشد، الدمام - حسين درويش، دبي - د. ناجي عبدالرحمن الجرتلي، بورسودان - مسلم بن عبدالكريم بن محفوظ المسلم، القطيف - بكر بن عبدالرحمن أبو بكر، الرياض - ناصر بن سعد الرشيد، الرياض - ناصر بن عبدالعزيز السلوم، الدوادمي - حمد بن سليمان الوشمي، بريدة - عبدالعزيز مسند المطيري، الرياض.

القافلة: وصلتنا رسائلكم، وأحلنا عناوينكم على قسم الاشتراكات، وستصلكم القافلة بانتظام إن شاء الله.

أدب الطفل

تلقيت بمزيد من الامتنان والتقدير عدد (القافلة) عن شهري مارس وأبريل 2004م، وكم كانت سعادتي كبيرة بتسلم هذا العدد، فاستمتعت بقراءة كل جزء منه.
أرجو أن تكون هناك مساحة لأدب الطفل فهذا مهم جداً، وقد سرني باب ديوان الأمس وديون اليوم ويسعدني مشاركتي في هذا الباب، وإنني أؤيد الأستاذ محمد حسن ناصر على اقتراحاته بأن يكون هناك بالمجلة باب لسرد بعض قصص الأنبياء.

محمد جمال محمود حسني
المنوفية - مصر

اللغة العربية

المتابعون لمجلة "القافلة" كُثُر، ومن شتى التخصصات والأعمار والطبقات، ولم يكن متابعوها بهذا التنوع إلا بسبب النهج الذي تتبعه المجلة، حيث تراعي جميع الأذواق والمستويات الثقافية في ما تطرحه من مواد.
وأنا بحكم تخصصي في مجال اللغة العربية وآدابها أجد دائماً في أعدادها ما يغني تخصصي ويزيد من معارفي حول اللغة العربية وينميها.
وهذا ما دفعني لأن أراسلكم بُغية الاشتراك في المجلة والحصول على أعدادها القادمة بشكل دائم ومستمر.

سعيد حسين المطرود
القطيف

القافلة: ستصلك المجلة على عنوانك بانتظام إن شاء الله.

السلحفاة الصغيرة...

ثوري على الخطو الوئيد
خطو المكبل بالحديد
ثم استعيني للوثوب
بقوة العزم الشديد
ماذا سيغنيك التمني؟
كيف يكفي أن تريدي؟
***
خلف العوائق والسدود
ووراء ذا الأفق البعيد
كم لاح لي فجر المنى
وفرحت بالأمل الوليد
فجذبت من قيدي يدي
ونثرت من حولي نشيدي
عبثاً أرفرف في القيود
فتكاد تذبحني قيودي

أبقى هنا أما المنى
فوراء ذا الأفق السعيد
***
كوني كما حكم البلاء
أو جاهدي نحو السماء
يكفيك زحفاً في الثرى
هيّا نحلق في الفضاء
كنّا نحدق في الظلام
وها نطير إلى الضياء
ونطيل شدواً للصباح
فليت ينسانا المساء
ثوري على حكم الفنا
فالعمر ضيّعه الشقاء

شعر: ملاك ميخائيل
الاسكندرية - مصر

نعمل لغدنا

...ولما بعد غدنا

من الطبيعي أن يتلهف المرء على أن يقطف ثمرة عمله، سواء أكانت هذه الثمرة راتباً أو مكافأة، معنوية أو ترقية... ولكن غالباً ما تكون أيام القطاف أبعد مما يتمناه الكثيرون.

فاللهفة إلى الوصول بالعمل إلى غايته النهائية يمكنها أن تكون أكبر الحوافز المشجعة على العمل وتحمّل مشقاته، طالما بقيت تحت السيطرة. أما إذا سيطرت هذه اللهفة على صاحبها، فسيبدو له الطريق إلى النتيجة أطول مما يستطيع أن يحتمل، فيصاب بالإحباط واليأس، ويتدهور أداؤه المهني ليطيل فعلاً الطريق إلى النجاح أكثر فأكثر.. ومن المرجح جداً أن يؤدي الأمر إلى الفشل وترك العمل الذي كان واعداً، ولا يزال كذلك، ولكن صاحبنا لم يعد يراه على حقيقته.

ومما يغذي هذه "اللهفة إلى الوصول" هو ما تنقله إلينا وسائل الإعلام من هنا أو هناك عن شاب بدأ العمل في سن العشرين على سبيل المثال وأصبح مليونيراً وهو في الخامسة والعشرين. فنتوهم أننا أمام مثل عليا يجب أن نحتذي بها. ولكننا في الواقع أمام حالات استثنائية جداً، ولو لم تكن كذلك لما حظيت بهذا الاهتمام الإعلامي.

طول الأناة، الصبر، التطلع إلى البعيد، التخطيط لا للغد فقط، بل لما بعده ولما بعد الذي بعده أيضاً.. شروط لا بد منها للوصول إلى أيام القطاف التي لا بد أن تكون في موضع ما على الروزنامة.. وكل موضع على الروزنامة هو آت ولا شك في ذلك. المهم أن لا يحبطنا طول الانتظار، فيقلب تفاؤلنا بالعمل تشاؤماً من الغد.

ولعل هناك تفاؤلاً بالغد أكبر مما هو عند عجوز تراه يزرع أشجاراً من دون أن يشغل نفسه بالتساؤل ما إن كان العمر سيطول ليراها تثمر. المهم أنه يزرع.. ولا بد لهذه الأشجار أن تثمر يوماً ما.. إن لم يكن في الغد، ففي ما بعده.

المخزون البترولي الاستراتيجي

ما هو؟ لماذا؟ كم؟ وكيف؟

"المخزون الاستراتيجي" من المفردات التي يكثر استعمالها عند الحديث عن الطاقة وأسواقها، ومع ذلك يبقى معناه ضبابياً في أذهان الكثيرين من غير المختصين، حتى أن البعض يخلط بينه وبين المخزون التجاري، أو الاحتياطي بمعناه العام.

محافظ المملكة العربية السعودية في أوبك الدكتور ماجد عبدالله المنيف يحدد لنا ماهية المخزون الاستراتيجي البترولي، وتاريخه ودواعي إنشائه، وأيضاً موقف دول أوبك منه.

أرامكو السعودية

يصادف هذا العام الذكرى الثلاثين لإنشاء وكالة الطاقة الدولية التي تضم الآن ستاً وعشرين دولة صناعية. ففي خريف عام 1974م، وبمبادرة من وزير الخارجية الأمريكي آنذاك هنري كيسنجر، اجتمعت ست عشرة دولة صناعية على خلفية أزمة الطاقة الناجمة عن الحظر البترولي العربي الذي صاحب الحرب العربية الإسرائيلية في أكتوبر 1973م، وارتفاع أسعار البترول من نحو 3 دولارات للبرميل إلى 11 دولاراً، وبداية مرحلة جديدة، تمثلت باتخاذ الدول المنتجة في أوبك قرارات تسعير البترول وإنتاجه من الشركات العالمية التي كانت تسيطر على السوق خلال العقود السابقة.

اعتبر إنشاء وكالة الطاقة الدولية منذ ذلك الوقت رد فعل من الدول الصناعية، وعلى رأسها الولايات المتحدة، على التغير الذي حصل في ميزان القوى لصالح الدول المنتجة. فأصبحت الوكالة ومقرها باريس تمثل تجمّع الدول الصناعية المستهلكة للطاقة في مواجهة الدول المنتجة النامية المصدرة للبترول في أوبك.

> تمثل وكالة الطاقة الدولية تجمع الدول الصناعية المستهلكة للطاقة في مواجهة الدول المنتجة النامية المصدرة للبترول في أوبك

تسعى وكالة الطاقة الدولية إلى أمور عديدة منها السياسات المشتركة لترشيد الطاقة وتنويع مصادرها، وتقليص كمية البترول اللازمة لإنتاج وحدة واحدة من الناتج المحلي. إلا أن أحد اهتمامات الوكالة يتركز على تنسيق الجهود لبناء المخزون الاستراتيجي البترولي ومجالات استخدامه في ما بين الدول الأعضاء. إذ استنتجت الدول الصناعية أن أحد أسباب أزمة إمدادات الطاقة وأسعارها في العامين 1973 و 1974م يعود إلى عدم وجود مخزون لدى الحكومات لاستخدامه في حال انقطاع الإمدادات لأي سبب كان. فقد كانت الدول الصناعية عشية إنشاء الوكالة تستحوذ على 65 في المئة من الواردات العالمية من البترول، وكان الجزء الأكبر من احتياجاتها البترولية يرد من دول أوبك، خصوصاً من منطقة الشرق الأوسط التي كانت تغطي 55 في المئة من إجمالي تجارة البترول العالمية.

بداية التخزين

شرعت دول الوكالة كل على حدة، في بناء مخزونات استراتيجية توازي واردات 90 يوماً لكل منها، وذلك لاستخدامها في حالات الطوارئ. واختلفت سبل بناء المخزون ما بين هذه الدول.

I. E. A. وكالة الطاقة الدولية

الخزانات الاستراتيجية في منطقة بيغ هيل في الولايات المتحدة

فقد قامت الحكومة الأمريكية من خلال وزارة الطاقة التي استحدثت بعد الأزمة المشار إليها، ووفقاً لقانون سياسة الطاقة والترشيد الذي أقره الكونغرس عام 1975م، بشراء الزيت الخام من خلال مخصصات الميزانية الفدرالية، وتخزينه في أقبية ملحية على ساحل خليج المكسيك في ولايتي تكساس ولويزيانا تملكها وتديرها الحكومة الأمريكية.

وتطور حجم المخزون من الزيت الخام في الولايات المتحدة ليصل إلى نحو 660 مليون برميل في منتصف العام الجاري، منها نحو 395 مليون من الزيت الثقيل ذي المحتوى الكبريتي العالي. وبلغ إجمالي ما دفع لبناء هذا المخزون منذ أواسط السبعينيات حتى الآن نحو 20 بليون دولار (أي ما معدله 30 دولاراً للبرميل). ويهدف المخزون الأمريكي إلى التحوّط من احتمال انقطاع الإمدادات من جهة والوفاء بالتزامات الولايات المتحدة تجاه وكالة الطاقة الدولية لجهة مشاركة دولها في استخدامه متى دعت الحاجة. ويعطي القانون الأمريكي المشار إليه رئيس الجمهورية صلاحية السحب من المخزون في حالة الطوارئ. وهو ما حدث عشية حرب تحرير الكويت في عام 1991م، حين جرى سحب 17 مليون برميل تحسباً لانقطاع الإمدادات البترولية، وكانت تلك المرة الأولى التي استخدم فيها المخزون الاستراتيجي الأمريكي.

أما الدول الصناعية الأخرى فهي ملزمة بموجب "برنامج الطاقة الدولي"، بأن تحتفظ كل واحدة منها بما

يعادل 90 يوماً من وارداتها البترولية على شكل مخزون استراتيجي. وقد أعفيت الدول الأعضاء في الوكالة المصدرة للبترول (كندا والنرويج حالياً) من ذلك الالتزام.

> الدول المنتجة والمصدرة للبترول لا تعترض على بناء هذا المخزون، ولكنها تعارض استخدامه للتأثير على الأسعار

مخزونات الدول الأخرى

تحتفظ هذه الدول بمخزوناتها الاستراتيجية بواسطة الشركات أو وكالات التخزين. فالقانون الفرنسي يلزم الشركات المستوردة الاحتفاظ كل عام بما يعادل 26 في المئة من استهلاكها من الخام للعام السابق أي بما يوازي 95 يوماً للاستهلاك. أما ألمانيا فتلزم هيئة من الشركات بالاحتفاظ بمخزون من الخام والمنتجات يوازي 90 يوماً من استهلاك العام السابق، بينما يلزم القانون الياباني المصافي والمستوردين الاحتفاظ باحتياطي طوارئ يعادل 70 يوماً من استهلاك العام السابق. ويلزم القانون الإسباني الشركات الاحتفاظ باحتياطي طوارئ يتراوح ما بين 90 – 120 يوماً من حجم المبيعات. ويعود احتفاظ الدول الأوروبية بمخزون يكفي لتغطية 90 يوماً من الاستهلاك عوضاً عن 90 يوماً من الواردات المحدد في اتفاقية إنشاء وكالة الطاقة الدولية، إلى التزامها الإضافي النابع عن عضويتها بالاتحاد الأوروبي.

وتختلف مكونات المخزون الاستراتيجي فيما بين الدول. إذ بينما تحتفظ الولايات المتحدة بمخزونها خاماً (وكذلك النرويج)، تحتفظ اليابان بنحو 20 في المئة على شكل منتجات مكررة وسوائل الغاز، بينما تحتفظ معظم الدول الأوروبية بأكثر من 60 في المئة من مخزونها الاستراتيجي على شكل منتجات مكررة. وبشكل عام، تحتفظ دول الوكالة الدولية للطاقة مجتمعة بنحو 60 في المئة من مخزونها الاستراتيجي خاماً، وذلك بسبب ثقل حجم واردات الولايات المتحدة في المجموعة البالغ 34 في المئة.

تغيرات حجم المخزون الأمريكي

ويوضح الجدول الذي نرفقه بهذا المقال تغيرات حجم المخزون الاستراتيجي في الولايات المتحدة ومجموعة دول وكالة الطاقة الدولية خلال العشرين سنة الماضية. ويلاحظ أن المخزون الذي كان يغطي 19 يوماً من الاستهلاك في الولايات المتحدة عام 1983م أصبح يغطي بنهاية عام 2003م نحو 30 يوماً من الاستهلاك، وإن انخفضت تغطيته للواردات من 76 إلى 55 يوماً بسبب تزايد واردات الولايات المتحدة من 5 ملايين برميل يومياً عام 1983م إلى أكثر من 11 مليون برميل يومياً عام 2003م. ويلاحظ أيضاً أن دول الوكالة بما فيها الولايات المتحدة لم تلتزم بالاحتفاظ باحتياطي يكفي 90 يوماً من حجم الواردات إليها، ربما بسبب تكلفة التخزين من جهة، ولأنه وطوال الثلاثين عاماً الماضية لم تظهر أزمة

		1983م	1993م	2003م
حجم المخزون (مليون برميل)	الولايات المتحدة	379.6	587.1	638.4
	وكالة الطاقة الدولية	687.7	1140	1407
أيام استهلاك	الولايات المتحدة	19.4	27.6	30.4
	وكالة الطاقة الدولية	17.3	20.5	28
أيام الواردات	الولايات المتحدة	76	68	55
	وكالة الطاقة الدولية	38	46	49

مؤشرات المخزون الاستراتيجي في الولايات المتحدة ومجموعة دول وكالة الطاقة الدولية (مليون برميل وأيام استهلاك)

إمدادات من الحدة بحيث تستوجب استخدام المخزون الاستراتيجي نظراً لتوفر طاقات إنتاجية فائضة في مناطق العالم المختلفة عملت على سد فجوة العرض الناتجة عن انقطاع الإمدادات.

> لا يستخدم المخزون الاستراتيجي إلا في حال حصول "أزمة إمدادات"، ولكن لا اتفاق على تعريف محدد لها

متى يستخدم

على الرغم من أن اتفاق "برنامج الطاقة الدولي" يحدد مجال استخدام المخزون الاستراتيجي في حالة الطوارئ والتعاون بين دول الوكالة للمشاركة في تحمل الأعباء، إلا أنه بين الحين والآخر، تظهر خلافات بين الدول الأعضاء في الوكالة، أو داخل كل دولة حول ذلك، خاصة خلال الأزمات مثل حرب الخليج الثانية أو الحرب على العراق أو الاضطرابات الداخلية في فنزويلا أو ارتفاع الأسعار في النصف الأول من العام الحالي. فالبرنامج، وكذلك القوانين التي صيغت لبناء المخزونات الاستراتيجية لدول الوكالة ركزت على وجود أزمة إمدادات للسحب من تلك المخزونات. ولكن تعريف أزمة إمدادات عرضة لتفسيرات عديدة، إذ يرى البعض أن الارتفاع في الأسعار، حتى لأسباب لا علاقة لها بالإمدادات، يستوجب سحباً من المخزون الاستراتيجي للحد من جموح الأسعار. ويرى البعض أن انقطاعاً مؤقتاً للإمدادات بسبب اضطرابات أو كوارث طبيعية في مناطق الإنتاج قد يستوجب سحباً من ذلك المخزون. وتتدخل عوامل سياسية محلية في بعض الدول، خصوصاً في أوساط الكونجرس الأمريكي، في الجدل حول دواعي استخدام المخزون. ولكن الرأي الغالب في الإدارة الأمريكية وفي وكالة الطاقة الدولية هو عدم استخدام المخزون إلا في حالة انقطاع في الإمدادات العالمية لا يمكن تغطيته من الطاقات الإنتاجية غير المستغلة أو من المخزون التجاري.

موقف الدول المنتجة

إن الدول المنتجة والمصدرة للبترول لا تعترض على بناء هذا المخزون الاستراتيجي طالما أنه يعطي الدول المستهلكة والمستوردة شعوراً بالطمأنينة لجهة العرض، ويقلل من الحاجة إلى اتخاذ إجراءات للحد من نمو الطلب لديها. ولكن دول أوبك تعارض السحب من المخزون الاستراتيجي لغرض التأثير على الأسعار. لأن غرض المخزون هو مواجهة احتمال انقطاع الإمدادات، لا لاستعماله أداة لإدارة السوق البترولية. كما ترى دول أوبك أن السحب من المخزون الاستراتيجي في حالة انقطاع الإمدادات يجب أن يكون الخيار الأخير، وذلك بعد قيام الدول المصدرة ذات الطاقة الإنتاجية الفائضة بتعويض النقص في الإمدادات. وهذا ما حدث بالفعل إبّان أزمة الثورة الإيرانية عام 1979م، وأزمة احتلال الكويت في أغسطس 1990م، والإضرابات في فنزويلا في نهاية عام


I.E.A. وكالة الطاقة الدولية

رأس جبل الجليد، حيث يتم الخزن الاستراتيجي في مستودعات عملاقة تحت الأرض

2003م، والحرب على العراق في عام 2003م. إذ قامت دول أوبك الأخرى وعلى رأسها المملكة العربية السعودية بتعويض النقص في الإمدادات والمحافظة على استقرار السوق من دون إعطاء مبرر للدول الصناعية لسحب مخزونها الاستراتيجي.

وبشكل عام، لا يشكل المخزون الاستراتيجي تأثيراً مباشراً على حركة الأسعار على المدى القصير، كما هو الحال بالنسبة للمخزون التجاري الذي يؤثر في الأسعار من خلال بنائه فوق مستوى معين أو انخفاضه.

وإضافة إلى أن الحجم الأكبر من المخزون الاستراتيجي في العالم لا يزال حتى اليوم لدى الدول الصناعية الأعضاء في وكالة الطاقة الدولية، نشير في الختام إلى أن الصين بدأت في الآونة الأخيرة ببناء مخزون استراتيجي لا تتوفر معلومات عنه من حيث معدل البناء والحجم.

اقتصاد الشبكات

ما بين بطاقة الائتمان في جيوب الأفراد، والإعلانات التجارية التي تدعونا إلى شراء هذه السلعة أو تلك بواسطة الكومبيوتر، هناك اقتصاد عملاق وصل حجمه إلى أربعة تريليونات دولار خلال هذا العام.

إنه اقتصاد الشبكات الذي يحدثنا عنه الزميل أمين نجيب، ويعرض لنا بعضاً من آثاره المهمة في مجمل المفاهيم الاقتصادية والاجتماعية التي أُسست مع الثورة الصناعية، وترسخت لأكثر من قرنين من الزمن، وتبدو اليوم عرضة لتغييرات شاملة.

لم يشهد تاريخ التكنولوجيا تأثيراً كبيراً وسريعاً في الاقتصاد كالذي أحدثته شبكة الإنترنت. فالتجارة عبر الإنترنت التي تسمى أحياناً التجارة الإلكترونية أو الأعمال الإلكترونية eBusiness e-commerce لم تكمل بعد أعوامها الثمانية. ورغم ذلك فقد أحدثت في هذه المدة القصيرة تحولات عميقة في مسار اقتصاديات دول العالم وأخذت تفرز مفاهيم جديدة حول القوانين الاقتصادية نفسها. كما برزت مصطلحات جديدة في الكتابات الحديثة مثل اقتصاد الشبكات ومجتمعات الشبكات. حتى أن تي. مورفي يذهب بعيداً في نظرياته التي نشرها في كتابه الصادر عام 2000م بعنوان "قواعد الشبكة"، فيقول: "إننا نشهد أكبر انتقال لمراكز القوة في التاريخ". ويعني بذلك أن السلطة التي كانت سابقاً في يد المنتج (في ما يسمى أحياناً عصر فورد) بدأت تنتقل إلى المستهلك. وهذا بحد ذاته تغيير هائل يصحب معه تغييرات كبيرة في المفاهيم وفي النظرة إليها. فكثير من المفاهيم القديمة للدولة والطبقة والشركة والحزب والجمعية وغيرها تتعرض اليوم للاهتزاز الشديد نتيجة لهذه التغييرات الكبيرة الحاصلة على صعيد علاقات اقتصاد الشبكات.

ما نعنيه باقتصاد الشبكات هو جميع الأعمال التي لها علاقة بالإنترنت من بطاقات الائتمان التي نستعملها في السوبرماركت إلى أعمال البورصة والتبادلات المالية والتجارية بين الشركات، وأيضاً بينها وبين جموع المستهلكين.

لقد مرت هذه الاقتصادات بثلاث مراحل خلال المدة القصيرة من تاريخها. فالمرحلة الأولى كانت مقتصرة على أعمال الدعاية عبر الشبكات، والمرحلة الثانية شهدت وضع "طلبات عبر الشركة" وبعض المعاملات الاقتصادية، والثالثة تضمنت معظم أشكال الأعمال الاقتصادية الأساسية إضافة إلى الحوافز الموجهة إلى المستهلكين.

وجاء في تقرير لشركة الأبحاث IDC أن حجم الاقتصاد عبر الشبكة في السنة الجارية هو بحدود 4 تريليون دولار أي ما يعادل تقريباً عشر مرات حجم مبيعات النفط في العالم، ومن المتوقع حسب مصادر أخرى أن يتضاعف هذا الرقم خلال العام المقبل. وفي عام 2000م كان هناك نحو 106.4 مليون مستهلك على الخط Online Buyers، أما التوقعات لعام 2006م فتتحدث عن 464.1 مليون مستهلك. ولتأكيد عالمية هذه الشبكة، فإن التوقعات تشير إلى أنه سيكون هناك 21 في المئة فقط أمريكيون ويتوزع الباقون على أنحاء العالم كافة.

نهاية عصر الدكان

وقد شهدت الشركات التي انخرطت في اقتصاد الشبكات مثل America Online و eBay و Amazon وغيرها ارتفاعاً في مداخيلها وصلت إلى نحو 42 في المئة وتقلص مجموع التكاليف بنسبة 59 في المئة. حتى أن شركة IBM العملاقة أنشأت شركة أخرى اسمها WebSphere متخصصة في مكننة الشركات التي تخطط للانخراط في التجارة عبر الشبكة. ويقول لوتنباخ مدير هذه الشركة: "إن النمط القديم من الأعمال قد ولّى إلى غير رجعة".

ونتيجة لهذا التطور فقد شهد السوق العالمي نشوء شركات جديدة صغيرة أخذت تنافس الشركات القديمة العملاقة وتسحقها أحياناً. فشركة Amazon.com المتخصصة في الكتب والنشر وسّعت مجال نشاطها إلكترونياً وسحقت شركة Barnes & Noble. كما أن شركة Elsevier الهولندية، التي كانت سباقة في إطلاق قواعد معلومات واسعة في مجال النشر العلمي، توسعت في أنحاء العالم كافة وسيطرت على نحو 30 في المئة من سوق النشر، كما أنها اشترت العديد من كبريات دور النشر التقليدية في أوروبا وأمريكا وغيرها مثل Pergamon الإنجليزية و Academic Press الأمريكية وغيرها. أما Google و Yahoo فقد سيطرا على سوق الدعاية. وشركة Expedia سحقت Orbitz في مجال أعمال الطيران، في حين أن شركتي Kazaa.com و iTunes أزالتا من الوجود كبريات شركات الموسيقى، وسيطرت Paypal و eBay على التحويلات المالية عبر الإنترنت.

ونتيجة لهذه "الثورة" أصبحت الكثير من التخصصات القديمة، وحتى الحديثة منها في مجال المعلوماتية

وإدارة المعارف مهمشة وبلا جدوى. فجميع أمناء المكتبات في أنحاء العالم يتحدثون مثلاً عن "الغوغلة" (Googlization) والاشتقاق من شركة Google لأنها تقدم للمستهلك طرقاً سهلة يستطيع بواسطتها الوصول إلى أي موقع إلكتروني والحصول على أية معلومات يريدها من دون أية مساعدة متخصصة.

> **حجم اقتصاد الشبكات وصل إلى عشر مرات حجم مبيعات النفط في العالم، ومن المتوقع أن يتضاعف العام المقبل**

المستهلك الجديد ومجتمع الشبكة

وبحكم الطبيعة التفاعلية (Interactive) للشبكة فإن المستهلك الجديد لم يعد هو نفسه المستهلك القديم المغيب في الاقتصاد التقليدي. فالمستهلك على الشبكة يتفاعل مع المنتج ومع المستهلكين الآخرين. وأصبح بإمكانه أن يكتسب معلومات شبه كاملة عن السوق وعن السلعة. وقد كان الافتراض الأساسي في النظريات الاقتصادية التقليدية من سميث إلى كينز إلى صموليسون أن عند المستهلك معرفة كاملة لبناء نموذج مثالي للتنافس. ولأن هذه المعرفة كانت ناقصة إلى درجة أن النظام الاقتصادي الرأسمالي جنح إلى الاحتكار، طرح كينز نظريته الشهيرة حول تدخل الدولة في الاقتصاد وإنشاء المصرف المركزي. بهذا المعنى، ولهذه الأسباب، اكتسب المستهلك قوة جديدة، جعلته فاعلاً في السوق. فأصبح العامل الأساسي لنجاح أية شركة جديدة، هو في مدى جاذبيتها للمستهلكين على الشبكة ومدى التصاق هذا المستهلك، أي الوقت الذي يصرفه على موقع معين، لهذه الشركة أو تلك.

ومن هنا برزت فكرة أو مفهوم "المستهلك المتفاعل" وأصبحت البيئة التي يوفرها هذا الموقع أو ذاك هي الأمر المهم. وبذلك أصبح المستهلك هو صاحب الشأن، لا يكتسب قوته من توفر أو سهولة حصوله على المعلومات فقط، بل من الإحساس بالانتماء الجماعي إلى هذا الموقع أو ذاك. وعلى سبيل المثال فإن شركة مثل eBay تعطي ميزة "الوضع الخاص" Status أو المنزلة لأي شخص ليس بالنظر إلى شهرته أو مدى ثروته، بل لكمية المستهلكين الآخرين الذين يتجاوبون مع مقترحاته وأسئلته على الشبكة. وبما أن كثيراً من القوانين الاقتصادية التقليدية لم تعد صالحة في هذا الوضع الجديد، مثل قانون المردود المتزايد وقانون تآكل السلعة (لأن السلعة الأساسية على الشبكة هي المعلومات، والمعلومة تتغير دون أن تتآكل) فإن أهمية وقيمة أية شبكة هي في أعداد الذين يدخلونها ومعدل الوقت الذي يصرفونه في التنقل على مواقعها أو الاتصال بغيرهم من المستهلكين والمنتجين. فبرز إزاء ذلك "مجتمع الشبكة" (Network Community).

ولأن البيئة، أي بيئة الشبكة والموقع هي المهم وليس السلعة نفسها وقيمة استعمالها، فإن الدعاية والإعلان أصبحا يركزان على الأسلوب والشكل والصورة دون المضمون. وبهذا المعنى تصبح شركات مثل Amazon و Microsoft و AOL America Online شيئاً مختلفاً عن شركات أعمال تنتج وتبيع وتروج للسلع، بل أصبحت شركات تخلق وتخدم مجتمعات. فشركة Amazon مثلاً توفر لمجتمع شبكاتها كثيراً من النشاطات الفردية، كمراجعة كتاب مثلاً ونشره على الشبكة مهما كانت قيمته الفعلية. وشركة AOL حققت 30 في المئة من مجموع أرباحها السنوية لعام 2003م والبالغة 6.9 مليار دولار، من مردود ومصادر على الشبكة اشتغل بها متطوعون من مجتمعها على الشبكة، وفروا عليها نحو مليار من التكاليف.

"العالمية" بمفهومها الجديد

من السمات الأساسية لهذه "المجتمعات الشبكية" أن قسماً كبيراً من نشاطها هو خارج سلطة قوانين الدولة، أي دولة. فهي غير محصورة داخل حدود معينة. والمثال الساطع، الخطير أحياناً، هو سوق الأدوية والعقاقير الطبية وغيرها في إنجلترا. فرغم الضوضاء الكثيرة من قبل اللوردات ومجلس العموم وغيرهم من المسؤولين، لم يستطع أحد أن يسن قوانين تضع هذه التجارة الإلكترونية تحتها.

وبما أنه أصبح لأية شركة مصلحة في التوسع عالمياً، وأصبح لزاماً عليها التعرف عن قرب إلى حضارة وثقافة ولغة الآخرين فقد اكتسب المستهلك قوة جديدة بوجه المنتج واكتسب صفة عالمية أيضاً. كذلك لم يعد بإمكان المنتج أو الدولة وضع قوانين إلا بما يرضي جموع المستهلكين هؤلاء، نتيجة لطبيعة التنافس الجديد من نوعه على صعيد الكوكب. فباستطاعة المستهلك الجديد أن يتنقل بسهولة من بيئة إلى أخرى نتيجة للطبيعة التفاعلية لهذه الوسائط الإلكترونية نفسها، خصوصاً لسرعتها.

فالشبكة وضعت حداً لنموذج الإنتاج السوقي التقليدي وأعطت المستهلكين قوة المقاومة الجماعية على نطاق واسع لم تكن موجودة في السابق على الإطلاق. كما انتهى ذلك المستهلك المغيب الواقع تحت سلطة الدعاية والمجبر على الاستهلاك عبر خيارات محدودة. وأصبحت الدعاية تنتشر بواسطة المستهلكين وعلاقاتهم فيما بينهم. فالعلاقة ما بين المستهلكين أصبحت عاملاً حاسماً في اقتصاد الشبكات. كما أصبح كل مستهلك يعي أنه بمقدار ازدياد أعداد الداخلين على الشبكة أو مجتمعها تزداد قيمة كونه عضواً في هذه البيئة. ويجب الإشارة هنا إلى أننا نتكلم عن مئات ملايين البشر في كل أنحاء المعمورة.

> **المستهلك الجديد يستمد قوته على الشبكة من مقترحاته وأسئلته وتجاوب الآخر، وليس من ثروته وشهرته**

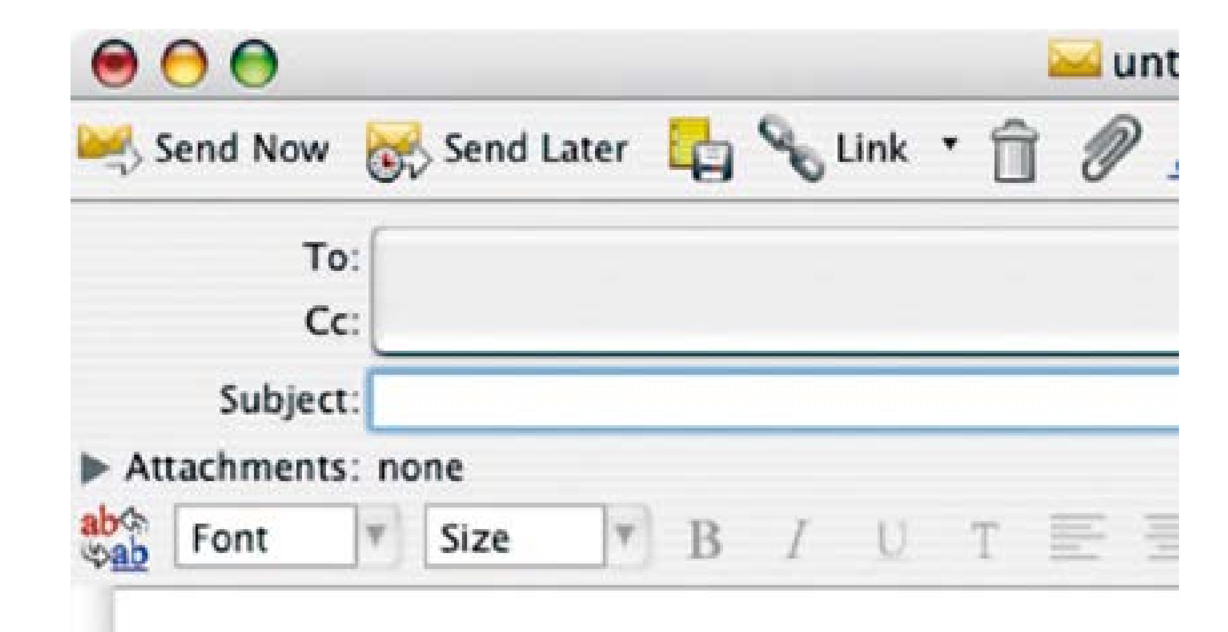
وبما أن الموارد الأساسية على الشبكة، أي المعلومات والمعارف وأخيراً الهوية الاجتماعية والانتماء الحديث، لا تعاني "القلة" (Scarcity) كما الموارد التقليدية، وكما أن المستهلك لم يعد ذلك الفرد الذي تقتله الغربة كما في الإنتاج الرأسمالي القديم، فقد أصبح توسع اقتصاد الشبكات من دون حدود وهذا التطور الهائل والمتسارع الجاري يهدد بالإطاحة الكثير من المواقع والمفاهيم التقليدية، ويطرح أسئلة جوهرية حول كافة المؤسسات في المجتمعات القديمة والحديثة في آن.

فمنذ بضع سنوات ونحن نتساءل لماذا تقدم لنا شركات مثل Yahoo و Microsoft وغيرهما مواقع مجانية على الشبكة فيصبح بإمكاننا أن نتصل بأنحاء الكرة الأرضية كافة، بسهولة بالغة. بعضنا كان يظن أنها أندية خيرية أو أنها شركات ودودة تعطي للجماهير ما فاض عندها أو لمجرد الدعاية. كما أن بعضاً منّا ذهب بعيداً ليقارنها ببعض المساعدات من الحكومة الأمريكية بشكل أكياس من الطحين عليها رسم ليدين متشابكتين وتحتها عبارة "تقدمة من الشعب الأمريكي". أما بعضنا الآخر فقد كان متأكداً أنها عيون للوقوف على كل شاردة وواردة عندنا وقال بأنها رمز المؤامرة. أما اليوم، فبتنا متأكدين من أنها العولمة وأننا جزء منها، سواء وعينا ذلك أم لم نعِ.

كيف تصبح ناشطاً على الشبكة

عليك أن تتصل أولاً بموقع البنك الذي تتعامل معه، وتطلب إليه تزويدك ببطاقة دفع إلكترونية. وعندما تصبح هذه البطاقة بحوزتك، وترغب بشراء بعض السلع الاستهلاكية أو غيرها، عليك أن تدخل من جهازك إلى موقع سوق مركزي (سوبرماركت) معين، وتستطلع أسعار السلع المعروضة فيه. ومن ثم يمكنك أن تنتقل إلى سوق آخر أو أسواق عديدة لمقارنة الأسعار وجودة السلع ومدة الصلاحية.. بعد ذلك تضع كل سلعة تختارها على لائحة معينة هي لائحة الاختيارات. ثم تتوجه إلى المربع المخصص لأرقام بطاقات الدفع، فتضع رقمك وتضغط على حقل الشراء، فتظهر فوراً صفحة المؤسسة المصرفية التي أصدرت بطاقتك طالبة إليك أن تضع كلمة السر. وبمجرد وضعك كلمة السر، تكون عملية الشراء قد تمت. فإذا كنت في المدينة نفسها التي توجد فيها سلعتك المختارة، فإنها ستصلك خلال وقت قصير جداً. أما إذا كان طلبك في بلدان أخرى، فعليك أن تنتظر الوقت الذي يستغرقه البريد السريع. هذه هي واحدة من أبسط العمليات على الشبكة، غير أن بعضها يتدرج في التعقيد بدءاً بشراء سيارة مثلاً ودخولك مجتمع الشبكة المعنية لاستطلاع آراء المستهلكين الآخرين في السيارة نفسها قبل أن تتخذ قرارك النهائي.. وصولاً إلى إجراء التحويلات المالية على أنواعها، وصرفها، وشراء الأسهم وسندات الخزينة وما إلى ذلك.. وكل ذلك يقوم على الأسس الأولية لطريقة "السوبرماركت" مع بعض الاختلافات الخاصة بكل نوع من أنواع المعاملات.

آداب التعامل بالبريد الإلكتروني

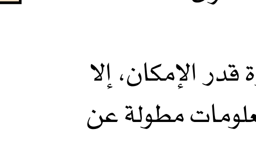


أصبح البريد الإلكتروني وسيلة اتصال بالغة الأهمية في العالم بأسره. يستعمله الصغير والكبير، الأكاديمي والحرفي، الغني والفقير، في الدول النامية كما في الدول المتقدمة.. ولا اختلاف بين الواحد والآخر إلا في درجة التقيد بآدابه. فكما أن هناك قواعد لتبادل الأحاديث بين الناس، وأخرى للرسائل التقليدية، فللتعامل بواسطة البريد الإلكتروني قواعد وأصول، لم يضعها راي توملنسون عام 1982م عندما اكتشف هذا النظام، لكنها فرضت نفسها من خلال الممارسة والتجربة. أهم هذه القواعد يعرضها لنا هنا الدكتور غازي سليمان حاتم في ما يأتي:

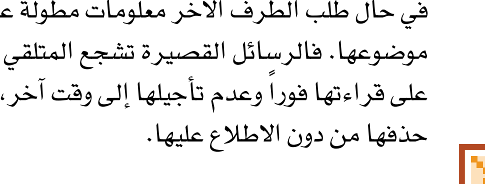
1. حرصاً على وقت المرسل إليه، يستحسن وضع عنوان واضح للرسالة يعطي فكرة عن محتواها قبل فتحها، بحيث يُفسح في المجال أمام متلقيها لمعرفة محتواها وأرشفتها وتأجيل قراءتها بالكامل إلى وقت آخر إذا كانت مشاغله تحتم عليه ذلك.

2. عند الكتابة بالأحرف اللاتينية، ينبغي تجنب استعمال الأحرف الكبيرة التي يراها الغربيون تعبيراً عن اللامبالاة، وربما الغضب أو محاولة الإهانة.

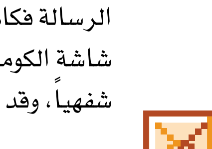
3. يجب أن يقتصر استخدام البريد الإلكتروني على الأمور الجدية. لأن الإكثار من الرسائل قد يؤدي إلى ملء المساحة المحدودة لكل حساب إلكتروني، وبالتالي إلى إيقافه إضافة إلى أن الأمر يعطي انطباعاً عند المتلقي بأن المرسل يفتقر إلى الاهتمامات والأعمال الجدية الأخرى.



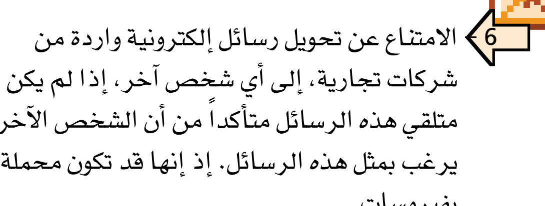
4. ينبغي أن تكون الرسالة قصيرة قدر الإمكان، إلا في حال طلب الطرف الآخر معلومات مطولة عن موضوعها. فالرسائل القصيرة تشجع المتلقي على قراءتها فوراً وعدم تأجيلها إلى وقت آخر، أو حذفها من دون الاطلاع عليها.



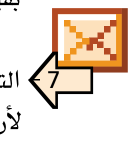
5. من الضروري تجنب العبارات أو المصطلحات التي تحمل طابعاً ساخراً، حتى ولو كان موضوع الرسالة فكاهياً، إذ إن وقع المزاح الكلامي على شاشة الكمبيوتر يختلف تماماً عمّا هو عليه شفهياً، وقد يساء فهمه، فيعتبره المتلقي إهانة له.



6. الامتناع عن تحويل رسائل إلكترونية واردة من شركات تجارية، إلى أي شخص آخر، إذا لم يكن متلقي هذه الرسائل متأكداً من أن الشخص الآخر يرغب بمثل هذه الرسائل. إذ إنها قد تكون محملة بفيروسات.



7. التأكد من صحة المعلومات المرسلة إلى الآخرين، لأن الكتابة على شاشة الحاسوب لا تفسح في المجال لرؤية النص بكامله في الوقت ذاته. كما يجب مراجعة النص لغوياً قبل إرساله، لأن كثرة الأخطاء الطباعية توحي بعدم الاهتمام.



8. تجنب إرسال مواد محمية بحقوق النشر، وذلك للحيلولة دون خرق القوانين التي تزداد تشدداً يوماً بعد يوم في معظم بلدان العالم.

9. استخدام حروف وأرقام وإرشادات عند وضع كلمة المرور للحساب الإلكتروني، وذلك لإحباط محاولات اختراقه.

10. يستحسن استخدام حسابات متعددة، وعدم الاقتصار على استخدام حساب إلكتروني واحد في مواقع مختلفة، واختيار كلمات سر مختلفة، وعدم استخدام موقع البريد الإلكتروني الرئيسي في التسوق عبر الإنترنت.

11. اتباع القاعدة الذهبية في الأعمال، القائلة بعدم قول أي شيء يمكن الاستغناء عن قوله، والحرص على عدم نشر المعلومات الواردة من دون موافقة المرسل. لأن الرسالة الإلكترونية عبارة عن حديث بين طرفين، ويجب أن يبقى بينهما إلا إذا اتفقا بوضوح على إطلاع الآخرين عليه.

12. تجنب إرسال بريد إلكتروني إلى أي شخص من دون معرفة سابقة به، تلافياً لأي سوء تفاهم. وإذا كان لا بد من ذلك، فعلى المرء أن يعي بأن رسالته قد تبقى من دون جواب، لأن متلقيها قد يشك في هوية المرسل، كأن يظن بأن مصدرها الهاكرز للتجسس عليه، فيلغيها من دون أن يفتحها، وهذا من حقه.

13. من الطبيعي أن يتوقع المرسل جواباً على رسالته خلال ساعات معدودة طالما أن البريد الإلكتروني يمكن أن يصل فوراً إلى حيثما وجد المرسل إليه. ولكن يجب الامتناع عن العتاب الحاد على التأخير في الرد، لأن ذلك يشكل ضغطاً على المرسل إليه يؤدي إلى تأزم العلاقة معه، خاصة إذا كان الطرف الآخر لا يرغب فعلاً بالرد، وهذا حق من حقوقه.

شعر العرب في بلاد الغرب

حين يحتفل العربُ في بلاد الغرب بشاعر عربيٍّ صميم، فإن ذلك يحمل الكثير من الإشارات. وحين يكون المُحتفَل به شاعراً مثل ابن زيدون، وأرضُ الاحتفال بلاداً مثل إسبانيا؛ فإن ذلك يعني المزيد من الإشارات.. الأديب محمد رضي الشماسي يحدثنا عن تكريم مؤسسة البابطين لـ "ابن زيدون" في قرطبة..

إسبانيا، جوهرة التاج العربي المفقود في أوروبا؛ لها موعد مع صحوة وإبداع نغم الكلمة العربية الرقيقة، والموسيقى الهادئة للشعر العربي، بعد أن غاب عنها ذلك الجو الإبداعي الساحر ما ينوف على ستة قرون. وستة قرون فاصل هائل؛ إذا قيس بالعمر البشري، غير أنه بالمقياس الحضاري يختلف في تفاصيل كثيرة.. وأمام إسبانيا أيامٌ لاستعادة قرون مهمة من تاريخها المجيد وحياتها المشرقة، التي ملأها العرب والمسلمون علماً وأدباً وشعراً؛ حتى أصبحت - إسبانيا - مدرسة أوروبا الأولى التي خرّجت طلاب العلم من إيطاليا و ألمانيا وفرنسا وبريطانيا وغيرها من البلدان الغربية..

قرون طويلة عاشتها بلاد الأندلس في ظل حضارة العرب والمسلمين، ومنها عاد الأوروبيون إلى أوطانهم فلاسفة، وأطباء ومهندسين، وفلكيين ورياضيين.. ومارسوا هذه العلوم أساتيذ في جامعاتهم، ومعلمين في مدارسهم ومعاهدهم.

لقد أخذوا من إسبانيا المسلمة وأعطوا أوروبا ذات الديانات المختلفة. أخذوا علوماً ومُثلاً من المسلمين والعرب وأعطوها الأوروبيين. وبهذا انفتح باب الاستشراق، الذي انفتح - بدوره - على إشكاليات كثيرة، منها ما هو حضاريٌّ محض، ومنها ما هو أيديلوجي، ومنها ما هو سياسي.

وحين تصحو إسبانيا على الشعر، في حفل تكريم مؤسسة البابطين للشاعر ابن زيدون، فإن ذلك يرمز إلى علاقة الحنين بين التاريخ والحضارة، بين الماضي والحاضر، بين الفن والعلم، بين كثير من الثنائيات الرائعة، فالشعر العربي في بلاد الأندلس كان ذا صبغة خاصة يعرفها دارسو الأدب، وله ملامح ذات خصوصية مهمة، فقد انطلقت منه الكثير من الصيغ المرتبطة بذلك العصر وحضارته وواقعه، لقد كان (موشَحاً) بالفكر العربي الأصيل، والوعي المتوثب إلى النهوض بهذه الأمة التي فقدت جوهرة تاجها العربي اللامع في دياجير عصور أوروبا المظلمة.

وسوف تصحو كذلك على السخاء الإنساني من أديب عربي عرفه العالم العربي، هو سعود بن عبد العزيز البابطين، الذي خدم الثقافة العربية بالعديد من الأعمال والمشاريع الكبيرة التي لا تنهض بها إلا المؤسسات.. وتكفيه مفخرةً الموسوعات الأدبية (معجم البابطين للشعراء العرب المعاصرين).

مهرجان ابن زيدون التكريمي هو التاسع من نوعه الذي تعودت لجنة التكريم برعاية صاحبها أن تقيمه كل عامين في بلد عربي أو بلد يتصل في أسبابه بالوطن العربي الكبير مثل إسبانيا — المحتضنة للمهرجان — التي أخذت من العرب الكثير من مفردات لغتهم، فأخضعتها إلى نغمات اللهجة الإسبانية، والنبرة الأعجمية.

إن الحضارة المعاصرة احتاجت إلى إسبانيا في الكثير من زادها العلمي والثقافي والمعرفي. وحين نحصر القضية في الأدب، فإن الأدب الإسباني تأثر بالأدب العربي بشكل جلي في العديد من الأجناس الأدبية الإسبانية.

لتأخذ مثلاً مقامات الحريري التي أثرت في فن القصة الإسبانية فظهر تأثيرها في مثل قصص (الشطار) التي نشأت في إسبانيا، كذلك (ألف ليلة وليلة) و(كليلة ودمنة) الهندية الأصول، وقصة (التوابع والزوابع) لابن شُهَيد الأندلسي. والشواهد في هذا السياق كثيرة. والمثقفون العرب يعرفون مثل قصة (حي بن يقظان) لابن الطفيل، ومثل آثار ابن حزم الأندلسي وابن رشد وابن سينا وغيرهم الكثيرون الذين عبروا بنتاجهم الفكري إلى أوروبا على طريق معبّد هو إسبانيا؛ مدرسة أوروبا لدى المسلمين.

وأما في الشعر فيكفينا مثالاً على ذلك (الشعراء التروبادور) الذين ظهروا في العصور الوسطى، وهم فرقة موسيقية كانوا يتجولون في فرنسا من قصر إلى قصر ومن بلاط إلى بلاط، في جنوب فرنسا ينشدون الأغاني الغزلية ذات العشق المتوهج. وهذا النوع من شعر الحب والأغاني إن هو إلا على نمط الموشحات الأندلسية والأزجال العربية التي ابتكرها الأندلسيون في القرن الثالث الهجري، التاسع الميلادي.

الحديث في هذا الموضوع طويل، شائق و شائك. وما هذه إلا إيماءة عاجلة، أو لافتة صغيرة على طريق المهرجان. فإسبانيا هي جسر الحضارة بين الشرق والغرب، وهي نقطة التحول العربي الصعبة، وهي حنين العرب إلى نوع فريد من الثقافة والعلوم.. وهي الردهة التي مرت بها أوروبا إلى عصرها الحديث..

من هنا جاء اختيار (مؤسسة البابطين للإبداع الشعري) موفقاً لتكريم شخصية الشاعر ابن زيدون في قرطبة؛ التي امتزجت فيها الثقافتان العربية والغربية وتقاربت اللغتان العربية والإسبانية. وقامت فيها وفي غيرها كغرناطة وإشبيليا العمارة الإسلامية الباذخة التي ما زالت تقاوم عوادي الزمان، وتصارع نوازل الليل والنهار شاهدة على عظمة البناة المسلمين، وعبقريتهم الهندسية.

المناسبة شهية، والحدث مبهج، ليس من باب استعادة ما في الذاكرة من تاريخ، وليس من باب ما تحتفظ به قرطبة من ملامح عربية، وشواهد إسلامية، وليس من باب التباكي على الأمجاد، وإعادة قراءة "لكل شيء إذا ما تمَ نقصان"، كما يقول الشاعر العربي المتحسّر على ضياع الأندلس..!

وإنما لأن في هذه البوابة العريضة، الأندلس، موقفاً للعرب والمسلمين من الحضارة البشرية، وهو موقف من الجدير أن يتبلور على نحو من الأنحاء، وحفل تكريم الشاعر ابن زيدون يجسد جزءاً مهماً من هذا الموقف.. إنه موقف إنساني النزعة، صنعه التطلع إلى بناء الحياة من دون التفريق بين الأجناس والأعراق. لقد كان موقفاً بنته دولة عربية إسلامية في أول توسعها القوي، لكنها واصلت بناءه لقرونٍ طويلة لاحقة، وتركز في حقول المعرفة والعلوم والفكر الإنساني الذي أخذت منه أوربا، ومن بعدها العالم أجمع، حقائق ليست يسيرة..

حين تقف مؤسسة البابطين على منبر تكريم ابن زيدون، فإن عشرات الأسماء العربية "الأندلسية" ستكون على مقاعد الجمهور أيضاً، موجودة في المشاعر والذاكرة والمجد العربي الممتد، وكأن مقطعاً شعرياً يقرر: أضحى التداني بديلاً عن تنائينا..

من تجاهل الأهل إلى تهاون المعلمين..

الضعف الدراسي في ثلاثة وجوه..!









مع بدء الموسم الدراسي ينصب اهتمام الأهل على متابعة مستويات التحصيل عند أولادهم، ويطرح الطلاب الضعاف أمام ذويهم تحديات يسعى هؤلاء إلى رفعها لإلحاق أبنائهم بالمتقدمين عليهم. فما هي أسباب تقصير بعض الطلاب في مدارسهم؟ وهل المدرّس الخصوصي هو الحل؟ ثلاثة مختصين يطرحون هنا جوانب مختلفة من القضية. فالمدرس المتقاعد محمد ياسر الفتوى يعرض مجموعة كبيرة من الأسباب المختلفة التي قد تضعف التلميذ وتؤخره في تحصيله العلمي. والمدرس المجاز في التربية خالد أحمد الشنتوت يبحث في الدور الذي يمكن أن يؤديه المدرس الخصوصي بإيجابياته وسلبياته، مستنداً في ذلك إلى خبرة زادت على الأربعين سنة في التدريس. كما يتناول الباحث عمر قمر الدين قضية "القُرَّاء" التي رصدها العلم أخيراً، لفرادتها وخروجها عن إطار المتاعب التقليدية التي يعانيها الطلاب الضعاف.

1 تقصير أم قصور..؟

محمد ياسر الفتوى



المحترف السعودي

تختلف أسباب التقصير الدراسي بين مرحلة تعليمية وأخرى. ولا عجب في ذلك، طالما أن المؤثرات النفسية والاجتماعية المسببة لضعف الطلاب في التحصيل العلمي تختلف حسب الأعمار والاهتمامات والتحديات التي يواجهونها. ونبدأ جولتنا على أهم هذه الأسباب انطلاقاً من المرحلة الابتدائية.

1 - **الافتقار إلى المرحلة التمهيدية:** فالأطفال الذين لم يمروا بمرحلة تمهيدية ولم يذهبوا إلى رياض الأطفال قبل تسجيلهم في المدارس قد يعانون ضعفاً في المتابعة والتحصيل بسبب عدم تهيئتهم سابقاً، ذهنياً ومسلكياً، لتقبل نظام المدرسة، ويتأخر بعضهم (وليس بالضرورة كلهم) عن اللحاق بتلاميذ هم بسنهم نفسها، لكنهم بمرورهم برياض الأطفال كانوا قد تعودوا على النظام المدرسي وأعدوا إعداداً لائقاً للتأقلم مع نظام المدرسة.

إلى ذلك تلعب مسألة السن المناسبة دوراً مهماً في مستوى التحصيل الدراسي، إذ يحصل أحياناً أن يلمس الأهل تفوقاً نسبياً لدى ابنهم في رياض الأطفال، فيسعون جاهدين إلى أن يقفزوا به فوق سنة دراسية كاملة، فيسجلونه في صف أعلى من الذي يفترض أن يكون فيه. وإذا ما فعلوا ذلك، فإنهم يقحمون صغيرهم في معاناة ربما لا يطيقها، وتنعكس لاحقاً على مستقبله ضعفاً وتلكؤاً.. وأما إذا كان الطفل قد تأخر لسبب قاهر عن دخول المدرسة ووجد نفسه بين رفاق أصغر منه، فيجب إيلاء وضعه أهمية بالغة لما قد يتشكل عنده من تأزم نفسي قد يصعب حله، ويكون سبباً مباشراً في الضعف واللامبالاة.

2 - **بطء التعلم والفهم:** ليس البطء في الاستيعاب حالة مَرَضية، ولا هو بالضرورة ناجم عن مشكلة معينة. فهناك تلامذة صغار تتقلص عندهم جذوة النشاط فيتأخرون عن مجاراة رفاق الصف في الاستيعاب والحفظ. وهذه من المشاكل التي يمكن للمدرس الكفء أن يعالجها من خلال معرفة ما يثير اهتمام كل تلميذ من هؤلاء على حدة، فيعمل على استفزازه لتحريكه من ركوده شرط أن يكون ذلك مصحوباً بالتشجيع للتلميذ.

3 - **المشكلات البيتية:** وهي كثيرة ومتشعبة، لكن أهمها يتمثل في عدم اهتمام الوالدين بتعليم صغيرهم أو إظهار هذا الاهتمام أمامه. فيعتقد الولد أن ما يبذله من جهود في المدرسة ليس مثيراً للاهتمام، فيفقد

هو بدوره اهتمامه بالدراسة. أما أصعب المشكلات البيئية وقعاً على التلامذة الصغار فيكمن في الشجار العائلي. إذ غالباً ما يظن الأهل أن خلافاتهم وشجارهم لا يعني أطفالهم، أو أن هؤلاء لا يفهمون ما يجري حولهم.

4 – **النشاط الزائد:** ويتمثل هذا السبب في أن بعض الأولاد يملكون طاقات حركية قوية جداً، تدفعهم إلى الانشغال عن متابعة الدروس وتشتت تركيزهم. والحل هو في أن يلجأ المعلم إلى إطفاء الفائض من هذه الطاقة، إما بتدريبات حركية، أو تركه يمارس ما يهوى من ألعاب تتطلب مجهوداً كبيراً.

5 – **سوء التغذية:** يعتبر سوء التغذية، سواء أكان ناجماً عن الفقر أو عن عادات غذائية سيئة، عاملاً قوياً في ضعف بعض التلامذة، لأنه ينعكس قصوراً فيزيولوجياً وذهنياً، يظهر على شاكلة خمول وهزال.

أما الفقر فقد لا يكون مصدر خطر كبير على التحصيل المدرسي. لأننا نرى كثيراً من الفقراء يدفعهم وضعهم إلى أن يعوضوا شعورهم بالنقص بانكبابهم الهائل على العلم وإثبات وجودهم والعمل على تحقيق طموحاتهم.

تختلف أسباب التقصير في الدراسة بين مرحلة وأخرى، وأخطرها قد يكون في المرحلة المتوسطة

إضافة إلى ما تقدم، هناك الوضع الصحي للتلميذ جسدياً ونفسياً. فمن البديهي أن يعمل الأهل على تطبيب أولادهم مهما كانت العلة التي يشكون منها صغيرة. ولكن الأهم هو أن لا يقوموا بتقويم أوضاع أولادهم في الدراسة قبل التأكد من أنهم بصحة جيدة. لأن نتائج التقويم ستكون على الأرجح مخيبة لآمالهم، كما أنه لن تكون منصفة لأولادهم.

الضعف في المرحلة المتوسطة

وهي أشد خطراً وأصعب حلاً، لأنها مرحلة تبلور شخصية الطالب مدرسياً واجتماعياً. خاصة أنه يعيش تحولات كبرى على الصعيد الفيزيولوجي كما على صعيد الاهتمامات والإحساس بالمسؤولية. ومن أبرز أسباب ضعف التلميذ في هذه المرحلة يمكننا أن نذكر:

1 – الاعتداد الفائق بالذات، وشعور التلميذ بأنه أصبح رجلاً يعرف مصلحته، ويستطيع القيام بما يريد.

2 – رهافة الحس: نتيجة لنمو الوعي وبدء الإحساس بالكرامة كرجل، فيرى في توجيهات المربين أوامر قد تنتقص من استقلاله الشخصي.

3 – متاعب المراهقة وأخطرها رفاق السوء: فالصداقات التي ينشئها في هذه الفترة تختلف تماماً عمّا كانت عليه أيام الطفولة، إذ إن جزءاً منها يخرج عن رقابة الأهل ومتابعتهم لها. ولعل المعلم في وضع أفضل من الأهل لمعرفة حقيقة الصداقات التي ينسجها التلميذ مع غيره. وعلى عاتق هذا المعلم تقع المسؤولية في جذب التلميذ بعيداً عن رفاق السوء.

وفي المرحلة الثانوية

يبدأ النضوج الفكري عند الطالب، وتتميز بتطلعه إلى الأماني الكبرى التي "اقترب موعد تحقيقها"، إذ بات قاب قوسين من التخصص الجامعي أو دخول معترك العمل. وعلى الرغم من ذلك قد نجده في بعض الأحيان يضعف ويتعثر لأسباب كثيرة أهمها:

1 – تراكم الضعف القديم الذي لم يعالج في المرحلتين الابتدائية والمتوسطة فحمله الطالب معه إلى حدود تثبيط العزيمة، فيبدأ بالتعامل مع دراسته الثانوية "كآخر عبء عليه أن يتحمله" فيفر من واقعه إلى اللهو والعبث.

2 – زعزعة الثقة في المستقبل: وقد برز هذا العامل في واقع حياتنا خلال السنوات الأخيرة، إذ لم يعد للشهادات العلمية مردودها المادي الكبير، حتى أن بعضها خسر مكانته في السلم الوظيفي، مما يجعل بعض الطلاب يتطلعون إلى التخصص العلمي وكأنه لا جدوى له، فيعتبرونه هامشياً.

3 – التراخي في النظام: ويتراوح ما بين مدرسة وأخرى، فإذا كان من الطبيعي أن لا تعامل المدرسة الطالب الثانوي وكأنه طفل في المرحلة الابتدائية، فمن الممكن أن يتيح "التراخي" للطالب أن يتصرف على هواه ويتمادى في إهمال واجباته.

كل ما تقدم يؤكد أن هناك أكثر من سبب للتقصير الدراسي. والمعالجة السليمة لهذه المشكلة التي تؤرق بال الأهالي وترهق التلميذ ومعلميه تكمن في تشخيص السبب المحدد ومعالجته. وما من سبيل للوصول إلى هذا التشخيص والتأكد من سلامته إلا بالمتابعة عن كثب والحوار ما بين الأهالي والمعلمين، والحوار ما بين الطالب ومدرّسه.. ولعل أبرز دليل على كفاءة هذا المدرس أو ذاك، تكمن في وعيه لأهمية هذا الحوار وقدرته على أخذ المبادرة والبدء به.

2 المدرس الخصوصي

ما له وما عليه

خالد أحمد الشنتوت



المحترف السعودي

مما لا شك فيه أن هناك فروقات فردية بين طلاب الصف الدراسي الواحد. وعلى المدرّس أن يراعي وجودها في تعامله مع الطلاب. ولكن عندما يكون عدد الطلاب في الفصل الواحد مرتفعاً فإن من الصعب على المدرس أن يولي كل طالب الاهتمام الذي يستحقه على حدة، فهو مكلف قبل كل شيء بتنفيذ المنهج المقرر، وعليه أن يقوم بذلك بسرعة متوسطة تلائم الطالب العادي. وقد يستطيع إعادة الشرح مرتين أو ثلاثاً خلال الحصة الواحدة، لكن يبقى الأمر غير كافٍ لجميع الطلاب.

ولو أخذنا فصلاً دراسياً من 40 طالباً، على سبيل المثال، لوجدنا أن هناك ما معدله 7 طلاب لم يستوعبوا المنهج كاملاً عن المدرس، ويحتاجون إلى مدرس آخر. إنه المدرس الخصوصي الذي يذهب إلى منزل الطالب (أو يذهب الطالب إلى منزله) لكي يعلمه وحده بعيداً عن زملائه التلاميذ الآخرين.

ومما يزيد في الطلب على المدرس الخصوصي نذكر ما يأتي:

1 – اشتراط معدلات مرتفعة لقبول الطلاب في المرحلة الثانوية العامة، حيث لا يقبل الطالب من المرحلة المتوسطة إلى الثانوية العامة إلا إذا زاد معدل علاماته على 60 في المئة. لذلك يلجأ كثير من الآباء إلى دعم أبنائهم بدروس خصوصية في العام الثالث من المرحلة المتوسطة بشكل خاص، لكي يحصّل هؤلاء المعدلات اللازمة لدخول المرحلة الثانوية.

2 – الأمر نفسه يصبح أشد إلحاحاً بالنسبة إلى دخول الجامعات والكليات المرغوب بها أكثر من غيرها، حيث يتطلب الأمر معدلات مرتفعة، يعجز كثير من الطلاب – الآن – عن الحصول عليها من دون دروس خصوصية.

3 – وهناك حالات خاصة وقليلة يضطر فيها الطالب إلى الاستعانة بمدرس خصوصي بعد مرض أصابه وقطعه عن المدرسة شهراً أو أكثر أو ما شابه ذلك.

إساءة استعمالها

يسعى معظم المدرسين إلى إعطاء الدروس الخصوصية في المنازل على حساب أوقات راحتهم بسبب دخلهم المحدود. وكأن الدروس الخصوصية شر لا بد منه. وإن كان جميع المدرسين قد بدأوا عملهم الإضافي هذا بسبب الحاجة الماسة، فلا بد من الاعتراف بأن الأمر

تطور عند بعضهم إلى مهنة مربحة، درّت عليهم أموالاً لا بأس بها.

ولكن هذه الدروس الخصوصية التي يجب أن تكون مساعدة محدودة للتلميذ، تهدف إلى إلحاقه بمستوى رفاقه الناجحين، تتعرض إلى إساءة استعمال وتطبيق على أيدي الأهالي والمدرسين الخصوصيين على حد سواء.

فمن أسباب اللجوء إلى الدروس الخصوصية هناك العناية الزائدة عند الأسرة بأطفالها. إذ تعتمد بعض الأسر المدرس الخاص في البيت منذ السنة الأولى في المرحلة الابتدائية، لمجرد امتلاكها الإمكانات المادية اللازمة لذلك، ولاعتقادها أن الأمر سيؤمن النجاح والتفوق لابنها. ولكن النتيجة غالباً ما تكون اتكال التلميذ على المدرس، فلا يعود يلمس كتاباً من دون وجوده بجانبه، ويذهب بعضهم في الاتكال على هذا المدرس إلى حد ترتيب الحقيبة يومياً.. وبالوصول إلى السنة الابتدائية الثالثة يكون وجود المدرس الخصوصي قد أصبح ضرورياً جداً لهذا التلميذ، بعدما تعوده، ولن يتمكن بعد ذلك من القيام بأي واجب مدرسي بمفرده، وسيرسب حتماً من دونه.

المدرس الخصوصي مفيد في حالات محددة.. أما المبالغة في الاعتماد عليه فتؤدي إلى نتائج مدمرة

وقد لاحظت خلال عملي في التدريس لمدة أربعين عاماً وجود طالب أو اثنين في كل فصل لا يمكنني أن أدفعهم إلى المشاركة في الحصة مهما أوتيت من خبرة. وكنت أعترف كل سنة بعجزي عن دمج طالب أو أكثر في الحصة. وأسميت هذه الظاهرة "الطالب السلبي في الفصل"، لأنه تعود أن يدرس بطريقة فردية: يجلس المدرس الخصوصي إلى جانبه، ويكلمه وحده بصوت ولهجة ومصطلحات اعتادها. وهذا الطالب الذي يعجز عن إعادة السؤال الذي طرحه المدرس قبل لحظة، يأتي في الغد وقد حلّ الواجب على أحسن ما يرام.. كما اكتشفت أن بعض الطلاب يكتب خلال الحصة بخط رديء جداً، وخطه في دفتر الواجب أفضل بكثير. ومن خلال الممارسة، تأكد لي أن بعض المدرسين الخصوصيين يكتب بنفسه للطالب في السنوات الثلاث الأولى، مما يجعل خط هذا الطالب سيئاً مدى العمر.

وبوصول هذا الطالب إلى المرحلة الثانوية، تُفتح خزانة والده (الثري) على مصراعيها لدفع بدل أتعاب منظومة كاملة من المدرسين الخصوصيين، غير أقساط المدرسة الأهلية.

والواقع أن إساءة التعامل مع مهمة الدروس الخصوصية يمكنها أن تصل إلى مستويات بالغة الخطورة من قبل بعض المدرسين ذوي النفوس الضعيفة. إذ إن بعضهم على سبيل المثال يكتفي بالشرح قليلاً أثناء الحصة في المدرسة، ويترك الشرح الوافي للبيت، حيث يبيعه بثمن مرتفع. كما أن بعضهم لا يتورع عن إساءة الأمانة المهنية فيسرب أسئلة الامتحانات إلى تلميذه الخصوصي ولو بإشارة غامضة كقوله "إن هذا الموضوع مهم" مؤكداً عليه وجوب الامتناع عن نشر ذلك بين الطلاب، فيفهم التلميذ أن هذا هو موضوع الامتحان المقبل.. ولكن أية نتيجة سيحصد هذا التلميذ بوصوله إلى امتحان الوزارة في نهاية السنة الثانوية الثالثة.. هل سيكون المدرس الخصوصي هناك للإيحاء له بنوعية الأسئلة التي سيواجهها؟ الجواب هو حتماً: لا. وهكذا تكون الأسرة التي بدأت في الاتكال على المدرس الخصوصي من باب العناية الزائدة والمباهاة، قد وصلت إلى القضاء على ولدها تماماً.

إيجابيات وسلبيات..!

بشكل عام، يمكننا أن نلخص هذه الظاهرة غير التربوية المستفحلة بأنها ذات إيجابيات وسلبيات عديدة.

فمن إيجابياتها توفير سنة دراسية على الطالب عندما تتركز الدروس الخصوصية على مادة أو اثنتين رسب فيهما في الدور الأول من الامتحانات. ومساعدة الطالب في الثالث المتوسط على الوصول إلى المرحلة الثانوية، من خلال رفع مستواه في المواد الأساسية التي ترفع معدل علاماته العام. وتمكين الطالب الثانوي من دخول الكلية الجامعية التي يرغب بها إذا كان الأمر يحتاج إلى مساعدة يمكن تأمينها بجهد إضافي يبذله التلميذ مع مدرسه الخصوصي.

أما سلبيات المدرس الخصوصي فتكمن في تعويد الطالب الاتكالية، وتجريده من الثقة في الذات حتى إذا كبر أصبح رجلاً عاجزاً عن اتخاذ قراراته من دون مساعدة الآخرين، وعن مواجهة مصاعب الحياة من دون مساعدتهم.

أخيراً وليس آخراً، لا بد من ذكر استنزاف جهد المدرس وطاقته في الدروس الخصوصية خارج الفصل. بحيث لا يبقى عنده لمجموع طلابه في الفصل إلا القليل من القدرة على الاهتمام والعطاء. فهل يجوز ذلك؟



3 القُرَاء.. ما هو ومن يعاني منه؟

عمر قمر الدين

أرامكو السعودية

"القُرَاء" أو عمى الكلمات (Dyslexia)، مشكلة مثيرة للجدل في الأوساط التعليمية في العالم أجمع. وليس هنالك من تعريف واحد مقبول لها من قبل جميع المعنيين بالشأن التعليمي، فكثيراً ما يُشار إلى "القُرَاء" لوصف مشكلات القراءة التي يعاني منها بعض الأطفال على الرغم من سلامة حواسهم وتعلمهم الكافي وتطورهم العاطفي الطبيعي.

"القُرَاء" يعني حرفياً عدم القدرة على تعلم القراءة بشكل صحيح ولكنه يترافق دائماً مع عدم القدرة على الكتابة والتهجئة. "فالقُرَاء" هو اضطراب في تعلم القراءة والتهجئة، لكننا لا نطلق هذه التسمية على كل مشكلة في القراءة. هنالك أطفال لا يستطيعون تعلّم القراءة أو الكتابة لأسباب عديدة لا مجال لحصرها.

نقص في الموهبة

"والقُرَاء" ليس مرضاً، إنما هو نقص في موهبة اكتساب اللغة وهو نقص موروث من الأهل على الأرجح. هذا الجانب الوراثي ينعكس فيزيائياً على صورة تأخر في النمو. ولكن ليس لهذا الجانب، حتى الآن، أهمية كبرى في فهم هذه الظاهرة. يجب علينا قبول "القُرَاء" كصفة من صفات الشخص الموروثة مثل الشعر الأحمر، أو لون العينين البني، الخ...

ما يميز الطفل الذي يعاني هذه المشكلة هو تطوره اللغوي غير الطبيعي. فهو يجد صعوبة في تذكر اللغة، وهو أمر يظهر في عمر مبكر. كما أنه يتكلم بطريقة غير مفهومة لمدة أطول من المدة الطبيعية. كذلك تكون لديه صعوبة في تذكر أسماء رفاق صفه عند دخوله المدرسة ويجد صعوبة في حفظ كلمات الأغاني والأشعار. وهكذا، فيما ينتظر الجميع من هذا الطفل أن يتعلم القراءة والكتابة من دون مشاكل، فإنه يجد نفسه متأخراً بالمقارنة مع زملائه في هذين المضمارين. وهذا الفشل غير المتوقع هو ما يحدد مشكلة "القُرَاء".

تمثل هذه المشكلة عقبة مهمة في المجال التعليمي لأنها تعيق التعليم في جميع المواد الأخرى من حساب وجغرافيا وتاريخ وعلوم، الخ...

علاماته الأولى

واكتشاف هذه المشكلة في أبكر وقت ممكن مهم جداً، لكن هذه الإعاقة تظهر عند بعض الأولاد في أوقات مختلفة. فأحياناً لا يمكننا إثبات أن الطفل يعاني تلك المشكلة إلا عندما يصبح في الصفوف الابتدائية. وهنالك أيضاً بعض الذين لا يكتشفون تلك المشكلة إلا عندما يصبحون في الصفوف الثانوية. فالوقت الذي تُكتشف فيه هذه المشكلة مرتبط بعوامل عديدة لا يمكن التحكم فيها كلها. وهناك مدى جدية المشكلة عند الطفل. وهناك الذكاء.. فالأطفال الأذكياء لديهم وسائل أكثر في تصرفهم من أجل إخفاء هذه الإعاقة لفترة معينة. كما أن المدرسة التي يذهب إليها الطفل تلعب دوراً في إمكانية اكتشاف مشكلة القُرَاء في وقت مبكر، حيث إنه عندما تكون المتطلبات التعليمية في مجال القراءة والتهجئة أكثر صرامة، فإن الطفل سيقع، خلال وقت أقصر، في المشكلات التي سوف تعترضه في هذه المجالات. وأخيراً هناك الخيارات والتطلعات لدى أهل الطفل التي تلعب دوراً مهماً في موازنة العوامل الأخرى التي تؤثر في الاكتشاف المبكر لتلك المشكلة.

> القُرَاء مسألة وراثية وليس مَرَضاً، ويتوقف علاجه أو تعايش التلميذ معه على نسبة الذكاء

شهادة أب

في شهادة لأحد آباء الأطفال الذين يشكون مشكلة "القُرَاء"، يقول إن ابنه كان يفهم جميع الإرشادات والكلمات كطفل ما دون السنتين. ولكنه لم يتمكن من استخدام اللغة إلا في وقت متأخر من مراحل نموه. إذ إنه، فيما عدا بعض كلمات التوقف القصيرة، لم ينطق بأي شيء ذي معنى حتى بلوغه السنتين والنصف من العمر. ثم جاءت فترة تطورت قدراته اللغوية بشكل ملحوظ، لكنه ظلّ يتكلم كلاماً غير مفهوم لمدة طويلة. وعندما دخل المدرسة بدت عليه صعوبات في تذكر أسماء رفاقه في الصف. في الصفوف الابتدائية لم يتراجع فوراً إلى الوراء. ولكنه وجد طريقة للمثابرة على المسائل التي يحبها وابتعد عن المسائل التي لم يستطع القيام بها بشكل جيد. ثم ظهرت هناك أمور دلت على إمكانية ظهور مشكلات لديه في القراءة والكتابة. فمثلاً لم يكن يستطيع أن يُحلل الكلمة إلى أصوات، ولذا لم يكن يستطيع تهجئة الكلمات التي يسمعها. ولم تكن لديه فكرة أن كل حرف يمثل صوتاً مختلفاً. وهكذا، تفاقمت مشكلته مع القراءة والكتابة، "وعندها نُصحنا من قبل المدرسة أن نتجه إلى البحث عن المساعدة لولدنا".

هناك سببان يشيران إلى أهمية التدخل للمساعدة في وقت مبكر:

الأول: هو أن التدخل المبكر يساعد على حماية الطفل من الشعور بالإحباط.

والسبب الثاني: هو أنه من الأسهل المساعدة على مواجهة هذه المشكلة إذا تم التنبه إليها في وقت مبكر؛ لأنه غالباً ما يكون من الضروري البدء من نقطة الصفر في تعليم التهجئة بشكل منطقي ومنظم. والأمر أسهل مع ولد في التاسعة من عمره، من ولد في الخامسة عشرة مثلاً.

أما بالنسبة للمعالجة فيجب أن نشير إلى أن مشكلة "القُرَاء" ليست مشكلة متعلقة بتأخر في النمو، حيث يمكن معالجتها بالانتظار أو بإعطاء الطفل وقتاً طويلاً لتعلّم الأشياء أكثر مما نعطي لغيره.

وتتركز المعالجة على مجالات مختلفة أهمها التدريب في مجال اللغة ومتطلباتها، خاصة في المجالات التي نجد فيها ضعفاً ما لدى الطفل، ومساعدة الطفل الذي يشكو من القُراء على تحسين قدراته على التركيز التي غالباً ما تكون ضعيفة. ومن ثم، حفز الطفل وتشجيعه على متابعة نظام المعالجة هذا. من أجل تحقيق هذه الأهداف، من الأفضل اتباع الطريقة الفردية في المعالجة، حيث إن متخصصاً واحداً يعالج الطفل أو الشخص نفسه، لأنه بذلك يمكنه أن يتنبه أكثر إلى نقاط الضعف ونقاط القوة لديه.

يقوم المتخصص بحثّ الطفل أو الولد على القراءة لفترة يمكنه المتابعة فيها من دون أخطاء. ومن ثم يمكنه أن يعدل الوقت الذي يستهلكه الطفل في القراءة. وهكذا، فمن الطبيعي أن يمضي نحو ثلاثة أسابيع لإنهاء قراءة فقرة واحدة. ومن ثم يمكن القيام بتمارين في الإملاء، حيث يقرأ المعالج جملة وعلى الطفل أن يرددها من بعده ليُظهر أنه قد حفظها. ثم عليه كتابتها، ومن بعدها يقرأ ما كتبه هو بنفسه. وهكذا، تعتمد المسألة على أن يصحح هو بنفسه ما قد أخطأ فيه. وبنتيجة هذا التمرين قد يمكن للفهم والقراءة أن يسيرا معاً بشكل سليم. ولكن هناك أموراً تظهر مع مشكلة "القُرَاء" التي لا يمكن التمرين عليها. فليس هناك ما يمكننا فعله لتحسين الذاكرة القصيرة لدى الطفل أو الولد الذي يشكو من هذه المشكلة بعينها. ما يمكننا فعله هو التحول إلى طريقة أخرى لحل المشكلة.

يصل إلى الجامعة

هنا يجب أن نسأل هل يمكن لطفل يعاني مشكلة "القُرَاء" أن يتابع تحصيله العلمي وصولاً إلى الجامعة؟

والجواب يعتمد بشكل كبير على ذكاء الطفل، حيث أن مشكلة "القُرَاء" تظهر عند أطفال مختلفين في معدلات الذكاء. والطفل الذي يعاني "القُرَاء" ويتمتع في الوقت نفسه بذكاء فائق، يواجه المشكلات المتعلقة بتلك الظاهرة، لكن، عدا عن ذلك، فإن كل شيء يعمل لصالحه. ففي المدرسة الابتدائية يمكنه المتابعة إلى الأمام من دون أن يسمح لمشكلته بأن تعيقه إلى درجة واضحة.

أما في المدرسة الثانوية فإن صعوده وثقته في نفسه قد يأخذانه بعيداً. ولأن باستطاعته أن يتعامل مع مشاكله التعلّمية بطريقة موضوعية، فيمكنه الاستغناء عن المعالجة. كما يمكنه الاستفادة في الجامعة من العادات التعلّمية التي اتبعها في السابق.

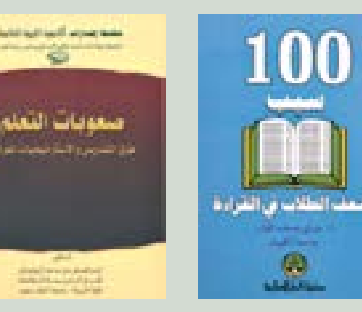
بهذا المعنى؛ فإن هذه الإعاقة هي مسألة نسبية. والذين تخطوا المرحلة الحرجة من مواجهة "بحر المتاعب التي يواجهونها في حياتهم المدرسية، يمكنهم، في المراحل اللاحقة، التغلب على تلك المشكلة وأن "يتنفسوا" بحرية أكبر.

وحتى في مرحلة ما بعد الجامعة، فإن مشكلة "القُرَاء" لا تختفي. فالذي يعانيها سيظل يحمل معه نقاط ضعف محددة. إذ لا يمكن تجنب مشكلة "القُرَاء" بشكل كامل في عالم يعتمد بشكل كبير على كل ما هو مكتوب. ولكن الكثير من الراشدين الذين يعانون تلك المشكلة قد نمّوا لأنفسهم مهارة ما تمكنهم من التقليل من حاجتهم لمواجهة العقبات التي تعترضهم في حقول الكتابة والقراءة. يمكنهم القيام بذلك، أولا، باختيار مهنة لا تعتمد كثيراً على حقلي الكتابة والقراءة، وثانياً، يمكنهم الاستعانة بأجهزة عديدة مثل التلفزيون والهاتف من أجل تجنب "حشد" المشكلات التي يمكن أن يتعرضوا لها في حياتهم اليومية.

باختصار، يمكن للشخص قوي الإرادة الذي يعاني هذه المشكلة، التخلص منها متى أنهى حياته المدرسية، والتأقلم معها في حياته العلمية.

اقرأ عن التعليم

كتاب للأهل وآخر للمعلمين



يجد المرء في المكتبات مجموعة عملاقة من الكتب حول التربية والتعليم. غير أن معظمها أكاديمي الطابع ويتوجه إلى الاختصاصيين في التربية وعلم النفس، وغالباً ما تحمل هذه الكتب عناوين توجيهية متفائلة وتتحاشى طرح المشكلات على صفحة الغلاف.

من الكتب القليلة المميزة عن غيرها هناك "100 سبب لضعف الطلاب في القراءة" وهو من تأليف الدكتور نوري يوسف الوتار من جامعة الكويت وإصدار مكتبة المنار الإسلامية. ويستمد هذا الكتاب أهميته من أمرين: تركيزه على الضعف في القراءة، وهو من المؤشرات الأولى التي يلحظها الأهل فيما يتعلق بتقصير أولادهم دراسياً، وأسلوبه البسيط والواضح في عرض كل جانب من جوانب المسألة على حدة، الأمر الذي يجعله موجهاً بالفعل إلى الأهل المهتمين بقضايا أولادهم، حتى ولو لم يكونوا على جانب كبير من العلم والاطلاع على المسائل التربوية.

أما الكتاب الثاني فهو "صعوبات التعلم" من تأليف الدكتور إبراهيم بن سعد أبو نيان الأستاذ في قسم التربية الخاصة بجامعة الملك سعود.

يقع هذا الكتاب في 348 صفحة موزعة على ثمانية أبواب، تتناول الثلاثة الأولى منها مسائل عامة مثل مفهوم صعوبات التعلم وطرق التدريس واستراتيجيات التعلم، أما الأبواب الخمسة الأخرى فتتناول بالتفصيل استراتيجية تعليم كل مادة من المواد الأساسية على حدة مثل الرياضيات، القراءة، الإملاء، التحرير التعبيري، الخط..

وفي تقديم هذا الكتاب كتب الدكتور ناصر علي الموسى المشرف العام على التربية الخاصة بوزارة المعارف، أنه "من الكتب التي لا غنى عنها، ليس لمعلمين من ذوي صعوبات التعلم فقط، وإنما أيضاً لأي معلم من معلمي التعليم العام".

والكتابان المذكوران متوافران في المكتبات التجارية في المملكة.



السياحة البيئية..
الاختلاء بالطبيعة البكر

لم يكن تعبير "السياحة البيئية" (Ecotourism) موجوداً قبل عقدين من الزمن. ولذا، فالصورة لا تزال ضبابية في أذهان الكثيرين ممن يحاولون فهم هذه الظاهرة الجديدة في صناعة السياحة القديمة. مراسلو القافلة يناقشون في هذا الموضوع هذا النوع من السياحة وما يمثله في اقتصاديات بعض الدول، بالإضافة إلى تناول آفاق السياحة البيئية في المملكة.

H.H.04

1 إنقاذ الطبيعة عبر بيعها!

يفاجئنا البحث عن "السياحة البيئية" على صفحات الإنترنت بمئات العناوين التي تزداد يوماً بعد يوم. وينتشر الحديث عن هذا النوع من السياحة في أوروبا مع بعض النكات، مثل السؤال: "ما الفرق بين السياحة البيئية والسياحة العادية؟"، والجواب هو: "20%". أي أنها سياحة أكثر كلفة من غيرها.

فمتى تكون السياحة بيئية ومتى لا تكون؟

المسألة غير محسومة تماماً، إذ لا توجد معايير رسمية في هذا المجال، وإن كانت هناك بعض المبادئ العامة. ويمكننا أن نطلع على بعض هذه المبادئ في كتابات صادرة عن جهات أقرب من غيرها إلى فهم هذا الموضوع مثل الجمعية البيئية العالمية في الولايات المتحدة، أو اتحاد المحافظة على البيئة العالمي ومقره الرئيسي في سويسرا، وغيرهما.

جميع الأضداد

يحق لنا أن نتساءل ما الذي يجمع بين السياحة كصناعة ترفيهية وعلم البيئة؟ إنه، إلى حد ما، اجتماع أضداد. فالسياحة تضر بالبيئة على الصعيد الطبيعي والاجتماعي والثقافي، في حين أن علم البيئة يسعى إلى إنقاذها وحمايتها من المؤثرات الخارجية.

حصل اجتماع الأضداد هذا بعدما عرفت السياحة نمواً متسارعاً في السبعينيات من القرن العشرين، وتحولت من متعة خاصة بنخبة اجتماعية إلى متعة في متناول شرائح واسعة من المجتمعات. إذ وصل حجم الحركة السياحية في العالم في عام 2000م إلى نحو 700 مليون سائح، وقدّر الإنفاق المالي على السياحة العالمية بأكثر من 650 بليون دولار، وهذا ما يعادل نحو 20% من الدخل العالمي. ومع وصول "السياحة الجماهيرية" إلى هذه المستويات غير المسبوقة ظهرت عواقب النمو السياحي في منتجعات تحولت إلى تراكم منشآت سريعة البناء وفقدت معالم الأصالة، وانخرط السكان في المناطق السياحية في نشاطات خدمية غير منتجة وموسمية، ودمّرت عناصر ثقافية وتراثية لديهم. وبموازاة ذلك، ومنذ الستينيات من القرن العشرين، كان الاهتمام بالبيئة يعيش فورة فكرية وتنظيمية تهدف إلى التوعية والضغط لحماية البيئة.

جاءت السياحة البيئية لتلبي حاجتين: حاجة المستهلك إلى أماكن سياحية طبيعية لم تتلفها سياحة الجماهير، والحاجة إلى تطوير عقلية بيئية محافظة لها فلسفتها ومبادئها.

البعض يربط انخراطه في السياحة البيئية بـ "الطبيعة" وسياحة المغامرة، مثل الوصول إلى القطب الجنوبي أو تسلق جبال الهملايا، على الرغم من أن مفهوم السياحة البيئية تخطى ذلك لاحقاً بعض الشيء. كما أن هذا النوع من السياحة هو عند البعض عودة إلى سياحة ما قبل انتشار سياحة الجماهير، لكنها مرافقة مع إحساس أكبر بالمسؤولية تجاه الطبيعة والثقافة والقيم المحلية.

وتحمل السياحة البيئية المخاطر نفسها التي تنطوي عليها أية سياحة، وتُطرح حيالها معضلة النمو والحماية. فنموها مثلاً يثير أسئلة حول تأثير انتشارها الجغرافي ووصولها إلى أماكن لم تصلها السياحة من قبل، مقارنة مع حدود التأثير الجغرافي لسياحة جماهير "ممركزة". وإذا ما بقيت هذه السياحة البيئية محصورة في النخبة من محبي الطبيعة المخلصين، فإن السؤال يطال جدواها في خدمة التنمية المستدامة للقطاع السياحة بشكل عام.

الطبيعة سلعة

هناك ادّعاء جريء من الحريصين على ظاهرة السياحة البيئية يقول: يمكن "إنقاذ الطبيعة عبر بيعها". وهذا التفكير ليس جديداً، إذ تعود جذوره إلى مفهوم "المتنزه الوطني" (National Park) الذي نشأ في أواخر القرن التاسع عشر في أماكن مختلفة مثل الولايات المتحدة وكندا واستراليا.

المتنزهات هي في الواقع شكل من أشكال المناطق المحمية، توفر في الوقت نفسه خدمات سياحية تختلف فيها درجات الحماية بين نطاق جغرافي وآخر، بحيث تتضمن


X. Eichaker

مناطق حماية صارمة، ومناطق قابلة للاستخدام المحدود، ومناطق مرنة تسمح للزائرين بالقيام بنشاطات متنوعة ملائمة للمحيط البيئي مثل المشي، التسلق، استخدام الزوارق، الغطس، ركوب الخيل، صيد السمك وغير ذلك. وعلى الرغم من أن العلاقة بين السياحة والحماية في تلك المناطق معقدة، لا بل متناقضة في بعض الأحيان، كانت السياحة عنصراً مهماً أُخذ دائماً بعين الاعتبار عند بداية تأسيسها وإدارتها بشكل يصونها لزائري المستقبل.

وعرفت المناطق المحمية توسعاً في السنوات الأخيرة، سرّعه الوعي البيئي منذ الستينيات، ووصل عددها اليوم إلى ما يناهز 44 ألف منطقة محمية حسب مقاييس "اتحاد الحفاظ على البيئة العالمي" الذي يصنفها عادة في ستة مستويات تبعاً لدرجة الحماية المطلوبة. والمستوى الأول من التصنيف وحده يمنع دخول تلك المناطق على الزائرين منعاً باتاً، ما يعني أن السياحة ممكنة بحدود مختلفة في التصنيفات الأخرى.

العبرة التي تقدمها هذه المتنزهات الوطنية أو المحميات التي يمكن زيارتها هي أن السياحة (بما فيها من تأثيرات سلبية في البيئة) يمكنها أن تساهم في شكل من الأشكال بدعمها من خلال ما توفره من عائدات يعاد توظيفها في المحافظة على هذه المناطق، إضافة إلى رفع مستوى الوعي لأهداف حماية البيئة وترغيب الزائرين بوجوب الحفاظ عليها.

وقد بات المردود الاقتصادي لهذه النشاطات مسألة مهمة في بعض البلدان. ففي كندا تشكل هذه السياحة ربع السياحة

الداخلية، تجني منها الدولة نحو 1.7 بليون دولار من الضرائب، في حين أنها لا تصرف على صيانة هذه المتنزهات والمحميات أكثر من 300 مليون دولار سنوياً.


أرشيف المحترف السعودي

وقد نمت هذه الظاهرة السياحية في العقدين الأخيرين. فمراقبة الطيور في الولايات المتحدة شملت 54 مليون شخص عام 1994م، وهو ضعف حجمها عام 1982م. كما حوّلت كوستاريكا مثلاً نحو 25 في المئة من مساحة أراضيها إلى مناطق محمية على شكل متنزهات وملاجئ للحياة البرية، وهي تستقبل نحو 800 ألف سائح أجنبي سنوياً.

السياحة البيئية لتلبية حاجتين: حاجة المستهلك إلى أماكن جديدة، وتطوير عقلية بيئية محافظة

أما في فرنسا، فتدل الإحصاءات على أن غابة فونتنبلو استقبلت في العام الماضي نحو 13 مليون زائر، في حين لم يستقبل مركز الترفيه الشهير "يورو ديزني" أكثر من 11 مليوناً.. أما المخاوف فهي أن يشكل المردود الاقتصادي حافزاً لنمو سياحي قد تكون عواقبه غير مقبولة بيئياً.

دمج التناقضات: الحماية والاستخدام

محاولة الدمج بين حماية الطبيعة واستثمارها سياحياً باتت مسألة رائجة في العقد الأخير، والمعنيون بها كثر: الحكومات الوطنية الإقليمية، المحافظون على البيئة، السيّاح، أصحاب المصالح المختلفة، السكان المحليون، الجامعات ومراكز الأبحاث، المنظمات الثقافية والشركات المموِّلة للمشاريع... وبما أن هذا النشاط هو دمج توفيقي بين أهداف متناقضة ومصالح متعددة ومتمايزة، فإنه اتخذ أشكالاً متنوعة يختلف بعضها عن بعضها.

فليست كل المناطق المحمية تابعة لملكية أو إدارة عامة، إذ إن هناك ملكيات شاسعة تجري زراعتها وتدار مواردها بشكل تحافظ فيه على المناظر الطبيعية والتنوع الأحيائي كملجأ قرود البابون في بيليز. وهناك مناطق برية وغابات لنشاطات متنوعة وهوايات ملائمة للبيئة كغابة هاليبرتون في كندا. وفي جنوب أفريقيا هناك مناطق مخصصة لصيد الحيوانات البرية! (ولو أنها تحصل ضمن شروط) وتوفر لزائريها طعام الصيد...

إن السياحة البيئية لا تنسجم تماماً مع جميع النشاطات السياحية في المتنزهات، فهي ترفض على سبيل المثال التحليق بالطائرات المروحية فوق غابة كما يحصل في متنزه يلوستون الوطني في أمريكا. إنها حالة موسعة للدمج بين الحماية والنشاط السياحي.

صعوبة التحديد

ليس هناك تعريف واحد للسياحة البيئية. فهناك من يعادلها بالسياحة الطبيعية، أو بالسياحة الحريصة على البيئة، وفيما يرى البعض أن كل سياحة هي بيئية في شكل ما، يشكك آخرون بوجود سياحة بيئية أصلاً.! يقول التعريف الذي تقدمت به جمعية السياحة البيئية عام 1992م: "السياحة البيئية هي سفر مسؤول إلى مناطق الطبيعة التي تصون البيئة وتساند مصالح الشعب المحلي". أما برنامج الأمم المتحدة للبيئة فاعتبر، عام 2002م، أن السياحة البيئية تشير من جهة إلى مفهوم مبني على مجموعة مبادئ، ومن جهة أخرى إلى قطاع محدد من السوق السياحية. كما خصصها كجزء من السياحة المستدامة بأربع مزايا:


أرشيف المحترف السعودي

- تساهم بشكل فاعل في الحفاظ على الطبيعة والثقافة والتراث.
- تشارك الجماعات المحلية في تخطيطها وتطويرها وتساهم في رفاهيتها.
- تفسّر التراث الطبيعي والثقافي للمنطقة المعنية.
- تخدم بشكل أفضل السائح المستقل والرحلات المنظمة.

ولإضافة تعريف آخر، طرحنا السؤال على النادي السياحي البيئي (echoclub)، وهو هيئة غير حكومية تضم مجموعة من الأعضاء في أكثر من 50 دولة، وكان

الجواب ما يأتي: "السياحة البيئية تعبير يصف حركة واسعة في الفلسفة والممارسة من أجل سياحة أفضل تحاول تخفيض التأثير السلبي للسياحة حتى الحد الأدنى، وتمويل مشاريع محلية بيئية واجتماعية، وزيادة المعرفة البيئية والثقافية، وهي مفتوحة للجميع وبمتناول قدرات الجميع". الأمر الذي يعني أنها حركة واسعة، وليست مجرد قطاع سياحي، ولا تقتصر على الطبيعة.

باختصار، لا توجد حتى اليوم مقاييس تسمح بتحديد ما هية السياحة البيئية ومراقبتها على هذا الأساس. والتخوف في هذا المجال هو من عدم تمكن قطاع الأعمال الصغيرة من المواكبة والتأقلم مع معايير يُخشى في حال وضعها أن تكون صارمة.

كانت أستراليا البلد الأول في العالم الذي وضع شهادات تصديق وطنية، وكانت المهمة الأصعب أمام المعنيين على تحديد ما هية السياحة البيئية. وتم الاتفاق على التركيز "على البيئة الطبيعية، الاستدامة البيئية والثقافية، التعليم والتفسير، والمنفعة الإقليمية".

ولا يعني غياب المعايير المحددة والقانونية غياباً مماثلاً للمبادئ التي تقوم عليها السياحة البيئية، وتستند مجموعة المبادئ هذه إلى اعتبارين أساسين: الأول هو موضوع التأثير السياحي في البيئة بتخفيضه إلى الحد الأدنى، فيأخذ بعين الاعتبار حجم استيعاب الزائرين ومشاكل التلوث والتخلص من النفايات واستخدامات الطاقة والتأثيرات الثقافية والاجتماعية في السكان المحليين. وليس المهم هنا النطاق أو الحوافز، بل التأثير. إذ إن فرداً واحداً من محبي الطبيعة المخلصين قد يلحق ضرراً كبيراً بنقله فيروساً معيناً إلى محمية غوريلا، في حين أن آلاف الزائرين لا يلحقون أي ضرر يستحق الذكر في أماكن أخرى، بل يفيدونه كثيراً..

أما الاعتبار الثاني فهو المتعلق بالسكان المحليين، وذلك على أساس أن إنقاذ الطبيعة لا يمكن أن يحصل على حساب هؤلاء الذين قد يخسرون موارد رزقهم، ولا بد من إعطائهم حصتهم العادلة.

ولعل أفضل ما يلخص دمج هذا الطموح بالممارسة هو القول إنه "بينما تضع السياحة الطبيعية أرضيتها في تصرف السائح الفردي ودوافعه، فإن السياحة البيئية مفهوم أوسع مبني على توجه مخطط من قبل دولة مضيفة في منطقة محددة من أجل تحقيق أهداف مجتمعية أبعد من الفرد. إنها تؤسس لمعايير قاسية من أجل البرنامج أو المكان المقصود يؤهله لأن يكون منطقة سياحة بيئية".

التأثير كمقياس

يشمل التأثير السياحي جوانب عديدة، منها الطبيعي والاجتماعي والثقافي والسيكولوجي. ومقياس التأثير الذي هو عادة من اهتمامات المناطق المحمية التي تستقبل زائرين هو أيضاً من اهتمامات السياحة البيئية.

إن عناصر التأثير متنوعة ومتغيرة، ولا تحددها فقط كمية الزيارات، بل أيضاً أشكال النشاط وتصرفات الزائرين ووسائل السفر، وقدرة العناصر الطبيعية على التحمل وحماية الأنواع والحرص على الحياة الثقافية والاجتماعية المحلية. ولهذا، يقترح البعض أن يكون هناك تخطيط ومراقبة للتأثير السياحي عندما يتعدى زائرو منطقة معينة 500 شخص في السنة. إذ ليس من السياحة البيئية في شيء أن يرتفع عدد زائري جبال الهملايا من 10 آلاف شخص عام 1965م إلى 250 ألفاً في السنة خلال التسعينيات، ولا أن يحصل تغيير كبير في البنى الثقافية والاجتماعية كالذي طرأ على النيبال.

ويطال الاهتمام أيضاً التطوير الحسّاس للبنى التحتية والخدمات مع التشديد على مسألتين: أن يكون لتصميمها أقل تأثير ممكن على الطبيعة والثقافة، وأن يتوافر فيها مستوى محدد من الاكتفاء الذاتي. فعلى الأبنية مثلاً أن تكون ملائمة في علوها وأحجامها للنباتات المحيطة بها والطوبوغرافيا، وتؤخذ في تصميمها

H.H.04

اعتبارات متعلقة بالميزات التاريخية والثقافية لمعالم العمارة المحلية. كما أن الخدمات تقدم في إطار الحفاظ على الموارد وتقليص الاستهلاك وآثاره مثل المياه والطاقة والنفايات والمياه المبتذلة والضجة والضوء حتى أدنى حد ممكن. أما على صعيد الاكتفاء الذاتي فهناك تشجيع لأن تكون الموارد محلية، وكذلك تقنيات البناء التي تحتاج إلى القليل من الصيانة، وأن يكون هناك اكتفاء ذاتي في إنتاج الطعام. إن المسكن البيئي بسيط، ونابع من المنطقة نفسها، ويوفر نافذة على عالم الطبيعة كأداة للتعلم والفهم. وموضوع التعلم والفهم أي التوعية البيئية والثقافية من العناصر الأساسية التي تقوم عليها السياحة البيئية.

السياحة والمجتمع المحلي

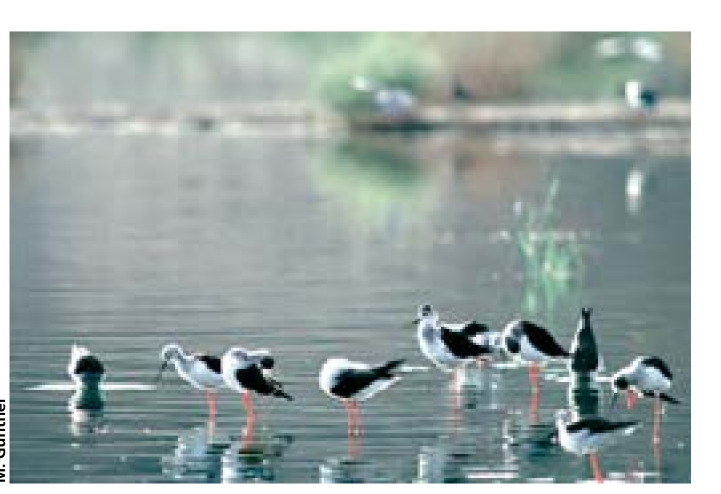
يسود الاعتقاد بأن مشاركة الجماعات المحلية هي الحلقة الأضعف في مسيرة التطور هذه من السياحة الطبيعية إلى السياحة البيئية، رغم أن الموضوع أساسي بالنسبة لهذه السياحة، طالما أن صيانة البيئة الطبيعية والثقافية لن تكون طويلة الأمد من دون مشاركة السكان المحليين، ولأن هؤلاء يتكبدون تكلفة معينة لعدم استغلالهم الأراضي المحمية فيجب تعويضهم عن ذلك بمشاركتهم في المنفعة الجديدة.



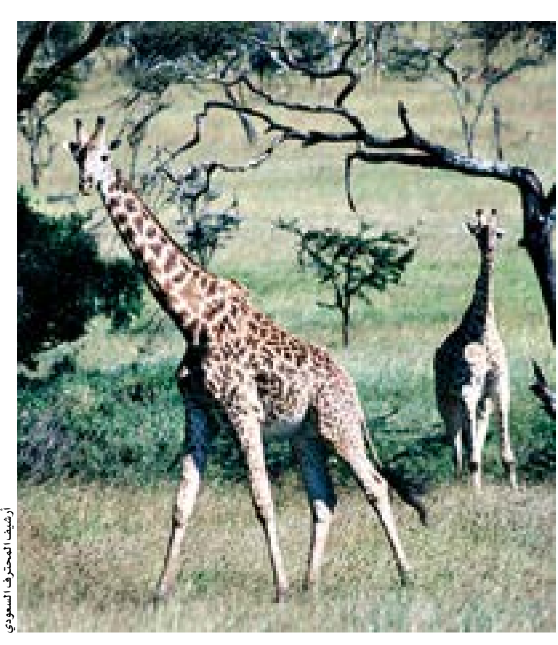
المعايير المطلوبة في السياحة البيئية قاسية، ومفهومها يختلف عن السياحة الطبيعية

فعلى المستوى النظري، تركز بعض الكتابات على أن المشاركة لا يجب أن تكون فقط منفعية (أي تقاسم الإيرادات)، بل يجب أن تشمل تقوية القرار المحلي بالمشاركة في التخطيط والإشراف على النشاطات التي تؤثر في حياة المجموعة، وهو أمر يستدعي الاهتمام بالتدريب والتعليم وتشجيع المشاركة المحلية الفردية والمنظمة.

إلا أن الممارسة تختلف، فمقابل وجود المئات من أماكن السياحة البيئية في العالم، تبدو الأمثلة قليلة جداً عندما نتحدث عن نجاحات في تحقيق الهدف المزدوج لتنمية الجماعات المحلية والحماية البيئية. وفي حالات عديدة، أدت السياحة البيئية إلى ظهور مشاكل عديدة بدلاً عن الفوائد المرجوة منها. ومصادر هذه المشاكل كانت، حسب اعتقاد البعض، فقدان الإرادة السياسية والالتزام من قبل الحكومات بالعمل على "تعبئة الموارد البشرية والمالية والثقافية والأخلاقية، لتأمين اندماج مبادئ السياحة البيئية بالتطور الاقتصادي". والسبب الآخر هو أنه غالباً ما يجري ترويج السياحة من قبل منتفعين كبار من خارج المنطقة، ومن دون بنائها لتلبية الاحتياجات المحلية. أما أشكال المشاركة المحتملة فهي واسعة جداً، وتتضمن: تأجير الأراضي، العمل في الوظائف المستحدثة، تقديم خدمات مختارة، تقديم مشاريع تجارية مشتركة، ونشاطات سياحية تديرها في شكل مستقل الجماعة المحلية.



M. Gunther



أرشيف المحترف السعودي

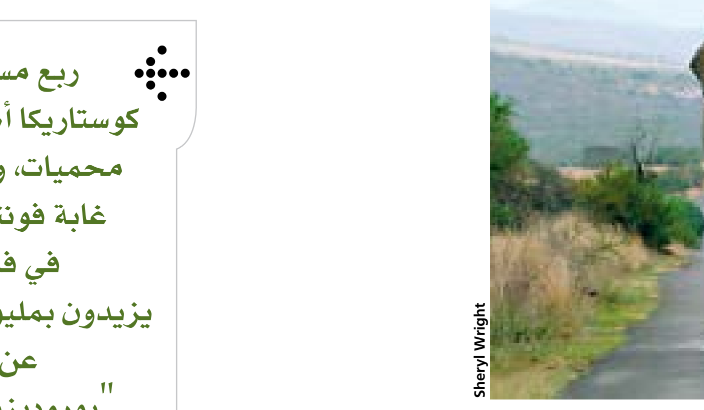
بين المثال والواقع

وقد تثير بعض المشاريع الوافدة من خارج منطقة معينة بعض التحفظ لكونها غير منسجمة مع احتياجات هذه المنطقة، خاصة في الدول النامية. فقد تطور في التسعينيات مثلاً نوع من السياحة البيئية ضمن السوق الرائجة لرحلات السفاري في أفريقيا. ووقّع بعضها عقود إيجار لمدة 99 سنة مع القرى المحلية كما هو حال "أوليفر كامب ليمتد" في شمال تنزانيا، الأمر الذي ترتب عليه تغييب السكان المحليين من ممارسة حقوقهم في تلك الأراضي مدى الحياة.

وكان البعض الآخر أكثر حساسية، ووقع عقود إيجار لسنوات محدودة، وتضمنت إشراك الأهالي بالمنافع بصورة مستمرة مثل "سفاري ورحلات دروبو للمخيمات


Michael R. Reilly


James Redpath


James Redpath


Sheryl Wright

كرّست القافلة الملف المصوّر في عددها السابع (المجلد 53) لصور التقطها موظفون من أرامكو السعودية في رحلاتهم. وقد غلب موضوع البيئة على أكثر هذه الصور. هذه مجموعة أخرى منها..


E. Helen Gratto

النقّالة". وكان غيرها أكثر نجاحاً في توطيد العلاقات المحلية مثل "شركة المحافظة على البيئة الأفريقية" وقاعدتها في جنوب أفريقيا. فقد عملت هذه الشركة على توفير سلسلة من المساكن المكلفة في أكثر من 22 منطقة، ويعود جزء من مداخيلها إلى مشاريع اجتماعية واقتصادية في الجوار الآهل. لكنها كانت أقل اكتراثاً بالطبيعة، إذ قطعت نحو 75 ألف شجرة من أجل مدّ الكهرباء إلى المساكن. وهناك أمثلة كثيرة أخرى من بلدان مثل بيليز وكوستاريكا تشير إلى وجود تداعيات سلبية للسياحة البيئية على صعيد العلاقة مع السكان المحليين.

ولأن الأمثلة الناجحة لا تزال حتى اليوم شبه محصورة في المستويات الصغيرة من السياحة البيئية، يتشجع البعض على الاستنتاج بأننا إذا أردنا أن تسهم السياحة البيئية في نوعية بيئية أفضل، فيجب عليها أن تبقى حيزاً صغيراً من القطاع السياحي العام، وأن تبقى جهداً منغرساً في الجماعات المحلية، وأن تكون جميع تسهيلاتها فريدة من نوعها كما هي فرادة بيئتها، وأن على الفئات المعنية (من حكومات وجماعات) أن تنظر إلى السياحة البيئية كفرصة نمو محدودة، وليس كتطور كبير يمكن أن يخنق البيئة. بينما يدعو البعض الآخر إلى الأخذ بعين الاعتبار المعايير نفسها التي أظهرت نجاحاتها على المستوى الصغير، وتطبيقها على مستويات كبرى.

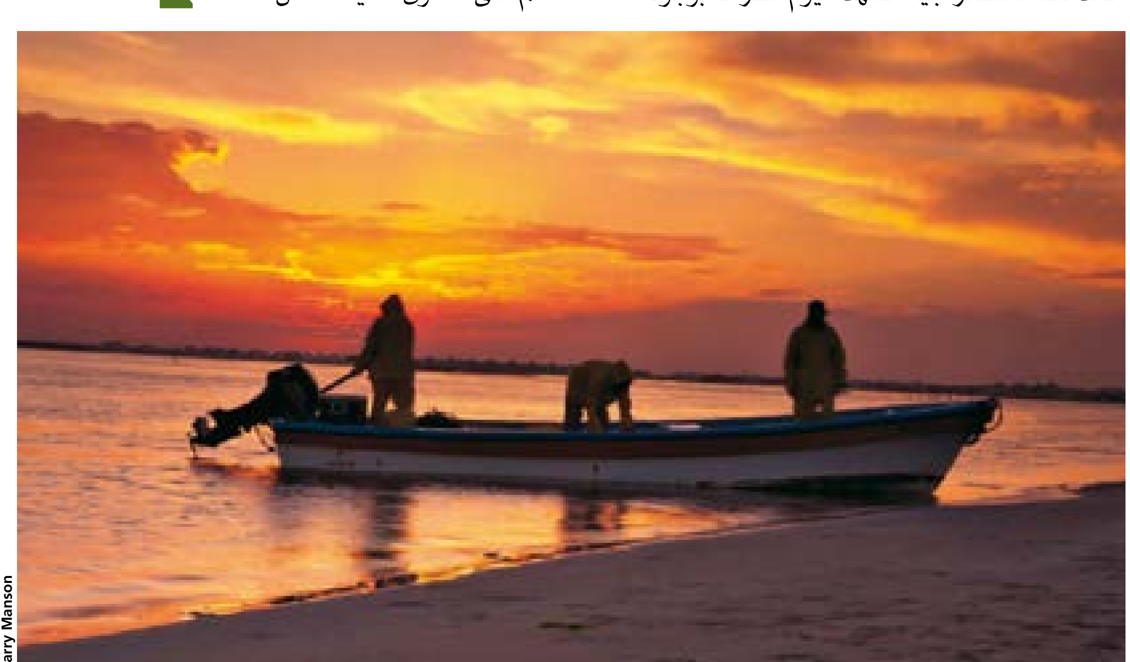
ربع مساحة كوستاريكا أصبح محميات، وزوار غابة فونتنبلو في فرنسا يزيدون بمليونين عن زوار "يوروديزني"!

وقد بدأ يظهر اعتراف متزايد بتفاوت المصالح بين المعنيين بطريقة مؤثرة في التحولات في التفكير والتأقلم مع قيم كانت تعتبر سابقاً غير ملائمة للحفاظ على البيئة. فالمناطق التي أعلنت محميات بطريقة استثنت كل أشكال الخدمات الاستخراجية، تشهد اليوم اعترافاً بوجود مطالب محقة للسكان المحليين فيها. فالسؤال لم يعد اليوم: "كيف يمكن تحقيق تصور بيئي للمستقبل؟" بل بات يقول: "أي مستقبل يمكن اختياره؟". واختيار المستقبل هو بالدرجة الأولى اختيار سياسي واجتماعي وليس تقنياً.

إن السياحة البيئية بدأت تفرض نفسها على الرغم من أنها في عمر التجربة. وهي تواجه بعض المشككين الذين قد يعتبرون - وربما كانوا على حق - أن علل سياحة الجماهير يمكن وضع حدود لها "بمركزتها" في مناطق دون أخرى. ولكن، حتى ولو تحول السائح البشع إلى سائح مسؤول في إطار ما يعتبر اليوم سياحة بيئية، فإن ضرر انتشارها ووصولها إلى مناطق لم يصلها الإنسان على مستوى مهم حتى اليوم، مسألة يجب أن تؤخذ في الحسبان.

إلى ذلك هناك عدد متزايد من الحكومات التي تقوم الآن بتشجيع نوع من السياحة في المناطق التي تعتبر أنها ستقدم أمثلة جيدة عن بلدانها، وهي عادة مناطق محمية أو مناطق طبيعية يمكن حمايتها - أي لثروات البلدان الحياتية والثقافية - إلا أن مخاطر تزايد الطلب وترك الأمور لحرية السوق قد يهدد الهدف البيئي الذي هو الأساس.

فالسياحة الهادفة، مهما كانت، هي سياحة مخطط لها من ضمن أهداف واضحة ومحددة. والسياحة البيئية كظاهرة سياحية لا تزال في أول طريقها نحو محاولة التأثير في السياحة بشكل عام، ولا يمكنها أن تختصر العلاقة بين السياحة والحفاظ على البيئة. ولذلك، فإن أي نشاط سياحي هادف، سواء سُمِّيَ نشاطاً بيئياً أو أية تسمية أخرى، لن يكون متوازناً ما لم يرافقه جهد بيئي أهم على مستوى السياحة ككل.


Garry Manson

2 واقعها وآفاقها في المملكة

لا يزال وضع السياحة في الوطن العربي، وفي دول مجلس التعاون تحديداً، محدوداً نسبياً، حيث لا يتعدى حجمها 3% من الناتج الإجمالي، بينما يصل هذا الحجم إلى 11% في الدول المتقدمة سياحياً. وما بين عامي 1995 و 2002م، استثمرت المملكة العربية السعودية ما يوازي 25 بليون ريال في السياحة الداخلية. وقد نمت السياحة وارتفع استقطابها للسياح المحليين ليصل إلى 27 في المئة من أصل أربعة ملايين سائح سعودي يتوجهون إلى الخارج سنوياً، وينفقون ما يصل إلى نحو 64 بليون ريال. وعليه، فإن السيّاح السعوديين يصرفون ما يتراوح بين 6 و 10 بلايين ريال على السياحة البيئية وفق التقديرات العالمية لحصة السياحة البيئية من السياحة عموماً.

تعتبر خطة التنمية الخامسة (1410 - 1415هـ) البداية الحقيقية للاهتمام بالسياحة في المملكة، إذ شهدت المرافق السياحية توسعاً كبيراً على السواحل البحرية والمرتفعات الجبلية. وزاد حجم الاستثمارات في هذا المجال خلال السنوات السبع الأخيرة عن 25 بليون ريال وهو في ازدياد سريع ومستمر.

ونظراً لما تتمتع به المملكة من مساحة شاسعة وشواطئ مميزة على ساحل البحر الأحمر والخليج العربي وسلاسل جبال شاهقة وتنوع في نظمها البيئية، فإن السياحة البيئية تشكل عنصراً مهماً من عناصر الجذب السياحي الداخلي فيها.

تُمارس نشاطات السياحة البيئية في المملكة كنشاط تقليدي حتى قبل تأسيس جهات حكومية لتنظيم هذا النشاط، إذ تمارس منذ القدم رياضات الخروج والتخييم في الصحراء والتمتع بالمشاهد الطبيعية وجمع "الكمأة" في مواسمها والصيد البري والبحري في المواسم والطرق الكفيلة باستمراره.

وقد أسست الهيئة الوطنية لحماية الحياة الفطرية وإنمائها منذ 1986م، ووضعت خطة استراتيجية لإنشاء المناطق المحمية في المملكة. واشتملت الخطة على اقتراح 108 مناطق محمية تمثل تمايز البيئات والتنوع الحيوي في المملكة، منها 56 منطقة برية، و62 بحرية موزعة على 38 منطقة في البحر الأحمر و24 منطقة في الخليج العربي، وقدرت مساحة هذه المنظومة بـ 8 في المئة من مساحة المملكة.

وقد أسست الهيئة منذ إنشائها تأسيس 16 منطقة محمية برية وبحرية تزيد مساحتها الإجمالية عن 80 ألف كيلومتر مربع وتقدر بنحو 4 في المئة من مساحة المملكة. وعملت الهيئة على حمايتها وإعادة توطين بعض الأحياء الفطرية إليها، خاصة تلك التي انقرضت من البرية، أو المهددة بالانقراض، ضمن برامج علمية للتكثير وإعادة التوطين.

المحترف السعودي

وقد أعيد توطين المها العربي في محميتي محازة الصيد (160 كيلومتراً شرق الطائف)، ومحمية عروق بني معارض (شمال غرب الربع الخالي)، وغزلان الريم في المحميتين السابقتين وغزلان الأدمي في محمية الوعول بحوطة بني تميم وعروق بني معارض، وطيور النعام وطيور الحبارى في محميتي محازة الصيد وسجا وأم الرمث، إضافة لنماء الأنواع النباتية والحيوانية المشمولة بالحماية.

وعقدت الهيئة بالتعاون مع الهيئة العليا للتطوير السياحي ندوة دولية للسياحة البيئية في المملكة العربية السعودية في الرياض عام 2002م قدرت في إحدى دراساتها أن سبع محميات في المملكة تصلح لأن تفتح للسياحة البيئية، وتشتمل النشاطات المتوقعة فيها على الرحلات الراجلة والقيادة لمشاهدة الحياة الفطرية والطيور، والمشي على الكثبان الرملية والتخييم والغوص ومشاهدة معروضات مراكز الزوار (متاحف بيئية مصغرة).

تغطي هذه المحميات النظم البيئية المختلفة والمشاهد الطبيعية في المملكة. وتتمثل في محمية جزر فرسان على الساحل الجنوبي الغربي للبحر الأحمر، ومحمية ريدة في قمم جبال السروات، ومحمية عروق بني معارض على الطرف الشمالي الغربي للربع الخالي، ومحمية الوعول على جانب جبال طويق، ومحمية محازة الصيد على هضبة نجد، والمحميات الشمالية: حرّة الحرة والخنفة والطبيق التي تشتمل على الحرات البركانية. وجميع هذه المحميات تزخر بالأنواع الفطرية المستوطنة أو المعاد توطينها من الأنواع المحلية المهددة بالانقراض.

رغم كل إيجابياتها، تحتاج إلى دراسة متأنية وضوابط تحمي البيئات الصحراوية من ضغوط قد تسهم في تدهورها!

ورغم أن أياً من هذه المحميات لم يفتح للزيارة، إلا أن الهيئة تنظم زيارات للمدارس والزوار في بعضها، كما تنظم عمليات جمع الكمأة (الفقع) في المحميات الشمالية. وهناك خطوات حثيثة لاعتماد استراتيجية وطنية للسياحة البيئية تراعي الطاقات الاستيعابية للزيارات في المناطق المحمية وما يترتب عليها.

وعلى الرغم من كل الإيجابيات للسياحة البيئية إلا أن موضوعها بحاجة إلى دراسة متأنية وضوابط ملزمة تكفل عدم تعريض البيئات الصحراوية الهشّة لضغوط تساهم في تدهورها. فهناك العديد من الدراسات العالمية المتخصصة تتحدث عن التأثيرات السلبية على سلوكيات وتكاثر الحيوانات في المحميات المستثمرة في السياحة البيئية. ورغم أن خارطة التنوع البيئي في المملكة طويلة، وتتشكل من نحو 2250 نوعاً من النباتات الزهرية ونحو 500 نوع من الطيور البرية والبحرية ومئات الأنواع من الثدييات والسحالي والبرمائيات والأسماك والحشرات. إلا أنه ينبغي التذكير بأنه لا يوجد نموذج مثالي واحد حول العالم يصلح للتطبيق في أماكن مختلفة، وأن البناء الذي يشاد على عجلة، على عجلة يقوّض.

اقرأ للبيئة

البيئة والمجتمع

بسبب توالي الاكتشافات في مسيرة علوم البيئة حديثة العهد، وتضارب بعض النظريات وظهور الجديد منها في كل يوم، تصبح الدراسات العامة في البيئة بالغة الأهمية إذا استطاعت أن تلحق بكل المستجدات والاكتشافات وإعادات النظر لتضمها بين دفتيها. ومن هذه الدراسات ما وضعه الدكتور أيمن سليمان مزاهرة والدكتور علي فالح الشوابكة في كتاب "البيئة والمجتمع" الصادر عن دار الشروق في عمّان - الأردن.

يقع هذا الكتاب في 247 صفحة موزعة على ستة فصول، هي: مفاهيم أساسية في البيئة، التغيرات في النظم البيئية، الدورات البيوجيوكيماوية، نوعية البيئة وإداراتها، الأخطار البيئية وتقييم الآثار البيئية، السكان والتنمية والبيئة.

وتحت كل عنوان من هذه العناوين الستة هناك مجموعة عناوين فرعية يشغل الواحد منها ما بين صفحتين وعشرين صفحة، وتستمد أهميتها الكبرى من الشروحات الدقيقة لا للقضايا البيئية فحسب، بل أيضاً للمصطلحات العلمية المستعملة في الدراسات البيئية (وهي تتكاثر بسرعة يصعب على الكثيرين اللحاق بها)، مما يجعل هذا الكتاب أشبه بقاموس جديد لعلم يتجدد دائماً على صعيدي المسائل التي تشغله والمصطلحات التي يستنبطها.

1 استهلاك اللحوم.. صحة هزيلة وبيئة ملوثة!

تضاعف إنتاج العالم من اللحوم خلال النصف الثاني من القرن العشرين خمس مرات. ووصل عدد المزارع في العالم إلى نحو 22 مليونا، وتحتوي مجتمعة على 15 بليون دجاجة و 1.3 بليون رأس من الماشية. وتتوقع بعض الدراسات ازدياد هذه الأعداد بنسبة 50% خلال العقدين المقبلين، الأمر الذي قد تكون له عواقب سيئة على صعيدي البيئة والصحة.

فمن المعروف أن الغازات المنبعثة من هذه الحيوانات وحدها تشكل نحو 10% من إجمالي انبعاثات ثاني أكسيد الكربون و25% من انبعاثات الميثان في العالم. كما أن هذه الحيوانات تستهلك من المياه كميات كبيرة باتت تقلّل تلك المخصصة للزراعة. إذ إن إنتاج الكيلو الواحد من البطاطا يحتاج إلى 500 لتر من الماء، والقمح 900، والأرز 2,000. أما الدجاج فيحتاج إلى نحو 3,500 لتر، والعجل إلى 100,000 لتر!



وليست البيئة فقط هي التي تتأثر سلباً بهذا الاستهلاك المرتفع للحوم، بل صحة الإنسان أيضاً حسب مؤسسة "يو. اس. ورلد وتش" التي تقول إن 1.1 بليون نسمة في العالم هم دون الوزن الطبيعي، كما أن هناك 1.1 بليون نسمة يعانون من زيادة في الوزن.










2 العلوم في العالم.. بين النظريات والتطبيق

جاء في دراسة مقارنة "للمؤسسة الوطنية للعلوم" الأمريكية أن الولايات المتحدة كانت السبّاقة في مجال المقالات العلمية حتى عام 1995م، عندما تساوت مع مجموع دول أوروبا الغربية. ومنذ ذلك الحين، والكتابة العلمية في العالم تسير في اتجاه ليس لصالح أمريكا. ولكن المقالات الأمريكية لا تزال تسجل أعلى نسبة من الاستشهادات التي تتضمنها.

وتحتل اليابان المرتبة الثالثة عالمياً بعد أمريكا وأوروبا الغربية، وبعد ذلك تأتي الصين وكوريا وسنغافورة وتايوان، التي صارت تساهم مجتمعة بنحو 7 في المئة من مجموع المقالات العلمية في العالم. ولكن الولايات المتحدة لا تزال الأولى

في مجال مبيعات الصناعات التكنولوجية العالية، وحصتها في ارتفاع مستمر، إذ بلغت عام 2000م نحو 33 في المئة من المجموع العالمي. واللافت أن حصة الاتحاد الأوروبي من هذه الصناعات في تناقص مستمر، فبعدما كانت عام 1980م في حدود 28 في المئة، تدنّت عام 2000م إلى 23 في المئة. كما أن حصة اليابان في تناقص أكبر، إذ وصلت إلى 13 في المئة في عام 2000م بعدما كانت نحو 23 في المئة عام 1990م. كما أن حصة ألمانيا انخفضت من 11 في المئة عام 1980م إلى ما دون 5 في المئة عام 2000م. وفي الوقت نفسه ارتفعت حصة الصين وكوريا الجنوبية باستمرار، لكنها لا تزال في حدود 7 في المئة بعدما كانت نحو 1 في المئة قبل عشرين عاماً.

3 رفاق العمر.. آليون؟

وصل عدد الذين هم فوق الستين من العمر إلى نحو 16 في المئة من شعوب الدول الغنية. هذا ما تقوله إحصاءات الأمم المتحدة التي تضيف أن هذا العدد سيتضاعف بحلول عام 2050م، الأمر الذي سينجم عنه عدد كبير من المشكلات في هذه المجتمعات على صعد الرعاية والأعباء المادية، غير أن المشكلات التي سيعاني منها المسنون أنفسهم ستكون أكبر، وأهمها الضجر والشعور بالوحدة والعزلة.

ولحل هذا الجانب من القضية، لجأت الدولة ذات النسبة الأكبر من المسنين، وهي اليابان، إلى صناعة رجال آليين أدخلوا الخدمة في أوساكا منذ عام 2000م، ومهمتهم تحية الشخص باسمه، ونقل بريده الإلكتروني إليه بالصوت، وتذكيره بموعد أخذ الدواء. كما طوّرت شركة "سانيو" حمّاماً آلياً للعجزة، كما تعمل شركة "كسانبو" في نيويورك على تطوير رجل آلي لكبار السن مزود بشبكة من الكاميرات واللواقط للعناية بالمتخلفين عقلياً منهم ومراقبتهم.

وتقول مارتا بولاك من جامعة ميشيغان إنها تريد أن تخطو بهذا النوع من الأبحاث إلى الأمام لإنتاج رجال آليين أذكياء وبأسعار رخيصة، يمكن للمسنين أن يلعبوا وإياهم الدومينو والشطرنج أو غير ذلك من ألعاب التسلية.

فمن اليابان إلى أمريكا، يبدو أن "العالم الغني" نسي أن في الدنيا ما يفترض أن يُسمّى أقرباء وأصدقاء..!

4 هل الخراف متشابهة؟

تبدو الحيوانات المنتمية إلى نوع واحد متشابهة بالنسبة إلى الإنسان. وتعزز الاعتقاد بحقيقة هذا التشابه نتيجة الدراسات التي أجريت على بعض الأنواع وكشفت عن أن بعض الحيوانات يعرف بعضه الآخر بالاعتماد على الرائحة أو الصوت أو ما شابه. ولكن الباحث كيث كندريك، من جامعة كامبريدج، تناول في دراسته الخراف التي تبدو في نظر الإنسان من أكثر الحيوانات تشابهاً ببعضها. وبعد اختبارات دامت لسنوات، تبين له أن دماغ الخروف يشبه دماغ الإنسان من حيث توافر خلايا عصبية في الدماغ مختصة بحفظ صور الوجه. كما أن بإمكان هذا الدماغ استعادة هذه الصور (تذكرها) لسنوات عديدة. أما الباحثة نانسي كانويشس من جامعة إم. آي. تي. فتؤكد أن قدرة بعض الخراف على تمييز وجوه أبناء جنسها تتخطى قدرة الإنسان في هذا المجال.

5 فوائد الصداقة.. في دراسات

أكدت دراسة أعدها الباحث ريتشارد ريفر ونشرتها مجلة "نيوستايتسمان" أن للصداقة آثاراً نفسية واجتماعية أعمق مما كان يعتقد حتى الآن في صفوف علماء الاجتماع والفلاسفة. فبعد الدراسات التي يستعرضها الباحث لجهة الدور الذي تلعبه الصداقة على صعيد تحسين الوضع الصحي للفرد وإطالة عمره، يقول إن الانتباه بدأ يتجه إلى قطاع الأعمال واحتمال إفادته من فهم أعمق للدور الذي تلعبه الصداقة على الصعد المهنية والاقتصادية. خاصة بعدما كشفت الإحصاءات أن تمتع الموظف أو العامل بعلاقة صداقة مع أحد زملاء العمل هو العامل الأقوى الذي يجعله يشعر بالرضا عن وظيفته.

وعلى الرغم من أن الروابط العائلية لا تزال كما كانت قبل ثلاثة عقود من حيث لجوء الفرد إلى ذويه في وقت الأزمات، فإن راي بال الأستاذ في جامعة إيسكس البريطانية يقول إن الصداقة الجيدة والبريئة يمكنها أن تكون ملائمة لمتطلبات الحياة العصرية مثل العائلة تماماً: "فالمسألة ليست العائلة أم الأصدقاء؟ بل العائلة والأصدقاء". ولكن الدراسات التي أجراها روبرت بوتنام في أمريكا كشفت أن رأس المال الاجتماعي هذا مهدد في الصميم، إذ انخفض عدد الزيارات المتبادلة بين الأصدقاء 45 في المئة عمّا كان عليه عام 1970م، كما أن الخروج من المنزل بصحبة أصدقاء انخفض بما نسبته 60 في المئة!

ويرجع البعض أن تعثر الصداقات الحاصل في أمريكا يعود إلى أسباب أخرى غير الاكتفاء الذاتي أو الاستغناء عنها، بدليل أن دراسة تحليلية لمشاهدي بعض البرامج التلفزيونية ومنها "أصدقاء" (فريندز) كشفت أن المشاهدين لا يحسدون الممثلين على وسامتهم أو بيوتهم الجميلة.. بل على العلاقات الإنسانية الدافئة التي تجمعهم. ولذا يتوقع ريفز أن يصبح موضوع الصداقة اهتماماً عاماً ومحوراً ثقافياً وموضوع دراسات معمقة خلال سنوات قليلة مقبلة.



أرشيف المحترف السعودي

شغل المريخ منذ أقدم العصور اهتمام الإنسان، الذي ما إن رفع بصره نحو السماء حتى لفت انتباهه هذا الكوكب الأحمر بلونه المتميز، وحركاته "الطائشة" بين النجوم وبقية الكواكب. فإن كان بعض هذه الأجرام السماوية أسطع من المريخ نوراً وأبهى لوناً، فإن هذه الأجرام تبقى أقل منه إثارة ودونه تشويقاً لما يظهره من غرائب أحواله وطرائف تقلباته. فأطلق عليه القدماء اسم "إله الحرب" في الأساطير الرومانية: مارس، بسبب لونه الأحمر الذي هو لون الحرب والدم والعنف، التي تميّزت بها هذه الشخصية الأسطورية.

الخرافات من الخرائط

وبسبب قرب المريخ النسبي من الأرض تمكّن العلماء منذ القدم من البدء بمراقبته بدقة. وتوصل الفلكيون إلى رسم صفحته، ووضع خرائط لها بدقة لم يبلغوا مثلها في دراستهم لأي من الكواكب الأخرى.

العالم الإيطالي جيوفاني شيابا ريللي (1835 - 1910م) كان أول من وضع خرائط للمريخ بشكل علمي عام 1877م. ولكن وسائل الرصد التي كانت في حوزته آنذاك لم تكن على مستوى عالٍ من الجودة، فتهيأ له من خلالها وجود شبكة من الأقنية تذرع سطح الكوكب في شتى الاتجاهات. مما حدا به وبالعديد من العلماء من بعده إلى الاعتقاد أن هذه الأقنية هي من صنع كائنات ذكية. وظل هذا الاعتقاد شائعاً في الوسط العلمي لغاية عام 1965م، عندما أظهرت الصور التي التقطتها المركبة الفضائية "مارينر 4" عدم وجود أية أقنية على سطح المريخ في أي شكل من الأشكال.

> معطيات كثيرة تشجع على البحث عن الماء الذي إذا توافر أصبحت الحياة ممكنة

ولكن الاعتقاد الخاطئ الذي شاع لقرن تقريباً ساهم في إعطاء كوكب المريخ صبغة أسطورية لعب الخيال فيها دوراً كبيراً، وكان محورها الكائنات المريخية التي من بعد بنائها على سطح كوكبها الأقنية المتشابكة الآنفة الذكر في محاولة منها للحؤول دون تصحرّه، بات هذا الكوكب مهدداً بالجفاف، فطفقت هذه الكائنات تستعد لغزو الأرض والاستعاضة بها عن كوكبها الضائع. ولا يزال الكثيرون يذكرون الهلع الذي أصاب الناس في الولايات المتحدة يوم 30 أكتوبر 1938م، عندما قدّم المذيع الشهير أورسون ويليس برنامجاً إذاعياً على محطة (CBS) الأمريكية، وكان موضوعه الخيالي حول هجوم على الأرض مصدره المريخ. وعلى الرغم من الإعلان في بداية البرنامج أن كل ما فيه هو محض خيال، فإن جمهوراً غفيراً من المستمعين، خاصة أولئك الذين فاتتهم بداية البرنامج، اعتقدوا فعلاً بوقوع هذا الهجوم، فترك الآلاف بيوتهم واندفعوا إلى الشوارع مذعورين، هرباً من الاجتياح المريخي.

البحث عن الماء بحث عن الحياة

والآن، بعدما أصبح معروفاً من خلال الاستكشافات المتعددة التي تمّت أن كوكب المريخ هو مجرد صحراء قاحلة لا نبات فيها ولا حيوان، تتابع وكالات الفضاء عمليات استكشاف هذا الكوكب وترصد لها مبالغ طائلة. فلماذا؟

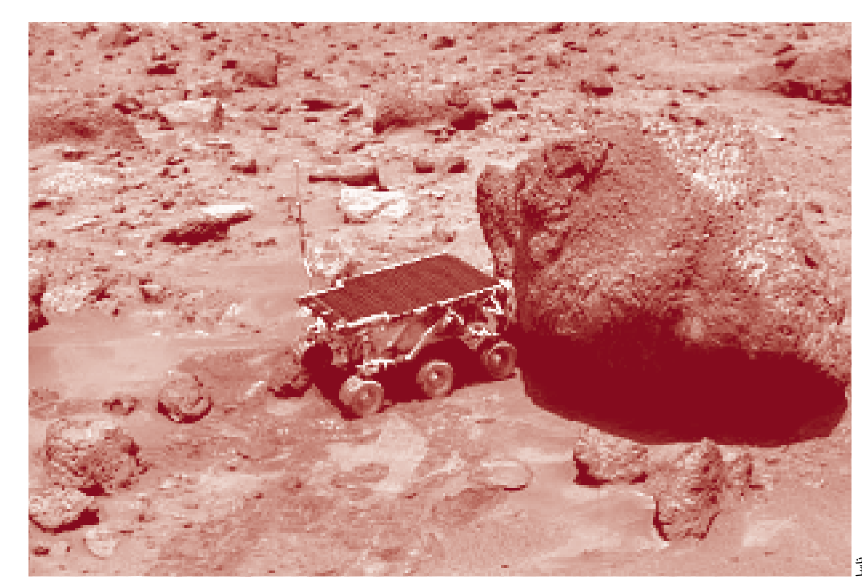
يكمن الجواب في اعتبارات عديدة وميزات رغم مظهره القاحل كوكباً فريداً في نوعه تبقيه محطّ أنظار الفلكيين والعلماء. الميزة الأولى هي في أن المريخ والأرض مرّا في المراحل التكوينية نفسها تقريباً منذ لحظة وجوديهما. فقد دلّت الدراسات على أن هذين الكوكبين تكوّنا في الوقت نفسه منذ 4.6 مليار سنة تقريباً، من تجمع الجزيئات والذرّات التي كانت تؤلف السّديمة الأصلية المكونة للمجموعة الشمسية، وذلك تحت تأثير جاذبيتهما الخاصة وجاذبية الشمس التي كانت هي أيضاً في طور التكوين. وتابع الجُرْمَان مراحل تشكلهما، التي كانت نفسها خلال مليار سنة تقريباً. فكانا شبيهين تماماً خلال تلك الفترة. ولكن، بسبب الفارق بين كتلتيهما، اتبع كل منهما مساراً مستقلاً ومختلفاً عن مسار رفيقه.

الأرض بسبب كتلتها الكبيرة نسبياً، تمكنت من المحافظة على الغلاف الجوي والمائي التابع لها، أما شقيقها الأصغر المريخ، ولأن كتلته أصغر من كتلة الأرض بعشر مرات تقريباً، وجاذبيته هي بالتالي أقل من جاذبيتها، فقد أخذ يفقد شيئاً فشيئاً غلافه الجوي، واندثر قسم منه في الفراغ الكوني المحيط به، خاصة الجزيئات الخفيفة منه كالهيدروجين والهليوم. أما الجزيئات الأثقل وزناً كالأوكسجين فقد اتّحدت بالمعادن المؤلفة للطبقة الصخرية السطحية وأكثرها كان الحديد، فتكونت إثر ذلك الأوكسيدات المعدنية، وفي طليعتها الأوكسيدات الحديدية ذات اللون الأحمر. وهذا يفسر اللون الأحمر الذي يتميز به هذا الكوكب.

أما الماء، فقد نضب معظمه بعد فترة من على سطح المريخ نتيجة عاملين أساسيين: الأول ضآلة الضغط الجوي التي جعلت قسماً من هذا الماء يتبخر في الجو، وعند بلوغه الطبقات العليا منه، تفككت جزيئاته تحت تأثير الأشعة فوق البنفسجية الآتية من الشمس، فذهب الهيدروجين في الفضاء الخارجي، واتّحد الأوكسجين كما أشرنا سابقاً بالعناصر المعدنية على سطح الكوكب. أما العامل الثاني فكان تغوّر القسم الآخر من الماء داخل الطبقات الصخرية للمريخ، حيث تجلّدت وشكّلت طبقات ممتدة من الجليد الجوفي يمكن، حسب رأي بعض الخبراء، أن تحوي كميات هائلة من المياه. وهذا الاحتمال من الأسباب الرئيسة

التي تدفع العلماء والدول إلى متابعة برامج استكشاف المريخ.

أما الدلائل والبيانات التي استند إليها العلماء لتأكيد ما ورد، فتتمثل بالصور التي نقلتها إلينا المركبات الفضائية المتعددة عن سطح المريخ، وهي تظهر بشكل واضح عوامل التآكل على هذا السطح، مثبتة أنه كان في ما مضى مسرحاً لجريان مياه غزيرة أمعنت في نحت جوانبه ووديانه. كما كشفت من ناحية أخرى أماكن تجمع للمياه على شكل طوف جليدي، يقع معظمها في المناطق القطبية منه.



المسبار سوجورنر على سطح المريخ عام 1997م

الدلائل الحسية بعد الخيال العلمي

مقولة ماء أو مياه جارية تعني إمكانية وجود حياة. وهنا يكمن محور عمليات الاستكشاف الفضائي. فالكل يعرف مدى اهتمام الإنسان بكل ما يمس وجود الحياة على كوكبه، وحري بهذا الاهتمام أن يزداد عندما يكون الموضوع الحياة على كوكب آخر. وكما أشرنا سابقاً فإن وجود كائنات حية عاقلة كانت أم بدائية خارج نطاق الأرض مسألة راودت مخيلة البشر منذ أقدم العصور. ومع تقدم وسائل الرصد الفضائي، أصبح المريخ المرشح الأوفر حظاً لتأكيد هذا الاحتمال، وأتت الاستكشافات الأخيرة للكوكب الأحمر لتعزز هذا الاحتمال. فماذا نعرف اليوم من حقائق مؤكدة في هذا المجال؟

العلماء يخططون لرحلات غير مأهولة كل سنتين بدءاً من العام المقبل وحتى عام 2011م موعد هبوط أول إنسان على سطح المريخ

كان أول دليل حسّي طرح بشكل علمي احتمال وجود حياة على سطح المريخ هو قطعة النيزك التي اكتشفت في القطب الجنوبي للأرض في السابع والعشرين من ديسمبر عام 1984م. فبعد تحليلها بدقة تأكد أن مصدرها المريخ. وكان لهذا النيزك أن يبقى مغموراً مثل الكثير من أمثاله في أدراج المختبرات لو لم تعلن وكالة الفضاء الأمريكية في أغسطس 1986م عن اكتشافها ضمن هذه القطعة الصخرية الصغيرة آثار أحافير متحجرة يمكن أن تكون ناجمة عن كائنات حية مجهرية.

كان لهذا الاكتشاف صدى كبير في الأوساط العلمية العالمية، وشكّل الحافز الأكبر لتركيز الجهود على اكتشاف مؤشرات حياتية ولو في طور بدائي، فكان بذلك المبرر الأساس لمتابعة الرحلات الاستكشافية نحو الكوكب الأحمر.

وما يعزز آمال العلماء في الحصول على نتائج إيجابية في هذا المجال هو تشابه كوكبي الأرض والمريخ من ناحية النشوء والتطور في بداية عهديهما. وبالتالي، نظرياً، بوادر حياة قد ظهرت على المريخ كما كان شأنها على الأرض. ولا فرق بين الاثنين سوى أن هذه البوادر لم يتح لها التطور كما حصل على الأرض بسبب عدم قدرة المريخ على الاحتفاظ بالظروف المناخية المناسبة لمتابعة هذا التطور، فبقيت الكائنات الموجودة هناك في ذلك الحين على حالها، أي في طورها الجرثومي المجهري، وهذا ما يريد العلماء التأكد منه في الوقت الحاضر.

آخر المهمات الاستكشافية

في الثاني من شهر يونيو عام 2003م، أطلقت المركبة الفضائية الأوروبية "مارس اكسبرس" من قاعدة بايكونور في كازاخستان حاملة معها جهاز الهبوط "بيغل – 2" البريطاني المزود بأجهزة لتحليل التربة وسبر غورها. ومهمته الأساسية البحث عن المياه وعن أي أثر للحياة على سطح المريخ بواسطة المسبار الذي يحمله جهاز الهبوط. كما تحمل المركبة نفسها الرادار "مارسيس" الذي يستطيع سبر غور السطح المريخي على عمق كيلومترات عديدة بواسطة هوائياته البالغ مداها عند بسطها 40 متراً. وقد وصلت هذه المركبة إلى المريخ في 26 ديسمبر من العام الماضي، واتخذت مداراً لها حوله، إلا أنها فشلت في إنزال جهاز المسبار "بيجل – 2" الذي تحطّم على سطحه. وحتى الآن لم يجرؤ القائمون على المشروع على تشغيل الرادار مارسيس وبسط هوائياته المتسعة.

وفي الثامن من شهر يونيو عام 2003م أطلقت وكالة الفضاء الأمريكية المركبة "سبيريت"، وبعدها بسبعة عشر يوماً المركبة "أبورتيونيتي". وقد حطّت المركبتان بنجاح على سطح المريخ. في شهر يناير من العام الجاري. والمركبتان هما عبارة عن جهازي روبوت يتنقلان بواسطة ست عجلات، ويزن الواحد منهما 180 كيلوغراماً. أما مهمتهما فهي البحث عن الماء ومظاهر الحياة. وقد بدأتا بالفعل بفحص تربة المريخ وصخوره وتصويرها وإرسال النتائج بالراديو إلى الأرض. ويأمل العلماء في نهاية مهمات هاتين المركبتين، في الحصول على أجوبة دقيقة وجملة معطيات أخرى قد تمكنهم على ضوئها من تنظيم رحلات مأهولة نحو المريخ.

وما الذي سيلي ذلك؟ وما هي المراحل المقبلة في مغامرة الاستكشاف هذه؟

الرحلات المأهولة قريباً، أما الاستيطان..؟

اتخذ التركيز على الرحلات المأهولة إلى المريخ منحى جدياً وتنفيذياً إذا جاز التعبير. وقد وضعت وكالة الفضاء الأمريكية برنامجاً محدداً للتمكن من تحقيق هذه الرحلات. ولكن قبل إرسال إنسان إلى سطح المريخ، سترسل "الناسا" عام 2005م مركبة تحمل اسم "Mars Recomaissance Orliter"، مخصصة للاستطلاع وتهيئة الرحلات المأهولة، تتبعها مركبة أخرى تدعى "Scout" (الكشّاف) عام 2007م. ثم يلي ذلك في عام 2009م عدد من المركبات لجلب عينات من على سطح المريخ والعودة بها إلى الأرض، لنصل أخيراً وربما ليس آخراً إلى تنفيذ المشروع الذي أسمته "الناسا": "Reference Mission"، وهو يتضمن إرسال ثلاثة طواقم يتألف كل منها من ستة روّاد لدراسة سطح المريخ ابتداء من عام 2011م.

أما على المدى البعيد، فإن عدداً من العلماء يفكر، منذ الآن، في ما بعد السيطرة الكاملة على الرحلات المأهولة إلى المريخ، ليصل إلى تأهيل هذا الكوكب بحيث يصبح صالحاً للسكن وكوكباً بديلاً عن الأرض في حال تعرضت هذه لكارثة عظمى.

هذا المشروع الذي يبدو الآن بعيد المنال أو شبه محال، يبقى من الناحية النظرية أمراً ممكناً طالما تم التأكد تقريباً من وجود الماء ولو على شكل جليد جوفي أو قطبي. أما بالنسبة للجو، فمن شبه المؤكد أن كل ما يلزم من أوكسجين ونيتروجين وغيرهما من مركبات الهواء الأرضي موجود ضمن الصخور السطحية أو الجوفية للمريخ، ويكفي لإطلاقها إحداث تفاعلات كيميائية معينة ليتم توفير الجو الملائم للحياة البشرية.

وعلى الرغم من هذه الإمكانيات المذهلة وانبهارنا بها، فإننا نتمنى ألا تحوجنا الظروف إلى مغادرة كوكبنا. لأننا نعتقد أننا لا نستطيع مهما فعلنا أن نجد بديلاً ملائماً. فالأرض هي هبة الله تعالى للإنسان الذي ينبغي عليه – قبل التفكير في الرحيل عنها – أن يعمل على الحفاظ عليها بكل ما أوتي من مقدرة وعلم ونبوغ.

المريخ بالأرقام

يقع المريخ في المرتبة الرابعة في المجموعة الشمسية لجهة بعده عن الشمس بعد عطارد والزهرة والأرض. ويبلغ متوسط هذا البعد نحو 228 مليون كيلومتر. ويأتي بعده المشتري، زحل، أورانوس، نبتون، وأخيراً بلوتو.

أما مواصفات هذا الكوكب وخصائصه فنختصرها بما يأتي:

- متوسط قطره: 6,777 كلم (نحو نصف قطر الأرض تقريباً).
- بعده الأدنى عن الأرض: 56 مليون كلم (حصل هذا بتاريخ 28 أغسطس 2003م، وسيحدث بعد آخر بتاريخ 7 نوفمبر 2005م، حين سيكون هذا البعد 69.4 مليون كلم).
- بعده الأقصى عن الأرض: 400 مليون كلم.
- كتلته: 10.7% من كتلة الأرض.
- مساحته: 97.6% من مساحة اليابسة على الأرض.
- حجمه: 15.1% من حجم الأرض.
- اليوم المريخي: 24 ساعة و 37 دقيقة.
- السنة المريخية: 687 يوماً أرضياً.
- سرعته حول الشمس: 86,868 كلم في الساعة (سرعة الأرض هي 107,244 كلم في الساعة).
- كثافته: 3.94 غرام / سم^3 (الأرض 5.51 غرام / سم^3).
- الضغط الجوي: 0.55% من الضغط الجوي على سطح الأرض.
- تركيب غلافه الجوي: 95.3% ثاني أكسيد الكربون، 2.7% نيتروجين، 1.6% أرغون، 0.13% أوكسجين، 0.03% بخار الماء.
- الحرارة السطحية القصوى: 27 درجة مئوية.
- الحرارة السطحية الدنيا: 128 درجة مئوية تحت الصفر.
- جاذبيته: 38% من جاذبية الأرض.
- عدد أقماره اثنان: فوبوس (طوله 27 كلم وعرضه 22 كلم وسماكته 19 كلم)، ودايموس (طوله 15 كلم، وعرضه 12 كلم، وسماكته 11 كلم)، بينما يبلغ قطر القمر الأرضي 3,476 كلم.

قصة ابتكار

ماكينة الخياطة

يعود الفضل في ابتكار آلة الخياطة إلى "إلياس هاو" الذي كان يعمل في متجر للآلات في بوسطن، وسمع ذات مرة حديثاً عابراً قال فيه صاحب المتجر لأحد العمال: "لماذا لا تبتكر آلة لحياكة الملابس تكسب بها ثروة؟".

كان راتب هاو لا يزيد على الدولارين أسبوعياً. وبسبب حاجته الماسة إلى المال، صبّ كل جهوده على محاولة اختراع آلة الحياكة هذه. فراح يراقب حركات يدي زوجته وهي تخيط الملابس، وابتكر أولاً، في عام 1839م، آلة تقلد هذه الحركة، ولكنها كانت غير عملية على الإطلاق.

ولاحظ الرجل ذات مرة وهو يصلح إحدى الساعات أن أجزاء عديدة في داخلها تتحرك في الوقت نفسه، فعرف أن المبدأ نفسه هو ما تحتاجه آلة الخياطة. وأدرك أهمية وجود إبرتين تعملان في الوقت نفسه، واحدة تغرز الخيط عمودياً، وأخرى تسحبه أفقياً من الأسفل. ويقال إنه شاهد في منامه سهماً أو إبرة على شكل سهم وبها ثقب في طرفها، فأدرك أن ثقب الإبرة يجب أن يكون عند طرفها الدقيق على عكس الإبرة العادية.

بعد سبعة أعوام من الجهود، صنع هاو أول آلة تستطيع أن تخيط القماش بغرزات سريعة في خط مستقيم، وباعها بثمن باهظ قدره 300 دولار. ولكن كفاءة الآلة لم تكن عالية فرفض الصناعيون تسويقها، الأمر الذي دفع بهذا المبتكر إلى الهجرة إلى إنجلترا مع عائلته يأساً وإحباطاً.

بعد سنتين، عاد هاو إلى أمريكا وهو أشد فقراً مما كان عليه. غير أنه فوجئ بوجود آلات الخياطة معروضة في المتاجر وبثمن لا يزيد على 100 دولار، فعلم أنه تم الاستيلاء على اختراعه.

غامر هاو في دخول معركة قضائية طويلة أمام المحاكم، انتهت بأن حكم القاضي بأن الرجل هو المبتكر الأصلي لهذه الآلة الجديدة، وألزم كل المنتجين بدفع حقوق الاختراع لصاحبه مقابل كل الآلات المصنوعة. وبهذا أصبح هاو ثرياً جداً في وقت قصير، ووصل مدخوله الأسبوعي إلى نحو 4000 دولار.

وفي عام 1850م، طوّر المخترع سنجر هذه الآلة وأعطاها شكلها النهائي الذي استمر الأشهر عالمياً على مدى قرن كامل وأكثر. وبعدما طوّرت ماكينة الخياطة في القرن العشرين وأصبحت كهربائية، فإن دور الكهرباء اقتصر على توفير جهود اليدين أو القدمين للخياط، لأن المبدأ القديم لعمل هذه الآلة بقي هو نفسه.

قصة مبتكر

أنطون فان ليفنهوك

تطلع في الإتجاه المعاكس.. فابتكر المجهر



خلال القرن السابع عشر الميلادي كان العالم بأسره منهمكاً في الاكتشافات الجغرافية الكبرى مثل استكشاف المناطق المجهولة في القارة الأمريكية الجديدة، وتطوير صناعة التلسكوبات لدراسة حركة الكواكب والنجوم واستكشاف الفضاء. وحده انطون فان ليفنهوك كان يتطلع في الاتجاه المعاكس، صوب الأشياء الصغيرة، الصغيرة إلى درجة لا تراها العين. وهنا تكمن عبقريته.

ولد فان ليفنهوك في مدينة دلف بهولندا عام 1632م. وبعدما تمرن وعمل كاتباً في محل لبيع المنسوجات، تزوج وفتح محلاً لبيع الأقمشة، كما حصل أيضاً على وظيفة بواب مجلس المدينة. حافظ الرجل على عمله نفسه ومنهج عمله اليومي حتى توفي وهو في الحادية والتسعين، الأمر الذي ساعده على ممارسة هوايته وإشباع رغبته العارمة في جلخ العدسات المكبرة الواحدة تلو الأخرى. وبلغ مجمل ما صنعه منها نحو أربعمئة.

كانت عدسات فان ليفنهوك صغيرة الحجم لا يزيد قطر الواحدة منها على ربع بوصة، أي بحجم حرف O تقريباً. غير أنها كانت ذات نوعية ممتازة وفاعلة بطريقة تدعو للإعجاب. كما كان يصنع بنفسه الحوامل القوية التي تحمل العدسات الدقيقة.

راح هذا المبتكر يتطلع من مجهره إلى كل الأشياء الصغيرة التي تخطر على البال: الأنسجة الجلدية، أرجل ذبابة ورأسها، وماء المطر الذي أخذه من بركة راكدة فاكتشف فيه "حيوانات صغيرة" تعوم وتتحرك أسماها "البهيميات الحقيرة". جرح إصبعه واختبر الدم واكتشف الكريات الحمراء. وفي عام 1674م قدم كل مكتشفاته للجمعية الملكية في هولندا التي ازداد اهتمامها بهذه المكتشفات وكرمت مبتكر المجهر وانتخبته عضواً فيها عام 1680م. بعد ذلك بثلاث سنوات فقط وضع فان ليفنهوك أول رسومات للبكتيريا.

وذاعت شهرته بفضل الدعاية التي قامت بها الجمعية الملكية والأكاديمية الباريسية للعلوم التي كانت تتلقى هي الأخرى رسائله. فحضر قيصر روسيا بطرس الأكبر لزيارته في منزله، كما زارته ملكة إنجلترا، إذ إن النظر من خلال المجهر إلى ذلك العالم المجهول الذي لا تستطيع العين أن تراه تحوّل إلى رغبة عارمة عند مشاهير العالم وقادته الذين وصلت إلى مسامعهم أخبار هذا الابتكار.

بلغ عدد الرسائل التي وجهها ليفنهوك إلى الجمعية الهولندية نحو 375 رسالة، تضمّن معظمها اكتشافاته المتتالية بدءاً بالفطر الموجود على الجلد أو اللحم، وانتهاءً بسوس الحبوب، وكان أول من أثبت أن أصغر مظاهر الحياة الحيوانية ناجمة عن التكاثر، ولا تنتج تلقائياً من مادة أخرى عندما تفسد كما كان الاعتقاد شائعاً قبل ذلك. وفي الأمر ما يكفي لإظهار ما يدين به العلم الحديث لـ "أمين مخزن" غير متعلم، لكنه شغوف بجلخ الزجاج، عمل بصبر لا ينفد وتمتع بقوة ملاحظة جعلته يقفز بالعالم مثل هذه القفزة العملاقة إلى الأمام.

اطلب العلم

أكدت الدكتورة كوري براون الباحثة في جامعة جورجيا الأمريكية أمام "المؤتمر الثالث للقاحات البيطرية والتشخيص" أن 75 في المئة من الأمراض التي تصيب الإنسان هي من أصل حيواني، وأن الأوبئة التي تصيب الحيوانات تتمتع بقدرة تبلغ ضعفي قدرة الأوبئة الأخرى على الانتقال إلى الإنسان.

ومن أشهر الأمراض التي أثارت ذعراً عالمياً في السنوات الأخيرة وأنزلت خسائر فادحة باقتصادات بعض الدول

مهمات بشرية.. أمام الطب البيطري

الدكتور أحمد محمد اللويمي

كان هناك جنون البقر والسارس والحمى القلاعية وأنفلونزا الطيور.. فما كان العالم يفيق من صدمة أحد هذه الأمراض إلا ويواجهه مرض جديد لا يشبه المرض السابق إلا من حيث كونه مثله: حيواني المنشأ..!

والواقع أن الأمراض الجديدة هي على مستوى من الخطورة والتحدي، يعادل ما كان عليه الطاعون في القرون الوسطى، لولا الوعي والمعرفة الطبية وتوفر الخدمات الصحية في العصر الحديث.

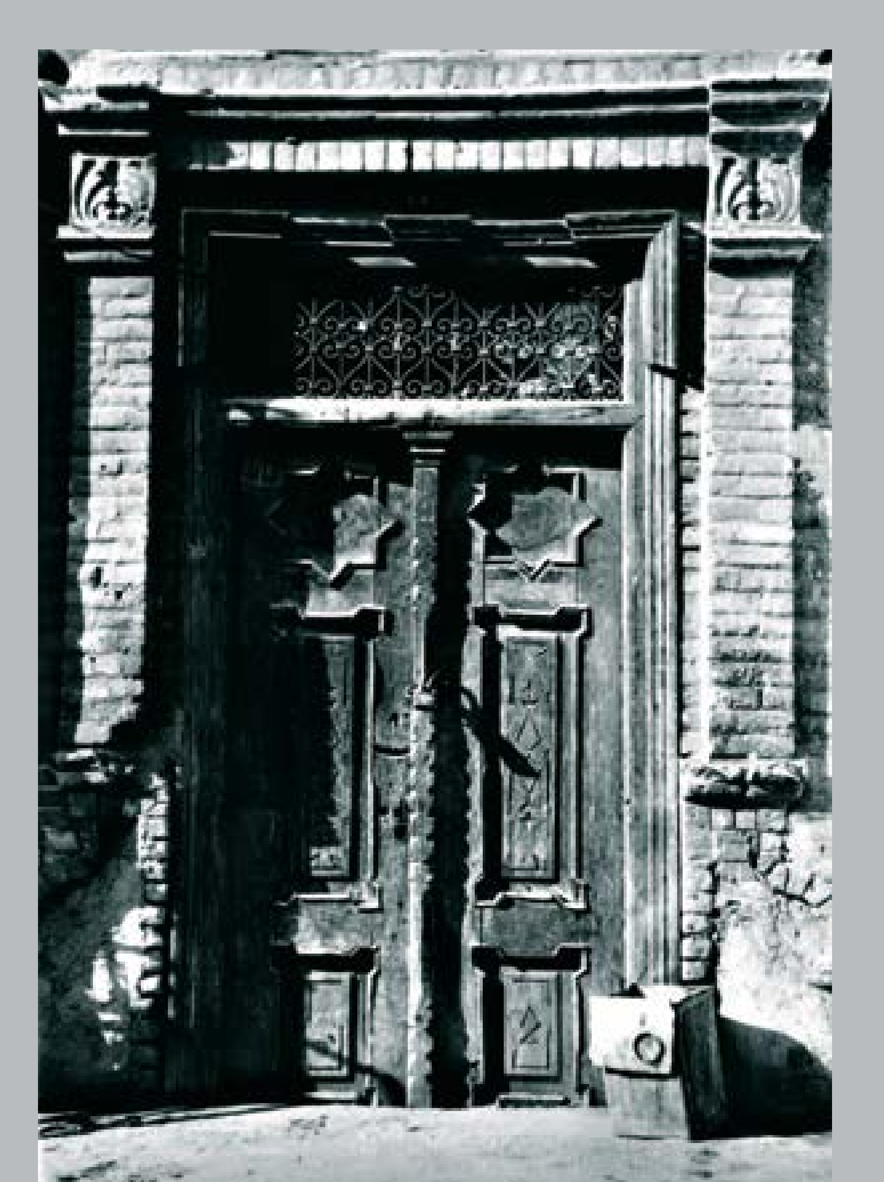
ويعود فضل كبير في الحد من الكوارث المحتملة لهذه الأمراض إلى الجهوزية العالية لأنظمة الاتصال التي تمتلكها الأجهزة الصحية والبحثية المختلفة في الدول المتقدمة، وحضورها السريع، والفاعل في مواجهة الأمراض المذكورة عند البوادر الأولى لظهورها في أي مكان. فمن أهم العوامل التي يعددها الباحثون في مواجهة موجة السارس خلال العام الماضي، حضور الكفاءات العلمية وارتباطها بمنظمة الصحة العالمية ومدها بشبكة هائلة من المعلومات من مختلف أنحاء العالم. فالتبادل السريع والدقيق للمعلومات كان من أهم الأدوات المفصلية في السيطرة على هذا المرض، وأيضاً على وباء أنفلونزا الطيور.

إضافة إلى ذلك؛ فإن أمن الدول والمجتمعات وسيادتها لم يعد مرتبطاً بسلامة الحدود، أو بخطر اعتداء خارجي فقط، إذ إن السيادة يمكن أن تتهدد في الصميم إذا أخفق بلد معين في مواجهة حالة طارئة مرتقبة، والأمراض الجديدة ذات المنشأ الحيواني هي واحدة من هذه الحالات.

إن وسائل النقل السريعة ما بين دول العالم والتحولات في العادات ومتطلبات الحياة تجعل من كل الدول عرضة لتهديدات هذه الأوبئة على حد سواء، والمملكة العربية السعودية كانت أسوة بمعظم دول العالم مهددة بوصول هذه الأمراض إليها. وقد تعرضت في الماضي إلى إصابة محدودة بمرض حمى الوادي المتصدع مما أكد وقتها الحاجة الماسة إلى تطوير كفاءاتنا وأدواتنا العلمية الضرورية للمواجهة، وإنشاء مختبرات مركزية بحثية تشخيصية لتتبع الأمراض الوبائية ودراستها وتبادل المعرفة والخبرة في التقنية مع الجهات الدولية المختلفة، وتدريب الكفاءات السعودية على وقاية وطننا من هذه الأمراض الفتاكة.

ولكن مهما بلغت الجهود في هذا المجال، فلا يمكنها أن تثمر إذا سادها شعور بإمكانية الاستغناء عن التعاون مع الكفاءات الأخرى، وعلى رأسها المؤسسات والأجهزة البيطرية.

وطالما أن الأمراض الفتاكة التي ظهرت أخيراً والمرشحة للظهور هي حيوانية المنشأ، ففي الأمر ما يستوجب تصحيح النظرة المتعالية التي يتطلع بها البعض إلى الطب البيطري الذي يلعب دوراً محورياً وفاعلاً في إنجاح البرامج الطبية والخدماتية المعدة لمواجهة هذه الأمراض. واستمرار النظرة القديمة القائلة إن الطب البيطري أقل شأناً من الطب البشري، بالنسبة إلى الإنسان، لا يعبر إلا عن فجوة خطرة قد تكلف الصحة العامة ثمناً باهظاً.



علي عبدالجبّار السميّن

مصور سعودي شاب، من مواليد مدينة الدمام عام 1405هـ (1985م). يدرس الهندسة المعمارية في جامعة الملك فهد للبترول والمعادن، السنة الثالثة. له مشاركات في معارض التصوير الضوئي الجماعية. وقد حصل على إحدى جوائز جماعة التصوير الضوئي بمحافظة القطيف.



بين لحظة الانتظار والفرحة المفاجئة..
سكينة ماثلة للتأمل..
ومجريات حياة يومية
بسيطة لا تهمّ أحداً..
يقول كلمة أو كلمتين..
إحداهما: ممنوع الدَّيْن!

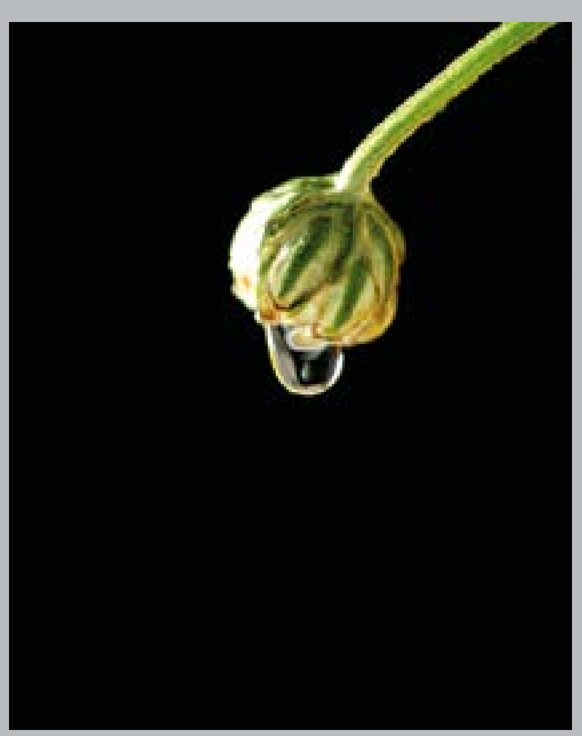


كلمة أو..
كلمتين









تأمل السكينة..



لا غصن نقا..

بدأ الأمر قبل نحو خمسة قرون ترفاً تزيينياً في حدائق قصر "فولوفيكونت" في فرنسا، إذ زرعت الأشجار وقُلّمت أغصانها بحيث صارت تبدو كالكرة أو الهرم أو المكعب.. ومن هناك انتقل هذا "الفن" إلى قصر فرساي عند توسعته وهندسة حدائقه في عصر الملك لويس الرابع عشر.

كان للأمر ما يبرره هناك. إذ كانت الحدائق الشاسعة أشبه بسجادة يمكن التطلع إليها من النوافذ العالية في القصور الشاهقة. ولكن ما هو المبرر في تفشي هذا النمط من التعاطي مع الأشجار أينما كان في مدن العالم، وصولاً إلى تلك المفروشة على أرصفة الشوارع في مدننا العربية؟

أشجار قزمة، أو مقزَّمة، أو قل ليس فيها من الأشجار شيء غير اللون. مكعب، هرم، قمع، كرة.. كتلة خضراء تعلو جذعاً يبدو أشبه بعامود من البلاستيك.. وكأن هناك ثأراً ما بين المسؤولين عن هذه الأشجار والغصن، إذ كلما نما واحدٌ مخرباً هذا الشكل الهندسي هاجمه عمال البلدية بمقصاتهم الرهيبة فتعود الشجرة مرسومة بالمسطرة.. إنه واحد من نماذج إعجابنا عشوائياً بكل ما هو عند غيرنا. فنستورد ما فعله في وقت محدد ولغاية معينة، لنطبقه عندنا من دون أي تفكير في حاجاتنا وذوقنا وما إذا كان مفيداً أو ملائماً أم لا.

لا ثمر.. الأمر ليس مشكلة، فللأشجار غير المثمرة فوائدها أيضاً. ولكن أن تصبح هذه الأشجار من دون غصن يحط عليه الطير، ولا ظلّ يقينا حر الشمس.. فما الفائدة منها؟ لماذا لا يتم استبدالها بأشجار صناعية من البلاستيك فيوفرون استهلاكها للمياه، ويريحون العمال من مشقة إعدام "الأغصان المشوّهة لجمالها"؟



شجرة بريشة الرسّام فان كوخ d.r.

الهواء النظيف والأوكسجين؟ نعم. ولكن في هذه الحال، فإن قطع الأغصان يقلل عطاء الشجرة من الهواء النظيف والأوكسجين.

الشجرة حلوة بأغصانها، وآلاف الشعراء العرب الذين تغنوا بالغصن وشبهوا المرأة الجميلة به يشهدون على صحة هذا القول.
والشجرة عزيزة بأغصانها، وآلاف الطيور تشهد على صحة هذا القول.
والشجرة نعمة بظل أغصانها، وآلاف الباحثين عن الظل لاتقاء حرارة الشمس في بلادنا يشهدون على ذلك..

فرأفة بالشجرة، والطير والشاعر والعين اتركوا الأغصان تنمو على هذه الأشجار. ورأفة بالنفس المشتاقة إلى الظل اتركوا هذه الأشجار تنشر ظلها..
فالرأفة بالشجرة وبأغصانها صارت من الرأفة بنا.

عبّود عطية



فرحة المفاجأة



على الرغم من كل الانتقادات الموجهة إليه، لم يفقد التلفزيون شيئاً من قدرته على جذب المشاهدين، حتى أن بعضهم لا يستطيع أن يفلت من القيد الذي يشده إلى الشاشة الصغيرة.

الزميل كميل حوّا يحدثنا هنا عن الظاهرة التي باتت تجد من يصنفها على أنها نوع من أنواع الإدمان، بينما يحدثنا الزميل خالد الطويلي عن نوعية جديدة من البرامج تزيد من جذب التلفزيون للمشاهدين.

بين واقع التلفزيون.. وتلفزيون الواقع!

الجهاز متهماً!

1 ...على حساب الثقافة والحياة الشخصية

كميل حوّا

يحتل التلفزيون مساحة تفوق بكثير ما يجوز له أن يحتل من ساعات يوم واحد من حياتنا، لا بل إنه يحتل كل ساعات البعض منّا خارج العمل والنوم. إنه الجليس الذي لا يصمت في قاعة الجلوس. ويعيق تبادل الأحاديث بين الأهل والأصدقاء، أو قراءة الكتاب أو الجريدة أو سماع الراديو، زميله المضطهد، فيملأ جو الغرفة بضوضاء تحول حتى بين الإنسان وأبسط حاجاته كالتأمل والتفكير.

الإدمان التلفزيوني

تزداد الحملات ضد التلفزيون هذه الأيام، ويعود بعضها في الأساس إلى شكاوى الناس المعروفة من أثره السلبي في الحياة العائلية ككل، لكن كثيراً منها يعود إلى دراسات علمية مختلفة تُوجه إلى هذا الجهاز شتى أنواع التهم، التي ليس أقلها اتهامه بالتسبب في نوع من الإدمان وتحميله مسؤولية ارتفاع نسبة السمنة لدى الأولاد.!

بدأت في الولايات المتحدة منذ سنين عديدة حملة عنوانها "أسبوع بلا تلفزيون" تحت شعار "أطفئوا التلفزيون وأشعلوا الحياة". وانطوت الدعوة على حملة لتحرير الناس من روتين المشاهدة التلفزيونية المستمرة، التي لا تخلو من انعكاسات سلبية عديدة على حياة العائلات وحياة كل فرد على حدة. وتقوم فكرة هذه الحملة على أن التوقف أسبوعاً واحداً عن المشاهدة التلفزيونية يفسح المجال للناس ليتذكروا وسائل التسلية والفائدة الأخرى أو يعيدوا اكتشافها بشكل أدق. كما نشرت مجلة "مايند" العلمية الأميركية مقالة حول الإدمان التلفزيوني تبدأ بعبارة "اقتل جهازك!". وتقول هذه المقالة، نقلاً عن عدد كبير من علماء النفس، أن المشاهدة التلفزيونية لفترات طويلة أصبحت اليوم ضرباً من ضروب الإدمان لا بد من مقاومته والحد منه، أكثر من أي وقت مضى.

لم يرقَ تعبير "الإدمان التلفزيوني" إلى مستوى التعبير العلمي حتى الآن. ولا نتوقع أن نجد في القريب العاجل على صناديق التلفزيونات عبارة تقول "التلفزيون مادة تؤدي إلى الإدمان، وتخفض مستوى التركيز الذهني، واليقظة والاستمتاع بالحياة". إلا أن هذا لا ينفي اتفاق علماء النفس على أن الكثير من مظاهر الإدمان التلفزيوني تشبه مظاهر إدمان أية مادة ذات عوارض إدمانية معروفة كالنيكوتين أو الكافيين أو غيرهما.

وتشمل مظاهر الإدمان بشكل عام المعايير الآتية:

- استخدام المادة لساعات طويلة واللجوء إليها بشكل لا إرادي، وعدم القدرة على الحد من استخدامها، حتى ولو كانت هناك نية بذلك.
- إهمال واجبات أسرية واجتماعية ومهنية.
- التعرض في حالة التوقف عن استخدامها لضيق يشبه ما يتعرض له الذين توقفوا عن أي إدمان كان.

تنطبق كل هذه الظواهر، من دون استثناء، على الذين يمضون أوقاتاً طويلة في المشاهدة التلفزيونية. وقد أظهرت دراسات أجريت على عدد من الذين يطلقون على أنفسهم صفة "مدمني التلفزيون" أنهم فعلاً يعانون من عوارض ما هو معروف بـ"وحمة الإدمان" كلما حاولوا التوقف عن المشاهدة.

تجلس أمام التلفزيون في يدك جهاز التحكم تقلّب مئات المحطات ولا تجد برنامجاً يستحق المشاهدة

وكل من واظب على مشاهدة التلفزيون لساعات طويلة لأيام متلاحقة مهما قصرت لا بد أن يشعر بهذا "الأثر الإدماني" ولو بدرجات متفاوتة. وإذا كان "الإدمان" نوعاً من الميل المكتسب لحواس الإنسان نحو تلقّي مادة ما من أجل تكرار إحساس تعودته وألفته، فلا شك في أن المشاهدة التلفزيونية تخلق مثل هذا الميل. وكلما أوغل الإنسان في المشاهدة التلفزيونية استسلم لها وتبلدت مشاعره، وتلاشت قدرته على الخروج من "صندوق الفرجة" هذا، وتناقصت معاييره في ما الذي يحب أن يشاهده وما لا يحب، وتصبح عنده الصورة المتحركة بأي شيء هي كل شيء. وهذا ضرب من التخدير بلا شك. وكم يشبه هذا الاستسلام للشاشة، انجذاب أنواع من الذباب إلى مصادر الضوء، لا تبتعد عنه حتى لو أحرقها.!

إن المشاهدة التلفزيونية البليدة وغير الانتقائية والممتدة لساعات لا تنتهي إ! بالنوم التلقائي تؤدي إلى خمول ذهني وحسي وتهبط بأية قدرات إرادية أو تفاعلية أو إبداعية إلى الحضيض، وتشكل من دون وعي حالة انقطاع اجتماعي شبه تام يصيب الحياة العائلية نفسها بالشلل.

التلفزيون والسمنة

وهذا النوع من المشاهدة التلفزيونية، بما فيه من انقطاع عن الحياة الاجتماعية والحركة والرياضة، يترافق عادة مع تناول وجبات غذاء و"أطعمة مسلية" غير صحية. وقد أصبحت صورة الولد السمين الجالس وحده أمام جهاز التلفزيون يملأ فمه بالبطاطس المقرمشة ويشرب المرطبات الغازية صورة راسخة في الأذهان. وقد نشرت في مجلة "لانست" الطبية دراسة إحصائية تؤكد وجود علاقة ثابتة بين المشاهدة التلفزيونية الطويلة في سنين الطفولة والسمنة، وأيضاً ارتفاع نسبة الكولسترول ونسبة التدخين والإصابة بالأزمات القلبية. وتشير هذه الدراسة كذلك إلى أن ما يتعرض له هؤلاء الأطفال من إعلانات كثيفة للوجبات السريعة تشكل بذاتها مصدراً إضافياً يزيد من استهلاكهم للسعرات الحرارية.

الكثير أخ القليل

وإذا كانت الحملات الأساسية على المشاهدة التلفزيونية تتناول قضايا كالإدمان التلفزيوني وأثره في حياة الفرد والعائلة بما في ذلك موضوعات مثل السمنة، وكذلك تشجيع العنف وغيرها، فإن هناك تململاً من التلفزيون يتناول نواحيَ أخرى مختلفة تماماً.

فالناس هذه الأيام يزدادون ضيقاً من فقر المادة التلفزيونية كلما ازداد عدد المحطات التي توفرها لهم صحون الالتقاط! وأخذ الكثيرون في مختلف أنحاء العالم، يعبرون عن تبرمهم بجملة واحدة: "تجلس أمام جهاز التلفزيون وفي يدك جهاز التحكم وتقلّب مئات المحطات من دون أن تجد برنامجاً واحداً يستحق فعلاً المشاهدة". ويستغرب المرء كيف أنه حين كان عدد المحطات أقل بكثير، كانت هناك برامج وطنية وأجنبية أجمل وأكثر إفادة وارتباطاً حقيقياً بالحياة. ولا يكاد يفقه أحدنا ما يبرر هذا "الانفلاش المحطاتي" إذا جاز التعبير، المصحوب بهذا الشح في البرامج! عرضٌ أكثر بكثير من حاجة الناس كماً، وعرضٌ أقل بكثير من حاجة الناس نوعاً.

مزيد من الإفقار

أدى الهبوط العام في مستوى البرامج، خاصة في التلفزيونات العربية إلى عزوف قلة قليلة عن المشاهدة التلفزيونية كلياً أو جزئياً. وأخذ بعضهم يقصر مشاهدته على برامج الأخبار أو ذات البعد الإخباري، لكنه أدى لدى الكثرة المتابِعَة للمشاهدة الكثيفة من جهة أخرى إلى هبوط عام في مقاييس الحكم على البرامج وغدا الناس يرضون بما هو متوافر ما دام يؤدي إلى نوع ما من التسلية وتمضية الوقت. الأمر الذي يؤدي بالتالي إلى هبوط واسع الانتشار في المستوى الثقافي للناس ينتج عنه إفقار للمناخ الاجتماعي العام في المعارف والأفكار والأحلام.

والإفقار يؤدي إلى مزيد من الإفقار. فبيئة اجتماعية هبطت مقاييسها في الحكم وازدادت ضحالة الأفكار الرائجة في صفوفها تنعكس بدورها على الأداء التلفزيوني، فما هو مصدر أي إنتاج تلفزيوني أياً كان إن لم يكن من هذه البيئة نفسها؟

ومن ظواهر هذا الفقر بلا شك توجه المحطات التلفزيونية في الوطن العربي وأنحاء أخرى من العالم إلى اقتراض الأفكار بعضها من بعض، واقتراض البرامج الجاهزة كالوجبات الجاهزة تماماً.. إنها خالية من أية سمات ثقافية وأية نكهة حقيقية.

يهدد العقل بالخمول والحياة العائلية بالشلل

إقرأ!

المشاهدة التلفزيونية التي يختار المشاهد معها البرنامج الذي يود رؤيته، سواء أكان برنامجاً إخبارياً أم ثقافياً أم فنياً أم رياضياً أم غير ذلك تقع بلا شك في خانة السلوى البريئة والثقافة العامة المطلوبة. وهي تقارن بطبيعة الحال مع أي نشاط ثقافي كالقراءة أو سماع محاضرة أو مشاهدة مسرحية أو غيرها. وخلال هذه المشاهدة يكون ذهن المشاهد حياً متفاعلاً مع الذي يجري، مستمتعاً، مقيّماً، معترضاً، موافقاً، متحمساً، محاوراً. وذلك على عكس المشاهدة التلفزيونية الأخرى، الأكثر شيوعاً بين الناس، سواء وصلت إلى درجات الإدمان أم لم تصل.

فقد أدت المشاهدة التلفزيونية الروتينية في المنازل إلى هبوط كبير في نسبة القراءة. وتتزايد الكتابات في الغرب، وفي الولايات المتحدة الأمريكية بالدرجة الأولى، التي تنبه إلى هذه الظاهرة المتعاظمة. وقد أثبتت دراسات حديثة أن هناك تدنياً واضحاً في نسبة القراءة في الولايات المتحدة وعزت أحد أسباب ذلك إلى انتشار هذا النوع "غير الانتقائي" من المشاهدة التلفزيونية، واعتبرت الدراسة هذه الظاهرة ظاهرة تراجع عام في المجتمع الأمريكي مقارنة بالمجتمعات الأخرى التي تتقدم نسبة القراءة فيها.

وواقع الأمر هو أن الناس لكثرة تعودهم النظر إلى الشاشة التلفزيونية، تضاف إليها كذلك شاشة الكومبيوتر، جافوا صفحة الكتاب. حتى تجد بعض الناس ينظرون إلى الورقة المطبوعة في كتاب كانت أم في صحيفة وكأنها ورقة بردي عليها كتابات فرعونية. وغدا الذين لا يمارسون القراءة يجدون صعوبة أكبر في فتح كتاب أو مجلة للقراءة. أو حتى صحيفة مع أن الأخيرة ما زالت أكثر قدرة على المقاومة.

تجاوز الفرحة الأولى

ربما يعود بعض التعلق بالجهاز إلى الصدمة السعيدة الأولى، أي إلى ساعة مشاهدة التلفزيون للمرة الأولى التي خلقت فرحة وحماسة للمتحلقين المندهشين أمام هذا الجهاز وكأنهم لا يصدقون ما يرونه. وليس غريباً على المجتمع الإنساني أن يستمر في ملاحقة متعة عرفها مرّة سعياً وراء تكرارها ولو خابت آماله جزئياً أو كلياً. خاصة أن التلفزيون يعطي الناس بعض ما يرغبون ويحبون من الأخبار إلى الرياضة إلى المسلسلات الاجتماعية إلى غيرها، فيجتمع رضا الحد الأدنى مع التعلق القديم ليحافظ على هذه المواظبة التلفزيونية العامة.

لكن إذا كانت هناك كلمة سر لكثرة المشاهدة التلفزيونية فهي بلا ريب: السهولة! كبسة زر واحدة أو اثنتين على الأكثر وتنفتح أمامك نافذة العالم تذهب بها يساراً ويميناً شمالاً وجنوباً. فالتسلية السهلة ملك يديك.. وأية تسلية أخرى تحتاج إلى جهد كما تحتاج إلى اختيار وقرار ومبادرة. وسهولة الحصول على الأشياء من متطلبات هذا العصر السهل – الصعب. والإنسان الذي يعاني أي نوع من الوحدة أو الضيق مهما كان مصدره ومهما كانت شدته يجد في هذا الجهاز ملاذاً سهلاً يغنيه عن أي عناء أو تفكير.. ولساعات لا تنتهي..!

ولكن هذه السهولة وما تمهد له من تعود مُقعد عن أي نشاط آخر، اجتماعي أو عائلي أو ثقافي، لها ثمن غال.

لقد آن الأوان لأن يتحرر الناس من وقع فرحة التلفزيون الأولى ويعترفوا بأنه لم يعد في الجهاز مفاجأة تذكر. وأن ينظروا بتفحص جديد إلى ما الذي يستحق المشاهدة وما الذي لا يستحق أن يصرف فيه الوقت الثمين. وهذا الاختيار لا يؤدي فقط إلى إنقاذ ساعات تهدر عبثاً من كل يوم من أيام حياتهم، بل يعطي البرنامج الذي يختارونه قيمة أكبر في نفوسهم ويجعله أكثر إقناعاً. والحد من المشاهدة التلفزيونية ليس بالصعوبة التي قد يتوقعها

البعض. وكثيراً ما قرر الناس الحد من بعض أنواع التعود التي كادت تودي بحياتهم بما فيها سماع الراديو مثلاً أو حتى الجلوس الطويل في المقاهي بلا هدف.

وبذلك يفسحون المجال أمام أنشطة أخرى مهمة في حياتهم ليس أقلها القراءة وتمضية أوقات أكثر مع الأهل والأصدقاء أو الالتفات إلى هواية أو رياضة فيهما صحة أو فائدة أو الاثنتين معاً.

سيِّد الجالسين!

ولو وضعنا جميع أسباب هذه الغلبة للمشاهدة التلفزيونية على أي نشاط آخر في حياتنا جانباً، لوجدنا سبباً عرضياً واحداً قد يفوق جميع الأسباب الأخرى على بلاغتها في إفساح المجال لهذا الجهاز لأن يتبوأ هذه المكانة في حياتنا، وهو موقع التلفزيون في غرفة الجلوس، حيث يقبع مواجهاً حلقة المقاعد مطلاً عليها من مركز عال فلا يفلت من إشعاعاته أحدها. فمجرد وجوده مغر للتشغيل، ومجرد تشغيله مغر للمشاهدة.. مهما كان موضوع الصورة المتحركة المحدثة لكل هذه الضوضاء: أخبار، ندوة، مقابلة، فيلم، مسلسل، مسابقة، أو أي من برامج التسلية. أنت جالس وهو مضاء، إذن أنت مشاهد شئت أم لم تشأ. وإنقاذ نفسك هو إما في مغادرة الغرفة وإما بالإمساك بـ "الريموت" وإطفاء الجهاز... تشعر أحياناً أنك تريد أن تخرسه لا أن تسكته فقط!

وجوده مغر للتشغيل وتشغيله مغر للمشاهدة

وتصبح الانتقائية في اختيار البرامج أكثر ضرورة إذا ما تعذر وجود غرفة أو ركن خاص للمشاهدة التلفزيونية. واكتساب عادة إضاءة الجهاز في حال وجود برنامج نرغب بمشاهدته وإطفائه خلاف ذلك يعيد بلا شك التوازن إلى جو غرفة الجلوس في المنزل، بل وإلى الحياة الأسرية عموماً. ومن أهم صفات هذا التوازن الالتفات إلى وسائل الثقافة الأخرى وإعادتها إلى صلب الحياة اليومية وأهمها قراءة الكتاب. دون أن نغفل هنا عن ذكر الراديو الذي سوف يفاجأ من يعودون لسماع برامجه بوجود برامج "سمعية" لا تقل، بل تزيد إمتاعاً وفائدة عن البرامج التلفزيونية. الراديو ذاته يستطيع أن يستقبل أصنافاً من البرامج الثقافية لا يستقبلها التلفزيون لأسباب عديدة منها ارتفاع تكلفة إنتاجها تلفزيونياً ومنها أحياناً استحالة ذلك لاختلاف نمط البرنامج التلفزيوني وطبيعة تناوله للمواضيع. وهذا بحث يطول.

إلا أن الراديو الذي لولا سماعه في السيارة، حيث لم يستطع التلفزيون منافسته إلا بحدود ضيقة، لكان قد أصبح منسياً بالكامل تقريباً. أخذ يستعيد بعضاً من حظوته في الاهتمام العام. وتحدثت بعض الصحف الأوروبية أخيراً عن مثل هذه العودة، حيث أخذت برامج إذاعية تحظى بشعبية لم تحظ بمثلها لسنوات طويلة.

حين ظهر التلفزيون نظر إليه الناس على أنه راديو بصورة، وثبت مع الأيام أنه ليس كذلك بل هو وسيلة مختلفة بآفاق وباستخدامات خاصة بها. وسماع أشياء على الراديو له وقع مختلف وأغنى أحياناً من سماعه ومشاهدته. بما في ذلك بعض المسرحيات التي يعطيك الراديو فيها فسحة كبيرة للخيال.

وحين ظهر التلفزيون أيضاً ظنّ الناس أن هذا سوف يقضي على السينما وثبت مع الوقت أن السينما أثبتت حقها في الاستمرار مع أنها تعرضت في فترة ما لانتكاسة.

قبل ذلك حين انتشر الراديو كان تركيز الناس منصباً على الجريدة، والجريدة استمرت رغم الراديو ورغم التلفزيون. كذلك الكتاب فقد استمر بدوره رغم توفر جميع الوسائل الأخرى. وأخيراً مع انتشار الكومبيوتر والإنترنت خاف الناس على هذه جميعاً. لكن هذا الخوف أخذ بدوره بالانحسار.

ابتكرت الإنسانية ولا تزال تبتكر الوسيلة تلو الأخرى في سعيها إلى توسيع وسائل نشر المعرفة، ولكل وسيلة من هذه الوسائل بذارها في الشكل أو المضمون، وفي شكل تلقي الإنسان لما تقدمه أو حتى في مضمونه. وعلى الرغم من قدرة المضامين المختلفة في كثير من الأحيان على التأقلم مع كل وسيلة من الوسائل إلا أن للوسيلة أثراً أكيداً في الوقع الذي يصل هذا المضمون عبره. وقد راجت منذ نحو ثلاثة عقود نظرية تقول بوحدة الوسيلة والمضمون، بمعنى غلبة شخصية الوسيلة على مضمون الرسالة التي تحملها مهما كان هذا المضمون. فالقول الذي تقرأه في جريدة غير الذي تسمعه في الراديو أو الذي يصلك عبر التلفزيون يختلف حتى لو تطابق في الأصل. يختلف في مدى وشكل تأثيره في المتلقي. ولو أخذ على هذه النظرية شيء من المغالاة إلا أن فيها شيئاً من الصحة كذلك!

إن التحرر من الإدمان التلفزيوني لا يقي الإنسان آثاراً سلبية على نفسه وجسده فقط، بل يؤدي بالدرجة الأولى إلى إعادة التوازن إلى حياته واستعادة فرصة الاستفادة من كل الوسائل الثرية والمختلفة التي توفرها له الحياة الإنسانية المعاصرة.

أطفئ التلفزيون.. تناول جريدة.. افتح كتاباً.. استمع إلى الراديو.. تحدث مع جليس.. شغّل التلفزيون.. لا بأس!

2 الواقع على الشاشة

خالد الطويلي

كانت مطاردة الشرطة للرياضي والممثل المشهور أوجي سيمبسون في شوارع لوس أنجليس بعد مقتل زوجته من أكثر الأحداث التي تابعها الجمهور الأمريكي في تلك السنة. وقد نقلت أحداثها كاميرا محمولة على طائرة مروحية تتابع السباق بين سيمبسون ومطارديه على الهواء مباشرة. ولكن المئات من المشاهد المماثلة للمطاردات البوليسية في المسلسلات والأفلام لم تحظَ بالاهتمام نفسه، ويبدو أنها لن تحظى بذلك. ماجرى بين سيمبسون الممثل، والشرطة كانت نتائجه غير محسوبة أو محسومة، وكان هذه المرة أمراً حقيقياً وليس دوراً تم الإعداد له ...أي بمعنى آخر كان مشهداً تلفزيونياً، ولكنه كان ينقل الواقع.

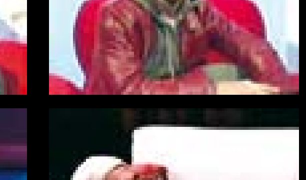
إن ما يعرف اليوم بتلفزيون الواقع مثل برامج صنع النجومية من "سوبر ستار" إلى "أكاديمية النجوم" و"الأخ الأكبر" أو "الرئيس" كما اتفق على تسميته العربية، صار من بين أكثر البرامج التلفزيونية شعبية لدى الجماهير في العالم العربي وخارجه، خاصة في صفوف الشباب والمراهقين، وذلك للسبب نفسه الذي تابع من أجله ملايين الأمريكيين مطاردة سيمبسون،

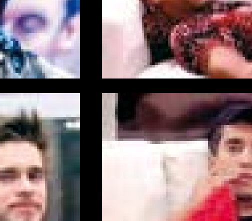
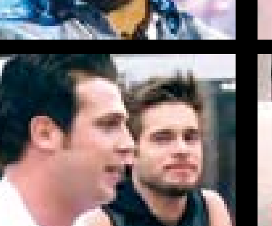


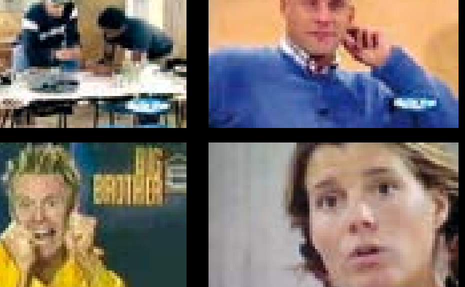
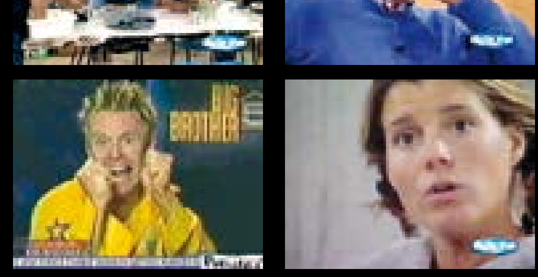








نجوم على تلفزيون الواقع.. ولكن من دون تمثيل.

ربما لأسباب أخرى لن يكون حب الاستطلاع و"التلصص" أقلها أهمية. ويبدو من الواضح لدى كثير من المحللين أن هذه البرامج جزء من مفهوم العولمة الثقافية التي تأثر بها العالم كله. فهي برامج، كما هي حال برامج المسابقات الثقافية، نشاهد نحن نسخها العربية فيما تتابع أوروبا وأمريكا نسخاً مطابقة لها بلغاتها.

من الكاميرا الخفية إلى "الرئيس"

تلفزيون الواقع بتعريفه البسيط، هو أمر قديم متجدد، فبرنامج "الكاميرا الخفية" كان من بين أوائل البرامج التي حملت هذه الفكرة. وقد لقي نجاحاً في كل مكان، وبأية صيغة عرض. ولا بد أن المنتجين لاحظوا أن هذه النوعية من البرامج التي تنقل للمشاهد وقائع مختلفة بين شخصيات حقيقية وفي ظروف واقعية ومن دون إعداد مسبق لنص أو سيناريو، تحظى بجماهيرية كبيرة.

خرجت الشركات المنتجة ببرامج متتابعة تعتمد بشكل كبير على فكرة تلفزيون الواقع، فشاهدنا برامج من قبيل عرض الأخطاء التي يقع فيها الممثلون ومقدمو نشرات الأخبار أثناء عملهم، وبرامج التصوير الهاوي التي تنقل مواقف مضحكة أو مثيرة التقطها هواة بكاميراتهم الشخصية. وبعدما بدا أن فكرة كاميرات الهواة قد استنفدت ما لديها من طرح، انطلق المنتجون نحو زرع كاميرات برامجهم بين رجال الشرطة لنقل عمليات تعقب المطلوبين، على نمط مطاردة سيمبسون، حيث يرى المشاهد مناظر واقعية لعمليات دهم منازل المطلوبين واعتقالهم، وأحياناً قتلهم من دون تمثيل أو اصطناع.!!

وبرنامج "الكاميرا الخفية" الذي لا يزال ينتج إلى اليوم حول العالم بأساليب وتسميات مختلفة كان من أوائل البرامج التي وصلت إلى الشاشات العربية من أفكار التلفزيون الواقعي وأنتجت محلياً. ولم يكن بوسع العالم العربي إنتاج تلفزيون واقع يسجل عمليات الدهم والاعتقال أو المطاردات الساخنة، فانتظر حتى وصلت الصيغة الجديدة من هذه البرامج لتنتج عربياً بعد نجاح عارم لاقته في أوروبا وأمريكا.

تلفزيون الواقع بصيغته الجديدة، يذهب أبعد قليلاً من انتظار الصدفة أو زرع الكاميرا في مكان الحدث، إلى صنع الحدث نفسه وتعريض الناس له، ليتمكن المشاهد من أن يعيش معهم طوال الفترة، ويتعرف إليهم وإلى قدراتهم وردود أفعالهم التي يفترض أن تكون طبيعية واقعية.

> **المردود المادي لهذه البرامج يبرر بقاءها على الهواء، أما علاقتها بالمجتمع وأثرها فيه فتشبه قصة البيضة والدجاجة: أيهما قبل الآخر؟**

كان أول نجاح لهذه الفكرة مع برنامج أطلق عليه اسم "سرفايفر". وتقوم فكرته على أن تؤخذ مجموعة من الناس ليعيشوا في ظروف صعبة للغاية على جزيرة غير مأهولة تتابعهم الكاميرات على مدار الساعة. وبعد ذلك تطورت الأفكار إلى الدخول إلى أكاديميات صناعة النجوم، أو العيش داخل بيت "الرئيس".

دونالد ترمب، أكبر تاجر عقارات في مدينة نيويورك، هو قصة نجاح متميزة يستغلها اليوم بالمشاركة في إنتاج برنامج تلفزيون واقعي يدّعي أنه سيخرِّج نجوماً في المال والأعمال بدلاً من عالم الاستعراض الذي ينتظر خريجي البرامج الأخرى. فيقوم خلال البرنامج بتعريض مجموعة من الشباب الطموح إلى مواقف وظروف وتحديات واقعية في أسواق العمل، تختبر وتقيّم مقومات النجاح والتميز لديهم من وجهة نظر "ترمب". وعلى ضوء أدائهم، وفي كل حلقة يفصل من أخفق ويشجع من يستمر حتى يبقى واحد يكون خليفة ترمب المحتمل.!

النجوم أغلى

وللمشاهير صيت أقوى حين يشاركون في هذا النوع من التلفزيون لأن المشاهد يرى شخصيات يعرفها لكنه يشاهدها على "حقيقتها" للمرة الأولى. وإن كان ترمب وحده في برنامجه، فإن شركة إنتاج إيطالية جلبت مجموعة من أكبر نجوم إيطاليا ووضعتهم على جزيرة غير مأهولة ونقلت لمشاهديها حياتهم في فنون البقاء على قيد الحياة طوال أشهر متتالية.

والواقع في تلفزيون الواقع العربي هو أن انتشاره ومتابعته لم تصل بعد إلى الحد الذي وصلت إليه متابعة البرامج نفسها في أوروبا. فهناك تحفل الصحف اليومية بآخر ما حدث داخل هذه البرامج، وتتابع تطور العلاقات بين المشاركين، وتقوم بمقابلة أقربائهم وأصدقائهم خارج مواقع التصوير، في حين أن نشرات الأخبار التلفزيونية في إيطاليا تنقل أهم مستجدات المشاركين بين أخبارها. وعندما يخرجون من البرنامج يتم توظيف شعبيتهم مباشرة في برامج أخرى، أو يدخلون ميادين أخرى من عوالم النجومية مثل التمثيل أو الغناء وربما الأعمال.

إن المردود المادي على منتجي هذه البرامج يبرر بقاءها على الهواء بالنسبة لهم. فإضافة إلى مداخيلها من الإعلانات، تعتمد هذه البرامج إجمالاً على مداخيل المكالمات الهاتفية التي تستقبلها لتسجيل تصويت المشاهدين ومشاركتهم لمساندة صاحب الحظ من المشتركين ليتحدد بقاؤه أو مغادرته. ولكن هذا ليس المردود الوحيد، فهناك من يجادل بخصوص المردود الاجتماعي والأخلاقي الذي يترتب على دخول مثل هذه البرامج إلى البيت العربي، فيما ينصرف آخرون إلى الدعوة للاستفادة من دراسة هؤلاء الشباب الذين أصبحوا يشكلون الرقم الصعب في بنية المجتمع العربي، وأساليب تفكيرهم واتساع آفاقهم، فهي فرصة نادرة لمشاهدة جزء مهم من الواقع العربي الجديد.

ومثل قصة البيضة والدجاجة تبدأ قصة تلفزيون الواقع والمجتمع وأيهما يؤثر في الآخر ولا تنتهي. فالبعض يعزو الكثير من الأمراض الاجتماعية إلى تأثير التلفزيون وما يعرض فيه من هذه الصنوف، خاصة بعد إدمانه من قبل المشاهد الذي بات يقضي أوقاتاً أكثر أمام شاشاته من أي زمن مضى، في حين أن المدافعين عنه يقولون إن التلفزيون هو انعكاس للمجتمع وامتداد له يتأثر بما يعرض فيه بالمجتمع ورغباته وتطلعاته، فلا ينجح منه إلا ما يحوز على متابعة كبيرة من المشاهدين.

والحقيقة هي في مكان ما بين النظريتين، وفي الوقت الذي يجادل كل من منطلقاته الفكرية والأخلاقية، تظل فئة كبيرة من الشباب والشابات في المجتمع العربي تقضي وقتها أمام التلفزيون في البيت أو المقهى بعيداً عن "الواقع" الذي تنقله نشرات الأخبار وأقرب من "الواقع" الأكثر مرحاً وتسلية. ويتبعهم هذا الاهتمام إلى البيت والمدرسة وعلى الهاتف بين الأصدقاء والصديقات. فتجد الحوار حول مستجدات تلفزيون الواقع وأبطاله متداولة باستمرار على ألسنة الطلبة والطالبات بطريقة لافتة لمعلميهم وذويهم. وبدأت تلك الأخبار تتسلل إلى الصفحات الفنية في الصحف اليومية لتعكس مدى الاهتمام العام بها. والمؤكد هو أن الأرقام التي يتم رصدها لأعداد المتصلين بهذه البرامج تثير غبطة المنتجين وخيالهم بقدر ما تثير سخط المحتجين وغضبهم. ويبقى الواقع واقعاً..!



صيدلية المسنين

للمسن وضع صحي خاص به يختلف عمّا هو عليه حال الفتى أو البالغ. وفي مواجهة الأمراض التي يعاني منها المسنون، فإن أخذ عمره بالحسبان مسؤولية يتشارك في حملها الطبيب وذوو المريض.

الدكتورة ندى علي الباحسين تحدثنا عن خصوصيات العلاج الدوائي لكبار السن..

أشار تقرير منظمة الصحة العالمية لعام 1998م إلى أن هناك زيادة في أعداد المسنين (الذين تجاوزوا الخامسة والستين) في أغلب دول الغرب منذ بداية القرن الماضي، وذلك نتيجة للتحسن في الخدمات الصحية بشكل عام. وفي العالم الصناعي قلّت حالات العجز بين كبار السن بسبب أمراض القلب وبعض السرطانات بسبب برامج الوقاية والتثقيف الصحي.

وكما هو معروف فإن المسنين يعانون من أمراض مزمنة، وليس من المستغرب أن يكونوا المستهلكين الأكبر للأدوية. فقد أشارت دراسة أجريت في بريطانيا إلى أن 70% من كبار السن يستخدمون الدواء، وأن 40% منهم تناولوا دواء أو أكثر خلال الـ 24 ساعة. وتتنوع الأدوية المتناولة من قبل هذه الفئة، فهناك 32% يستخدمون أدوية القلب والأوعية الدموية، 24% أدوية الجهاز العصبي، 10% أدوية عضلية هيكلية، 10% أدوية للجهاز الهضمي، و7% أدوية التنفس.

> **الإلمام بالأساسيات وأهداف العلاج الدوائي للمسنين يؤدي إلى استخدام أفضل للدواء**

أما أكثر الأدوية شيوعاً فهي المدرات (المبيلات)، المسكنات، المنومات، مضادات القلق، مضادات الروماتيزم. وقد يصل عدد الأدوية المستخدمة إلى ثمانية دفعة واحدة.

ويجد كبير السن صعوبة في أداء نشاطاته اليومية والاجتماعية مثل المشي والعناية الشخصية، إلا أن اندماجه مع الجو العائلي يساعد كثيراً على تقليل حجم الهبوط النفسي الذي يعاني منه. وأكدت دراسة أجريت في البحرين أن كبار السن الذين يعيشون مع العائلة هم أكثر استقراراً، حيث إن الجو العائلي يوفر النشاط الدائم من قبل أفراد العائلة والأصدقاء والزائرين.

أساسيات الرعاية الصيدلانية للمسنين

نتيجة للتقدم في العمر تحدث تغيرات فيزيولوجية معينة، حيث تقل كتلة الجسم، ويقل الماء فيه، وتزداد الدهون، ولذا فإن الأدوية التي تتوزع في الماء تكون أكثر تركيزاً مع التقدم بالعمر، في حين أن الأدوية الذائبة في الدهون يكون حجم توزيعها أعلى، ويكون بالتالي مستواها في الدم أقل. وهناك تغيرات تحدث لدى كبار السن في القناة الهضمية، حيث تقل الحركة المعدية المعوية وتقل الإفرازات الهضمية ويقل حجم الكبد وتتغير الوظيفة الكلوية. هذه التغيرات لها تأثير على امتصاص الأدوية واستقلابها، واتحادها مع البروتين، وكذلك طرح الأدوية وحركتها في الجسم.

إن الإلمام بأساسيات وأهداف العلاج الدوائي للمسنين وتقديم الرعاية الصيدلانية يؤدي إلى استخدام أفضل للدواء. لذلك لا بد من تجنب استخدام أدوية غير ضرورية للمسنين وأن يوصف لهم أقل ما يمكن من الأدوية (Avoid Polypharmacy) وأن نضع نصب أعيننا الأسئلة التالية:

- هل هناك حاجة لاستخدام الدواء؟
- هل هناك طريقة بديلة للعلاج؟
- لا يوصف دواء لكبير السن لمجرد تجربة دواء جديد أو لإعطائه عينة مجانية أو لأن كبير السن طلب ذلك الدواء.
- إن كبار السن هم أكثر عرضة للتأثر بالمضاعفات الجانبية، خاصة أدوية التركيز، الاختلاط الذهني، نقص ضغط الدم الانتصابي، وهذه التأثيرات الجانبية تلاحظ مع العديد من الأدوية.

وعليه إذا كان كبير السن يعاني مثلاً من ارتفاع بسيط في ضغط الدم فلا بد في بادئ الأمر من استخدام طرق أخرى غير الأدوية. وكذا الحال مع المنومات غير الضرورية. وهناك بعض الاحتياطات تغني عن الأدوية كتفريغ المثانة قبل النوم مباشرة لتجنب ذلك أثناء الليل، والابتعاد عن المنبهات في الليل ومحاولة توفير مكان هادئ ومظلم لينعم بنوم مريح وهادئ من دون الحاجة لاستخدام المنومات.

تأثير العلاج على نوعية الحياة: إن هدف علاج كبار السن ليس إطالة عمرهم، لكن تحسين نوعية الحياة. وللوصول إلى هذا الهدف يكون الاختيار الصحيح لنوع العلاج الذي يناسب كبير السن مهماً جداً. ومثال على ذلك، من الأفضل بالنسبة لكبير السن المصاب بالتهاب مفاصل شديد أن يتم استبدال الورك وليس وصف أدوية مسكنة مضادة للالتهاب غير ستيرويدية بتأثيراتها المعاكسة.

معالجة الأسباب وليس الأعراض: يعتبر علاج الأعراض من دون تشخيص محدد عادة سيئة، فقد يشتكي الشخص من أعراض سوء الهضم، لكنه في الحقيقة يعاني من الذبحة الصدرية، لذلك يجب البحث عن السبب الحقيقي ثم وصف العلاج المناسب لكل حالة.

التاريخ الدوائي والأمراض المصاحبة: يجب التأكد من الملف الطبي لكبير السن، حيث يحوي المعلومات حول حالة المريض الحالية والسابقة المتعلقة بالمعاناة من الأمراض وأنواع الأدوية التي تناولها ولا يزال. فقد يعاني كبير السن من أمراض متعددة في آن واحد مثل الفشل القلبي، القصور الكلوي، عدم انتظام الوظيفة الكبدية، إضافة إلى احتمال المعاناة من ارتفاع ضغط الدم والسكري مما يستدعي استخدامه لأكثر من نوع من الأدوية. لذلك يجب معرفة التاريخ الدوائي للمسن والأدوية التي تسبب الحساسية لديه أو تلك التي لا يتجاوب جسمه معها لتفادي التداخلات الدوائية الخطيرة. وكذلك التأكد من مراقبة رد فعل المريض للدواء ومراقبة الآثار الجانبية بشكل دائم طيلة فترة العلاج.

> يعاني كبار السن عادة من أمراض متعددة في وقت واحد، ولا بد من تجنب استخدام الأدوية غير الضرورية

اختيار الدواء ومعايرة الجرعة: عند اختيار دواء لكبير السن لا بد من معرفة ما هي الأمراض التي يعاني منها وما هي الأدوية التي يستخدمها. عندها تكون عملية اختيار الدواء حكيمة بحيث يتم اختيار الدواء ذي التأثيرات المعاكسة الأقل وتلك الملائمة لحالته. ومن جهة أخرى تكون جرعة كبير السن عادة أقل من جرعة البالغ. ومن الجدير بالذكر أن أغلب التفاعلات المعاكسة للأدوية التي قد تحدث عند كبار السن لها علاقة بالجرعة، وبالإمكان تلافيها. لذلك لا بد من البدء بأقل جرعة ممكنة وأقل عدد من الجرعات ثم زيادتها تدريجياً إذا اقتضت الحاجة لذلك.

اختيار شكل الدواء وطريقة تعبئته: يلاحظ أن كبار السن يفضلون عادة الأشربة والمعلقات أو الحبوب الفوّارة أكثر من الأقراص أو الكبسولات، وذلك لسهولة بلعها. كما نلاحظ أن العديد من كبار السن الذين يعانون من التهاب المفاصل يجدون صعوبة في فتح العلب الدوائية المقاومة للعب الأطفال، لذا لا بد من صرف أدويتهم بأوعية سهلة الفتح واضحة التعليمات ومكتوبة بخط كبير.

أهم الأمراض التي يعاني منها كبار السن

- **هشاشة العظام:** وهي قلة في كثافة العظام، وتكون أوضح بعد انقطاع الدورة الشهرية عند المرأة. وأهم مضاعفاتها: كسر عظم الحوض، خاصة لدى النساء، كسر الفقرات والرسغ. ولا يوجد علاج طويل الأمد وآمن لهذه المشكلة، لذلك تبقى الإجراءات الوقائية هي الأهم. التمارين الاعتيادية كالمشي من أفضل الوسائل وطرق الوقاية. وللتوقف عن التدخين دور مهم، كما أن دوره يكون قبل سن اليأس، حيث تقل حالات كسر الورك بمعدل 10%. والعلاج بالهورمونات مفيد بعد توقف الدورة مباشرة، أما وصف فيتامين (د) والكالسيوم فهو غير مفيد إذا لم تكن هناك حاجة لذلك. واخيراً استخدم علاج دايفوسفونيت في العلاج وأعطى نتائج جيدة.

- **التهاب المفاصل:** التهاب المفاصل العظمي، النقرس، التهاب المفاصل الروماتزمي وغيرها.. المسكنات هي الأدوية الشائعة في العلاج، خاصة مضادات الالتهاب غير الستيرويدية.

- **ارتفاع ضغط الدم:** يعتبر عامل خطورة للإصابة بأمراض القلب، ويفضل اللجوء إلى العلاج غير الدوائي أولاً كتقليل الوزن وتقليل كمية الملح في الطعام وممارسة التمارين الرياضية مثل المشي والتوقف عن التدخين. وفي حال الحاجة إلى العلاج الدوائي تكون المدرات العلاج المقترح. وقد يضاف إليه أنواع أخرى من خافضات الضغط حسب نوع الحالة.
لقد أشارت دراسة أجريت في المملكة العربية السعودية وبالتحديد في منطقة أبها، إلى أن تخفيض السمنة الوسطية بين كبار السن تقلل من خطورة ارتفاع ضغط الدم والسكري، لذلك كان التأكيد على محاولة تغيير نمط الحياة لتجنب الإصابة بهذه الأمراض التي لها مضاعفات معروفة.

- **سلس البول:** من المشاكل الشائعة لدى كبار السن وتحدث نتيجة لضعف في العضلات.

- **الإمساك:** مشكلة واسعة الانتشار بين المسنين، حيث تقل الحركة المعوية بتقدم العمر، وكذلك قلة تناول بعض الأغذية والماء. وهناك بعض الأدوية إذا تناولها المسن قد تفاقم المشكلة مثل مضادات الهستامين، مضادات الكآبة، مضادات الكولينية. وينصح بالإكثار من تناول الخضر والفاكهة وزيادة الألياف والانتظام في الذهاب إلى الحمام.

- **سوء التغذية:** تشير الدراسات إلى أن كمية الطاقة والمغذيات تقل مع التقدم بالعمر، وهذا يضع هذه الفئة في خطورة الإصابة بسوء التغذية حتى في الدول المتقدمة. وكما هو معروف ينتج عن سوء التغذية الهزال، فقر الدم، أمراض القلب والكآبة. وقد أشارت دراسة أجريت في السويد إلى أن 28% من كبار السن المتوفين في المستشفى يعانون من سوء التغذية.
وفي الوقت الذي تقل فيه الحاجة للسعرات الحرارية بتقدم العمر، إلا أن الحاجة للسوائل والبروتين ولأغلب الفيتامينات والمعادن تبقى نفسها أو قد تزداد. ومما يساعد على تفاقم مشكلة سوء التغذية للمسنين عوامل أخرى منها تحضير الطعام، تسوّق المواد الغذائية (للذي يعيش بمفرده)، صعوبة تقطيع الطعام ومضغه بسبب مشاكل الأسنان أو أن الأسنان غير مثبتة بشكل جيد وعوامل فيزيولوجية أخرى. ولما كانت كمية الحديد المأخوذة تقل مع العمر، يزداد فقر الدم عند الأشخاص الذين لديهم الاستعداد والذين لا يعتنون بنوعية الغذاء المتناول.

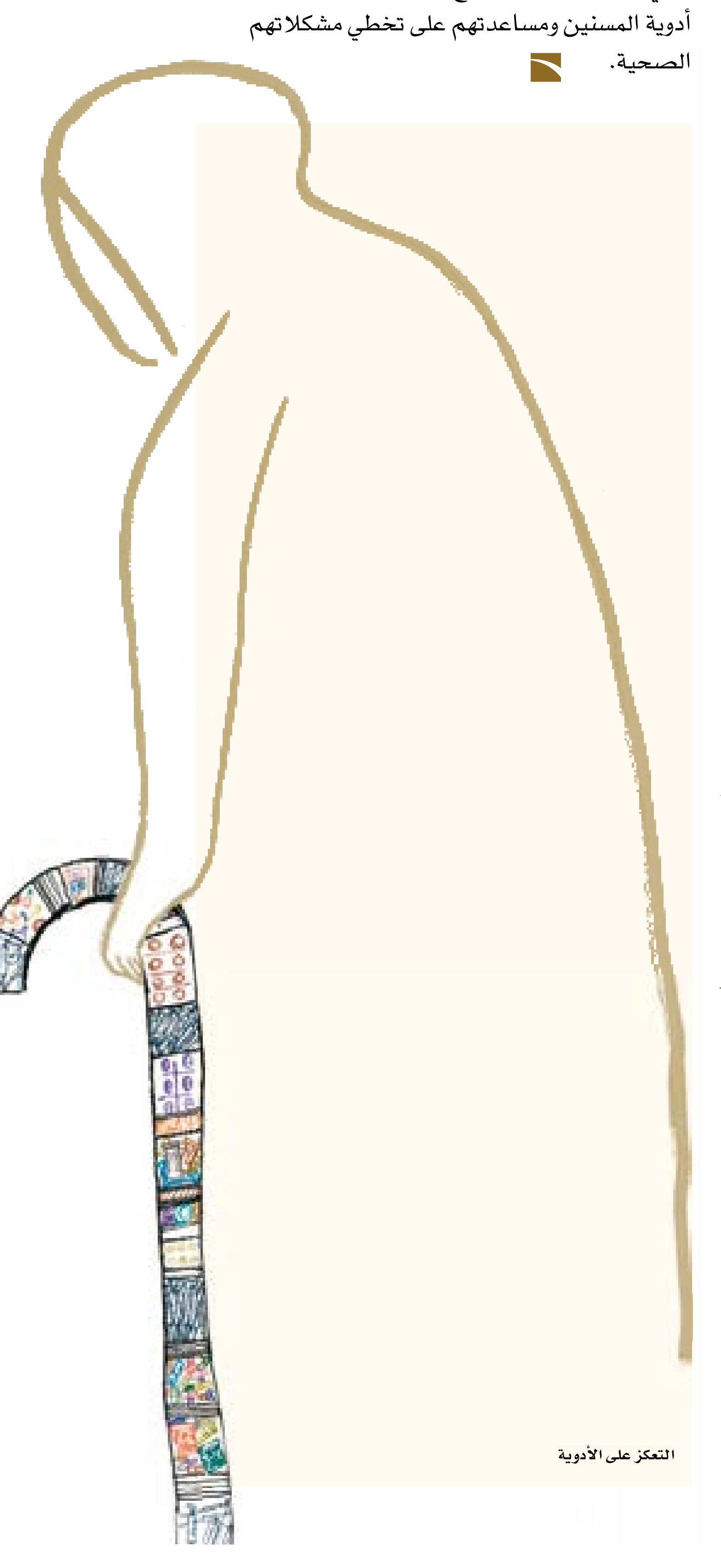
- **الخرف:** وهو تدهور تدريجي للقابلية الفكرية، تصاحبه تغيرات في المزاج، ويعتبر مرض الزهايمر من أهم أمراض الخلل الوظيفي المعرفي عند الكبار والذي يبدأ بالتدريج ويتطور ببطء، ويعتبر النسيان من أهم علاماته. وهناك الخرف متعدد الاحتشاءات والشائع لدى كبار السن الذين يعانون أيضاً من ارتفاع ضغط الدم أو السكتة. يتميز هذا الاضطراب بتغيير في المزاج وتقلقل في العواطف.

- **الباركنسونية:** وهو مرض شائع لدى كبار السن ويتميز بالرعاش وبطء الحركة. ويتأثر كبير السن ببعض التأثيرات المعاكسة لأدوية الباركنسونية أكثر من الأصغر سناً بسبب نقص ضغط الدم الانتصابي الذي يحدث للكبار الذين يتناولون علاج الليفودوبا.

وهكذا نجد أن فئة المسنين تعتبر فئة متغايرة في الصفات البايولوجية وفي نمط الحياة والأمراض التي يشتكي منها هؤلاء، وبالتالي الأدوية التي يتناولونها. ويلاحظ أن العلاج المتعدد الأنواع من الأدوية يؤدي إلى عدم الالتزام باستخدامها، وأن الالتزام الضعيف بدوره يؤدي إلى فشل خطة العلاج. لذلك لا بد من مراقبة أدوية المسنين ومساعدتهم على تخطي مشكلاتهم الصحية.

المراجع:

1. Al-Nasir F, Al-Haddad M.K., Level of disability among the elderly in institutionalized and home-based care in Bahrain. Mededteaern. Vol. 5, issue 2, 1999 p 247-254.
2. Essential pharmacology. Smith and Reynard. Principles of prescribing: drug therapy in Pediatrics and Geriatrics. Page 608.
3. Clinical Pharmacy and Theraputics. Roger Walker and Clive Edwards. page 107.
4. www.who. int. World Health Day "Active aging makes the difference", 1999.



التعكز على الأدوية

صورة شخصية

مهندسة معمارية سعودية، متخصصة في تاريخ العمارة الإسلامية. اختارت التدريس الجامعي "لتعليم الجيل الجديد كيف يعي قضاياه". إنها الدكتورة هويدا نواف الحارثي، الأستاذة في الجامعة الأمريكية في بيروت، التي تعرض لنا الزميلة ناجية الحصري جانباً من صورتها الشخصية وآرائها في قضايا التراث المعماري وأطر تحديثه.

هويدا الحارثي..



> "..أنا لا أخاف على جذورنا العربية من الاندثار، طالما أن للإنسان العربي عقيدته وشخصيته.."

لم تتمكن سنوات الغربة عن بلادها من النيل من قناعاتها. فالدكتورة هويدا نواف الحارثي تبدو متصالحة مع نفسها ومع المجتمع من حولها. لم تنتقص الغربة شيئاً من القيم الروحية والثقافية التي شبّت عليها، وعرفت في الوقت نفسه كيف توازن هذه القيم مع التدريس في قاعات الجامعة الأمريكية في بيروت، حيث يستمع الطلاب يومياً إلى محاضراتها حول التصميم المعماري وتاريخ فن العمارة.

ولا تنفي الدكتورة الحارثي الثمن الذي دفعته لإيجاد هذا التوازن الداخلي في حياتها، التي عاشت بداياتها في مدينة الطائف، حيث تلقت تعليمها حتى الثانوية العامة.

كانت في السابعة عشرة من عمرها حين غادرت المملكة العربية السعودية للدراسة في كلية أوريغون للهندسة المعمارية، حيث نالت شهادة البكالوريوس. ولم تجب هذه الشهادة عن كل أسئلتها، خاصة ذاك السؤال الذي ظلّت تطرحه على نفسها: إذا كانت الهندسة المعمارية نتاجاً حضارياً للشعوب والأمم، فكيف يتفاعل مجتمعنا العربي والإسلامي مع حضارته في هذا المجال؟ وهل أن العمارة فيه تعبر فعلاً عن هذه الحضارة؟

دفعها هذا السؤال إلى الانتقال إلى معهد ماساتشوسيتس للتكنولوجيا لدراسة التصميم المعماري في المجتمعات الإسلامية، ونالت من المعهد شهادة الماجستير، ومن ثم إلى جامعة هارفرد المرموقة، حيث حازت درجة الدكتوراه بعد تخصصها في دراسة تاريخ العمارة الإسلامية وتحديداً عصر المماليك في مصر وسورية.

الاستقرار أكاديمياً

بين سنوات الماجستير والدكتوراه، كانت الأستاذة الحارثي قد عادت إلى المملكة لفترة وجيزة، حيث عملت لبعض الوقت في الهيئة العليا لتطوير مدينة الرياض، وكانت المرأة الوحيدة في هذا المجال. وبعد حصولها على الدكتوراه ارتأت توظيف علمها وطاقتها في المجال الأكاديمي، وسنحت لها الفرصة في عام 1994م.

كانت الجامعة الأمريكية في بيروت تعيد بناء قدراتها التعليمية بعد الحرب، وتخطط لبناء كلية للفنون الجميلة. ولكن تنفيذ المشروع تأخر، فتحولت الدكتورة الحارثي إلى التعليم في كلية الهندسة المعمارية ولا تزال منذ عام 1997م.

وتأسف الدكتورة الحارثي لعدم وجود اهتمام كاف في الجامعات العربية باختصاص تاريخ العمارة العربية والإسلامية، في حين أنه يوجد في الولايات المتحدة نحو سبعة أقسام جامعية متخصصة في العمارة الإسلامية، غير العدد الكبير من الجامعات التي تضم أقساماً متخصصة في الدراسات الإسلامية والشرقية.

بين الدقة والمرونة

ونتيجة لسنوات الدراسة الطويلة، تكونت لدى الدكتورة الحارثي جملة آراء حول العمارة الإسلامية في البلاد العربية ماضياً وحاضراً. ولعل العنوان العريض لهذه الآراء يكمن في رفض التحجر والانحباس في الماضي، كما ترفض فكرة الانسلاخ عنه.

فما يسمّى بـ "العمارة الإسلامية" هو في نظرها تعبير شامل يضم تاريخاً يمتد من أفريقيا إلى حدود الصين، ويجب أن يُفهم على أنه نتاج حضارات متعددة تعاقبت على المجتمعات وطبعتها بطابعها الخاص، كما تأثرت بأسلوب عيش الشعوب المختلفة في هذه المجتمعات.

تضيف: "العمارة في أي مكان هي جزء من تاريخه وتراثه. لكن هذا لا يعني أن التراث كتلة جامدة، بل متحركة تتغير يومياً. وهي تتحرك إما صعوداً نحو التطور، أو نزولاً نحو الانحطاط. المطلوب منّا تحديث تراثنا، وعلينا أن نعي أن استيراد المفاهيم والمقاييس الغربية من دون الانطلاق من جذورنا يدفعنا إلى إنتاج فني وعمراني مصطنع. فعلينا، كعرب، أن نحرر أنفسنا من نقطة ضعفنا تجاه تراثنا حين نبحث في تطويره لكي يصبح مشابهاً لنا، لا مشابهاً لما هو قائم في أمريكا وأوروبا".

لكن تحديث التراث يتطلب هوية محددة. والسؤال الذي تعتقد الدكتورة الحارثي أنه مطروح بقوة هو: "من نحن؟ فهناك صراع على الهوية. لقد شهدنا فترة في تاريخنا الحديث حصل فيها تطور سريع، لكنه كان تطوراً غريباً ومتغرباً. علماً أن التطور لا يعني التغريب. والآن هناك العولمة لزيادة الارتباك. فهل العولمة هي مظلة اقتصادية أم ثقافية؟ وأين موقعنا منها؟ إن هذا السؤال ليس مطروحاً عند العرب وحدهم، بل أيضاً في مجتمعات مختلفة خارج أوروبا الغربية وأمريكا، كاليابان مثلاً".

وتستدرك الدكتورة الحارثي بالإشارة إلى أن الأمر ليس سلبياً إلى الحد الذي يعتقده البعض. "إنه جزء من التغيير الذي تمر به المجتمعات، ومرّت به في عصور سابقة مختلفة، متأثرة بالحروب والنزوح وتشكيل الامبراطوريات عبر التاريخ.

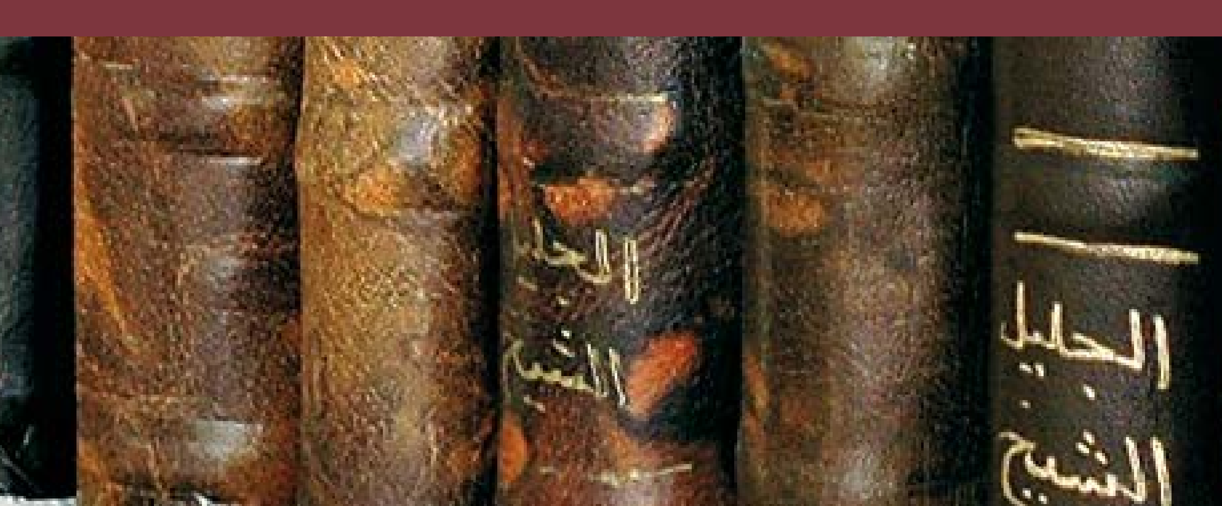
وتضرب مثالاً على ذلك العمارة العثمانية التي لم تنشأ بمعزل عمّا هو حولها. فحين احتل العثمانيون اسطنبول كان للمدينة تراث بيزنطي قديم. وحين أرادوا للمدينة أن تمثل ثقافتهم استعانوا بفنانين من مصر وإيطاليا وآسيا. فحصل مزيج من الفنون تكرّس في السنوات الأولى لنشأة الامبراطورية العثمانية، ثم تميّز بشخصية مستقلة استمرّت لأربعة قرون، وصار يعرف بفن العمارة العثماني. وصار الآخرون من بعدهم يتأثرون بهذا الفن ويضيفون إليه من منظوم حضارتهم. وهكذا فإن فن العمارة هو عبارة عن تداخل ثقافي.

وتبدي الدكتورة الحارثي ثقتها بديمومة تراثنا العربي والإسلامي قائلة: "أنا لا أخاف على جذورنا العربية من الاندثار، طالما أن للإنسان العربي عقيدته وشخصيته. فالإنسان مرتبط بماضيه. قد يبتعد عنه، ولكن لا يمكنه الانفصال عنه نهائياً". ولذا، فهي تعتقد "أن ما نعيشه اليوم من ابتعاد عن تراثنا هو حال مؤقتة لا يمكنها أن تستمر. فالعولمة أوجدت رد فعل عكسياً، وجعلت الكثيرين أينما كانوا في العالم يتمسكون بتراثهم أكثر فأكثر، وهذا ما أوجد بدوره مشكلة جديدة. فليس المطلوب أن نتحجر في القرون الماضية، ولا أن نقلد غيرنا من باب ادعاء التطور والحداثة، بل أن ننظر إلى داخلنا ونحدد من نحن وما هو موقعنا من التحديات المطروحة. فالهروب من السؤال يقودنا إما إلى غيرنا، وإما إلى السجن ضمن "كليشيهات"، وفي الحالتين لن نصل إلى أي مكان.!

أخيراً، حول ما تقوم به الدكتورة الحارثي من خلال التعليم وما تتوخاه منه، تقول: "إنه تدريب الجيل الجديد على أن يعي قضاياه، وأن ينظر إلى الأمور نظرة نافذة، فنحن لا نملك الأجوبة، إنما نضع الطلاب على المسار ليحترموا أنفسهم، وإلا طغت فكرة الآخر عنّا. الفكرة البارزة في الطريقة التي يعاملنا بها، ويجعلنا من خلالها نفقد احترامنا لأنفسنا".

مصير المكتبات الخاصة

المكتبة الخاصة.. هذه الملكية التي تحتل بعض جدران المنزل تبقى أغلى ما فيه على قلب صاحبها، لما لها من فضل في صياغة شخصيته ومكانته المهنية والثقافية وحياته ككل. لكن مصير المكتبة الخاصة لا بد أن ينفصل عن مصير صاحبها في وقت ما. فما هو مآلها؟ الانضمام إلى مكتبة عامة أكبر، البيع، البعثرة، أم الدمار؟.. احتمالات كثيرة ومختلفة يعرضها محمد الفوز في هذا التقرير.



لما سُئل العقّاد: "لماذا تقرأ؟"، أجاب: "لأن حياة واحدة لا تكفي". وهو أيضاً من قال: "إن القراءة تضيف إلى عمر صاحبها أعماراً أخرى، هي أعمار الكتّاب والمفكرين والفلاسفة الذين نقرأ لهم". والعقاد كما هو معروف لم يواصل تعليمه النظامي، فقد انقطع عن الدراسة في مراحلها الأولية. ومن خلال اجتهاده في تثقيف ذاته كوّن واحدة من أهم المكتبات الخاصة بشهادات المثقفين والأدباء الذين عاصروه. فإلام آلت هذه المكتبة الثرية بشتى المعارف التي حازها العقاد في مسيرة اتسمت بالمطالعة والبحث؟

إن الاهتمام بتأسيس مكتبة خاصة ظاهرة ثقافية عامة لا تختص بها أمة دون أخرى، بل نلحظها عند كل رجال العلم والأدب. والملاحظ أن كل متخصص أو مهتم بشأن معين يجمع في مكتبته الموضوعات والعناوين الداخلة ضمن إطار تخصصه، مضيفاً إليها موضوعات إثرائية في مجالات عامة. ويحرص كبار المتخصصين على أن يجمعوا في مكتباتهم نفائس الكتب والمخطوطات النادرة التي طالتها أيديهم خلال دراساتهم وأبحاثهم.. فترتقي مكتباتهم في كثير من الأحيان إلى مستوى يجعلها قبلة الطلاب والباحثين، وتصبح رابطاً يجمع العلماء ببعضهم.

أما مصير هذه المكتبات الخاصة بعد وفاة أصحابها فقد يكون أحياناً مأساة مثيرة لحساسية التاريخ. فما أنجزه الأقدمون ببطء وجهود مضنية استمرت لأجيال قد يضيع في لحظة عبثية، وفي المقابل قد يُحفظ بطريقة لائقة أو أفضل من سابقتها. فالورثة هم غالباً من يحدد مصير المكتبة الخاصة التي حازها والدهم أو جدهم. وإن حافظ البعض عليها لأسباب وجيهة، فهناك من لا يرى فيها إلا وسيلة للتفاخر ودليل وجاهة ومكانة اجتماعية مما يوطد العلاقة بها.. شكلياً فقط. ونتذكر هنا على سبيل المثال قصة العلاّمة الشيخ حمد الجاسر مع ورثة إحدى المكتبات الخاصة في الحجاز، عندما احتاج مخطوطة كتاب "بلاد العرب" للأصفهاني الذي قام بتحقيقه مع الدكتور صالح العلي، فقد رفض ورثة تلك المكتبة تقديم الكتاب للجاسر أو حتى إعارته إياه لنسخه وإرجاعه.. وذلك رغم المكانة الكبيرة التي كانت للشيخ في تحقيق التراث والحياة الثقافية في الجزيرة العربية.

إننا لن نقوم هنا بحصر مصائر المكتبات الخاصة.. ولكننا سنعرض بعض النماذج التي تدل على ما يمكن أن تنتهي إليه هذه الكنوز المعرفية.

أولاً: إهداؤها إلى مكتبات أكبر

وللمكان في هذا المجال خصوصية تلعب دوراً مؤثراً. فمعظم المكتبات الخاصة ذات الطابع الديني يُهدى إلى المساجد أو مواقع المشاعر المقدسة. وما يتعلق بالتربية والتعليم يُهدى إلى المدارس أو الجامعات أو المعاهد التدريبية. أما المكتبات الخاصة التي تُعنى بالبحوث والمطالعات الثقافية والوثائق والأرشيفات الصحافية فتهدى إلى المراكز الثقافية والمكتبات العامة التي يتجمع فيها المهتمون..

ففي الماضي، عكف العلامة ابن النفيس سنوات على تدوين موسوعة "الشامل في الصناعة الطبية" التي ما زالت حتى يومنا هذا أكبر موسوعة علمية في التاريخ الإنساني يكتبها شخص واحد. وقد وضع ابن النفيس مسوّداتها في 300 مجلد، بيّض منها 80 مجلداً حتى وافته المنية وهو في الثمانين من عمره عام 687هـ. وكان قد أوصى بالمجلدات الثمانين مع مكتبته وداره وأمواله إلى البيمارستان (المستشفى) المنصوري، حيث كان رئيساً لأطباء مصر.

كذلك أهدى الحاكم السابق لـ "دولة حلب" محمد مرعي باشا مكتبته إلى دار المكتبات الوقفية الإسلامية في المدينة. وقد أهدى المهندس علي رضا آل معين مجموعة خرائط ورسوم جغرافية وأثرية لهذه المكتبة التي ضمّت بدورها إلى مكتبة الأسد الوطنية بعد إنشائها في عام 1984م.

وتتكرر هذه النماذج من زمن إلى آخر. فنجد أن مكتبة الاسكندرية أُهديت مجموعة ضخمة من المكتبات المهمة ومنها مكتبة الكاتب الشهير محمد حسين هيكل صاحب أول رواية في الأدب العربي. وتضم مكتبته مجموعة ثمينة من الوثائق التاريخية التي كان يمتلكها، خاصة حول تلك الفترة العصيبة التي مرّ بها الوطن العربي في العقود الأولى من القرن العشرين. كذلك أهدى ورثة المفكر الراحل الدكتور عبدالرحمن بدوي مكتبة والدهم التي تضم نحو 12 ألف كتاب في الفلسفة والتراث والنقد الأدبي الحديث إلى مكتبة الاسكندرية التي تحظى بمكانة مهمة عند المثقفين على مستوى العالم لما تضمه من التراث العالمي، وقد حظيت بإهداءات خاصة كثيرة لا يتسع المجال لتعدادها.

أما دار الكتب والوثائق المصرية فقد حظيت بالحصة الكبرى من الإهداءات ولا تنافسها في هذا المجال أي مكتبة عامة أخرى. فقد خصّها أكثر من سبعين عالماً وأديباً ومثقفاً ورجل دولة وشاعراً بمكتباتهم الخاصة. ومنها مكتبة الإمام الشيخ محمد عبده التي تعتبر بالغة الأهمية في تاريخ مصر والعالم الإسلامي لما تحتويه من كتب ثمينة في الفكر الإسلامي والتاريخ والعلوم الشرعية، ويبلغ عدد كتبها 923 كتاباً. ومكتبة المؤرخ الشهير عبدالرحمن الرافعي التي ضمّت 2998 كتاباً في التاريخ والعلاقات ما بين الشعوب والآداب. ومكتبة وزير الاقتصاد المصري الأسبق الدكتور حسن عبّاس وضمّت 11 ألف كتاب في الاقتصاد الدولي والسياسة ومختلف العلوم. ومكتبة الكاتب الساخر محمد عفيف التي احتوت على علوم اللغة وآدابها وفنون كثيرة اعتنى بها الكاتب في حياته (2042 كتاباً)، ومكتبة الدكتورة عائشة عبدالرحمن الملقبة بـ "بنت الشاطئ" التي كتبت كثيراً في التاريخ الإسلامي والتراث وعلوم الشريعة (3700 كتاب) وأخيراً وليس آخراً مكتبة الكاتب الكبير توفيق الحكيم..

أما الجامعات، مقصد الأكاديميين وطلاب العلوم، فقد حظيت بالكثير من المكتبات الخاصة بالكتّاب والأساتذة والباحثين. فالدكتور يحيى حقي مثلاً أهدى مكتبته التي تضم نحو 10 آلاف كتاب إلى جامعة المنيا بصعيد مصر. كذلك أهدى كل من لويس عوض وإبراهيم المازني وحسين مؤنس مكتبته الخاصة إلى كلية الآداب في جامعة القاهرة. وتلقّت مكتبة الجامعة الأمريكية في القاهرة مكتبتي المهندس المعماري حسن فتحي والدكتور سليم حسن. أما مكتبة الجامعة الأمريكية في بيروت فقد كان عمودها الفقري المكتبة الخاصة التي امتلكها نعمة يافث وضمّت نحو 40 ألف كتاب. حتى أن الجامعة أطلقت اسمه على مكتبتها المركزية امتناناً لهذه الهدية السخية. وبشكل عام يمكن القول إن المكتبات الجامعية في بلاد الشام أُهديت من المكتبات الخاصة ما يصعب حصره بسبب النشاط الكبير في مجالات التعليم والتأليف والنشر والحياة الثقافية عموماً منذ أكثر من قرنين من الزمن.

ومكتبات السعودية

مثّل انتشار المكتبات الخاصة في المملكة العربية السعودية والجزيرة عموماً حالة شغف بالمطالعة تعويضاً عن تأخر انتشار التعليم. فاقتنى الكثيرون المكتبات الخاصة للتثقيف الذاتي.. ولاحقاً أهدي العديد منها إلى مكتبات مركزية.

ولأن مكتبة الملك فهد الوطنية تعتبر المكتبة الكبرى في المملكة، فقد حظيت باهتمام خاص من قبل أصحاب المكتبات الخاصة. ووصل عدد ما انتقل إليها من هذه المكتبات إلى سبع وعشرين مكتبة تقريباً.

والمكتبات التي تم إهداؤها إلى مكتبة الملك فهد الوطنية ثماني عشرة، وهي: مكتبة الشيخ محمد بن عبدالعزيز المانع وتضم 5480 كتاباً ونحو ألف وثيقة وسجل من المراسلات والبرقيات مع الملوك والعلماء. وأهم ما يميزها هو كثرة ما تحويه من نوادر المطبوعات السعودية والعربية في علوم الشريعة والتاريخ وما بها من تعليمات كتبها المانع بيده، إضافة إلى مخطوطات للمانع نفسه.

ومكتبة الشيخ عبدالله بن خميس التي يبلغ عدد كتبها نحو 7740 كتاباً، من ضمنها نوادر المطبوعات السعودية والعربية وما له صلة بتاريخ الجزيرة العربية وآدابها وجغرافيتها، إضافة إلى أوائل الدوريات السعودية والعربية الكاملة مثل "الجزيرة" و"العرب" و"الرسالة".



ومكتبة الشيخ عثمان بن حمد الحقيل وتعد من أكبر المكتبات الخاصة المهداة إلى مكتبة الملك فهد الوطنية بمجموع كتب بلغ 7400 كتاب في الدين والتراث العربي.

كذلك أُهديت إلى مكتبة الملك فهد الوطنية المكتبات الخاصة العائدة إلى كل من الأديب محمد حسين زيدان (4420 كتاباً)؛ وفوزان بن عبدالعزيز الفوزان (4470 كتاباً) الذي كان قد أوصى بذلك قبيل وفاته رحمه الله؛ والدكتور إبراهيم السلّوم (4890 كتاباً)؛ والرسام محمد موسى السليم وهي غنية بكتب التاريخ والآداب والفنون الجميلة والطوابع؛ والأديب محمد منصور الشقحاء (8960 كتاباً)، والشيخ عبدالله بن عبدالعزيز العنقري، والشيخ عبدالله بن عمر آل الشيخ، والشيخ عبدالله بن محمد النصبان، والشيخ حسين بن عبدالله الجريسي، ورجل الأعمال سليمان الصالح، والمؤرخ سعد الجنيدل، والوراق أحمد عيسى كلاس (5000 كتاب)، والمفكر المعروف عبدالله القصيمي.

كما اشترت مكتبة الملك فهد الوطنية تسع مكتبات خاصة، وهي مكتبات: جميل أحمد أبو سليمان، سعد بن ناصر بن محمد عبدالله الخميس، الشيخ محمد بن عبدالرحمن بن عقيل الظاهري، فوزان بن سابق الفوزان، عبدالسلام هارون، محمد عوض محمد، المستعرب الأمريكي بيلي وايندر، محمد العباس القباح، والدكتور ناصر الرشيد.

من جهة أخرى، حظيت الجامعات السعودية بمجموعة من المكتبات الخاصة. فقد أُهديت جامعة الملك سعود في الرياض مكتبة العلامة الزركلي، ومكتبة الأديب الشاعر محمد بن أحمد العقيلي. كذلك حصلت المكتبة المركزية في جامعة الملك فيصل في الأحساء على عدد من المكتبات الخاصة ومنها مكتبة الدكتور محمد صالح، ومكتبة السيد أحمد الهاشم، ومكتبة الشيخ محمد بن عبدالله العبدالقادر التي تضم مجموعة مخطوطات أهداها ورثة الشيخ للجامعة. كما تلقت الجامعة من زوجة الدكتور عاطف قادوس مكتبة زوجها ذات المواضيع المتنوعة.. وحظيت جامعات أخرى بمجموعات لا بأس بها من المكتبات الخاصة، مثل جامعة الإمام محمد بن سعود وجامعة أم القرى وجامعة الملك عبدالعزيز، الأمر الذي يؤكد ثقة الأدباء والمفكرين والمثقفين عموماً بهذه الصروح العلمية.

الأندية الأدبية في السعودية نالت نصيبها أيضاً من عطاءات المثقفين في هذا المجال. ومن أشهر الأمثلة التي يمكن ذكرها هنا النادي الأدبي في مكة المكرمة الذي أهداه ورثة الأديب والشاعر حسين عرب مكتبته الخاصة التي تضم آلاف المجلدات العربية في الأدب والتاريخ والعلوم الشرعية.

أما ورثة الدكتور توفيق التميمي فقد أهدوا مكتبته، بحكم التخصص، إلى المستشفى التعليمي في الخبر.

ثانياً: بيع المكتبات الخاصة

الرئيس المصري الأسبق اللواء محمد نجيب الذي كان يسكن في عمارة بضاحية المرج شمال القاهرة أمضى سنواته الأخيرة في القراءة التي كانت هوايته، وجمع مكتبة ضمّت خمسة آلاف مجلد في العلوم العسكرية والسياسية والجغرافية. وبعيد وفاته قام ابنه مجدي ببيعها إلى تجار الكتب القديمة بمبلغ 500 جنيه مصري فقط!! كما بيعت مكتبة المؤرخ السينمائي أحمد كامل مرسي إلى أحد تجار الكتب القديمة بمبلغ 15 ألف جنيه فقط.

وفي قديم بلادنا بيعت مكتبة العلامة أحمد بن إبراهيم بن عيسى النجدي بعد وفاته لسداد دين كان عليه. كذلك بيعت مكتبة محمد بن عبدالرحمن الكرود الأحسائي لسداد دين. وشهدنا منذ وقت قريب عرض مكتبة الأديب أبو عبدالرحمن بن عقيل الظاهري للبيع إثر ضائقة مالية مرّ بها.

واضطرّت الظروف التي عاشها ورثة الأديب الراحل أبو تراب الظاهري المتوفى عام 1423هـ، لعرض مكتبته للبيع، حتى أن نجله محمد قال: "اضطررت إلى ذلك لأن إمكاناتي لا تسمح بالحفاظ عليها على الرغم من رغبتي الشديدة في ذلك". ويذكر أن هذه المكتبة تضم أصول مخطوطات قديمة يعود بعضها إلى أكثر من 500 عام، ومنها على سبيل المثال مخطوطة للإمام العيني.

وبشكل عام يمكن القول إن بيع المكتبات الخاصة يمكنه أن يأخذ واحداً من مسارين: إما بيعها إلى مكتبة كبرى أو مؤسسة مهتمة فعلاً بها، وهذا يحفظ لها الكثير من قيمتها، وإما بيعها إلى صغار التجار الذين يبعثرونها كيفما اتفق والأمر هنا يشكل نهاية محزنة لماضٍ كان مبهجاً.

ثالثاً: الإهمال والنسيان

رفض عباس محمود العقاد بيع مكتبته في حياته رغم العروض المغرية التي تلقاها. ولكن الذي حصل هو أنه بعد وفاة الأديب الكبير، وقعت مكتبته في يد امرأة تجهل كل شيء عن قيمة هذا الميراث، فرمتها في الشارع مع الكراكيب والمخلفات التي يجب التخلص منها!!!

أما مكتبة الشاعر أحمد باكثير، الذي توفي في عام 1969م، فلا تزال حتى اليوم تقبع في سرداب إحدى العمارات بالقاهرة وسط ظروف سيئة جداً. ويسعى الناقد الدكتور محمد بويكر إلى ضم أعمال باكثير ومكتبته في متحف خاص، لكن جهوده الفردية لا يبدو حتى الآن أنها كافية.

ومكتبة المفكر الإسلامي الراحل أنور الجندي، المتوفى قبل سنتين، تعتبر ثروة حقيقية من دون أن يكون هناك مهتم بها في الوقت الحاضر. وتتفاقم المصيبة عند الدكتور حسين مجيب المصري (88 عاماً) الذي كان أستاذاً للدراسات الشرقية بكلية الآداب في جامعة عين شمس في مصر. فالرجل بنى مكتبة خاصة يزيد عدد مجلداتها على الثلاثين ألفاً من بينها المخطوطات

الحروب والمكتبات

جهاد فاضل

تقضي الحرب قضاءً سهلاً على المكتبات. فهذه الأخيرة لا تملك سلاحاً تدافع به عن نفسها. والمتقاتلون، سواء أكانوا مهاجمين أم مدافعين، لا يُعنون عادةً بصيانة المكتبات أو تحييدها، بقدر ما يُعنون بكسب المعركة والانتصار على العدو.

ولكن حروباً كثيرة في التاريخ كان لدى قادتها وعي إما بأهمية المكتبات وضرورة المحافظة عليها، وإما التخلص منها، فعملوا على إنقاذها كي يستفيدوا منها لاحقاً، أو على إتلافها وحرقها كي يتخلصوا من حقبة تاريخية ترمز إليها. فأعداء العرب يقولون إن عمرو بن العاص عندما فتح مدينة الاسكندرية، عمد إلى حرق مكتبتها التاريخية الشهيرة المملوءة بالمصنفات الفلسفية لأنها كانت ترمز إلى حقبة اعتبرها العرب وثنية فكان عليهم التخلص من آثارها الفكرية. ولكن المصادر العربية القديمة تؤكد أن العرب عندما دخلوا الاسكندرية لم يجدوا مكتبتها التي تحولت إلى رماد منذ زمن طويل.

ولكن كثيراً ما ينقض الفاتحون والغزاة على المكتبات لأنها ترمز بنظرهم إلى ثقافة عدوة أو رجعية. فالشاعر الداغستاني رسول حمزاتوف يقول إن البلاشفة عندما دخلوا داغستان وبقية بلدان آسيا الوسطى الإسلامية، ومنها سمرقند وبخارى، عقب الثورة البولشفية لعام 1917م، عمدوا إلى التخلص سريعاً من مكتباتها الإسلامية القديمة. ويترحم رسول حمزاتوف في كتابه (داغستان بلدي) على هذه المكتبات التي كان مسلمو بلاد التركستان وما وراء النهر ينظرون إليها على أنها واحدة من صِلات الروح التي تربطهم ببلاد الرسول صلى الله عليه وسلّم.

وفي التاريخ، إن مياه دجلة اصطبغت لمدة طويلة بلون الحبر عندما احتل المغول بغداد وقذفوا إلى النهر بما كانت تضمه مكتبات الحاضرة العباسية من روائع التراث وبخاصة ما كان يحتويه (بيت الحكمة) وهو نوع قديم من الأكاديميات والمراكز العلمية والثقافية، من الكتب.

ويحفظ التاريخ أمثلة كثيرة على مكتبات ذُبحت قرب نهر، فبكى عليها النهر. فعندما تغلب الملكان الإسبانيان فرديناند وإيزابيلا على "أبو عبد الله"، آخر ملوك غرناطة، شاهد كثير من الإسبان المنتصرين ما لا يُحصى من المخطوطات العربية مرمية على جسور النهر، أو في النهر ذاته. كانت هذه المخطوطات حصيلة مرحلة تاريخية كاملة كانت الحضارة الانسانية قد انتقلت خلالها إلى العرب.

ومن هذه الحضارة قبست أوروبا أنوار نهضتها المعاصرة. ولكن الذين انتصروا على غرناطة الإسلامية لم يعنوا بالتفريق بين ما هو للحضارة، أو من الحضارة، فيحفظونه، وبين ما ليس منها فيهملونه، بل أشعلوا النار في كل ما وقعت عليه أيديهم من نتاج أعدائهم.

وفي العصر الحديث أتت الحرب اللبنانية على مكتبات كثيرة منها العام ومنها الخاص. فقد نُهبت المكتبة الوطنية العامة التي كانت تقع قرب مجلس النواب، وما بقي منها لا يزال حتى الساعة محفوظاً في صناديق مقفلة مودعة في بعض مخازن وزارة التربية في سن الفيل. ولم تقم لهذه المكتبة قائمة حتى الساعة. وتعرضت مكتبات خاصة كثيرة للقصف أو للسرقة، أو كليهما. من هذه المكتبات، مكتبة أول رئيس للجامعة اللبنانية عند انشائها، وهو الدكتور خليل الجر التي كانت ملأى بآلاف الكتب. وأيضاً مكتبة المفكر والباحث الفلسطيني أكرم زعيتر، ومكتبة الكاتب الفلسطيني غسان كنفاني، ومكتبات كثيرة كانت ملأى بثمار الفكر البشري.

لا تخصّ المكتبات، أيا كانت، شخصاً بعينه، ولو كان من حيث الظاهر أو الملكية مالكاً لها. كما أنها لا تخصّ بلداً معيناً ولو كانت مكتبات رسمية تابعة للدولة. فإذا كان الشاعر يقول:

وإنمـــا أولادنـــا بيننـا
أكبادُنا تمشي على الأرض

فالمكتبات هي أكباد الحضارة الإنسانية، فيها خلاصتها وإليها وحدها تنتسب!

النادرة. وهذه المكتبة ترزح اليوم تحت الأتربة والغبار والرطوبة، وبدأ السوس ينخرها. وصاحبها يكتفي بالتمني بأن تقوم جهة ما بتبويبها وفهرستها والعناية بها..

ومكتبة وديع فلسطين الذي تجاوز عمره الثمانين، تضم إضافة إلى آلاف الدواوين الشعرية والدراسات الأدبية نحو 10 آلاف رسالة أدبية وفكرية متبادلة بينه وبين حشد من الأعلام العرب في القرن العشرين أمثال الشيخ حسن البنّا، سيد قطب، الشيخ الشعراوي، العقاد، الرافعي، أحمد حسن الزيّات، علي الطنطاوي، ابراهيم ناجي، وحمد الجاسر وغيرهم.. وهذه الرسائل لا تزال غير منشورة ولا تجد أي اهتمام من المؤسسات والمنظمات الثقافية.

والأغرب من كل ما تقدم، أن نحو عشرة كتب من تأليف رائد العربية في العصر الحديث مصطفى صادق الرافعي المتوفى عام 1937م، لا تزال مخطوطة بيده ولم تنشر. وهذه الكتب موجودة ضمن مكتبته التي آلت إلى حفيدته. وهذه الأخيرة تجاوزت اليوم السبعين ولا تزال تطلق نداءات لإغاثة هذا التراث ونشره!

وهناك العديد من المكتبات الخاصة التي نتساءل عن مصيرها ولا يأتينا جواب. مثل مكتبة الأدبية مي زيادة التي كانت محطّ أطماع ذويها. ولا ندري ما آلت إليه، ولا مصير رسائلها إلى جبران خليل جبران.. رغم ظهور بعض رسائل جبران إليها عند أحد باعة الأثريات في بيرت وعددها ثلاث، معروضة للبيع بعشرة آلاف دولار أمريكي.

رابعاً: الضياع والتدمير

يذكر أن علي بن محمد السناني (توفي عام 1339هـ) جمع مكتبة ضخمة أغلبها من المخطوطات. ودمّر معظم ما في هذه المكتبة عام 1322هـ عندما اجتاحت السيول مدينة عنيزة وهدمت منزله. والشيخ سليمان بن صالح البسّام (توفي عام 1405هـ) خلّف مكتبة نفيسة جداً، لكنها ضاعت بوفاته. وبعد وفاة الشيخ حمد بن ناصر العسكر في المجمعة، ولم يكن له أولاد يرثونه، تفرّقت مكتبته الثمينة وتبعثرت.

ومن أشهر المكتبات التي ضاعت أيضاً مكتبة شيخ الأزهر الأسبق محمد الفحام التي كانت كنزاً من المخطوطات النادرة، ومكتبة المرجع الشعبي الدكتور عبدالحميد يونس.

والأحداث التي عصفت بلبنان على مدى سبع عشرة سنة دمّرت العديد من المكتبات. منها مكتبة الشيخ حمد الجاسر التي كانت تقع في أحد مباني وسط بيروت وأتى حريق عليها بأكملها. والتهمت النيران أيضاً مكتبة الأمير حافظ شهاب وكانت تضم نحو ثلاثمائة وثيقة تاريخية تتعلق بتاريخ لبنان ومراسلات أمرائه خلال القرون الماضية. كما أدى تدمير مبنى الكوليدج هول في الجامعة الأمريكية إلى ضياع مجموعات نادرة من مكتبة الدكتور محمد يوسف نجم.. والأحداث نفسها أتت على عشرات ومئات المكتبات الخاصة التي كانت في منازل اللبنانيين.

خامساً: السرقة

تعرضت مكتبة طه حسين للسرقة على أيدي تجار الكتب القديمة. ولم يبق منها في دار الكتب ومكتبة مُتحفه سوى سبعة آلاف كتاب، بينما تذكر زوجته السيدة سوزان أن مكتبته كانت تضم نحو 30 ألف كتاب. فالناقص منها إذن 21 ألف كتاب!

سادساً: الاحتفاظ بها

كان للشيخ حمد الجاسر مكتبة خاصة في منزله بالرياض (غير تلك التي احترقت في بيروت)، وقد تم نقل هذه المكتبة إلى مركز حمد الجاسر الثقافي الذي تم إنشاؤه برعاية صاحب السمو الملكي الأمير سلمان ابن عبدالعزيز، والغاية منه الاهتمام بإنجازات الجاسر وخدمة الباحثين.

كذلك قرر ورثة الأديب يوسف إدريس الاحتفاظ بالمكتبة التي خلّفها الراحل، لكن من دون تسليمها إلى أية جهة أو مؤسسة ثقافية تُمكن الباحثين من الاستفادة منها.

ومكتبة أمير الشعراء أحمد شوقي بقيت على حالها أيضاً. فقد أصدرت الحكومة المصرية قراراً في عام 1972م بنزع ملكية "كرمة ابن هاني" وتحويلها إلى متحف، وهي الدار التي كان أمير الشعراء قد بناها في عام 1920م، وأطلق عليها هذا الاسم ولعاً بالشاعر الحسن بن هاني "أبو نواس". وقد افتتح متحف شوقي في 17 يونيو 1977م، وهو يضم مكتبة الشاعر التي تحتوي على 335 كتاباً، ومسودات بعض قصائده وكتاباته النثرية و 713 ورقة عليها كتابات بخط الشاعر.

تهريب الذاكرة

في معرض حديثه عن المكانة العلمية لمدينة طرابلس (لبنان) خلال القرن الخامس الهجري، يؤكد المؤرخ ابن الفرات أن عدد الكتب والمجلدات التي كانت في مكتبة بني عمّار المعروفة باسم دار الحكمة قد فاق الثلاثة ملايين. ولكن هذه المكتبة أُحرقت برمتها على

أيدي الصليبيين الذين غزوا المدينة عام 503هـ. غير أن فترة الحروب الصليبية نفسها شهدت بداية اهتمام الغربيين بالثقافة العربية. وبدأت عمليات نهب كبيرة جهاراً حيناً وسراً أحياناً للكتب العربية النادرة والنفيسة التي صارت اليوم فوق أية قدرة على إحصائها في المكتبات الأوروبية الكبرى.

فبعد الاستفادة من جهل العامة في القرون الوسطى، وبعد الحماية الكبرى التي صارت المكتبات العامة تتمع بها، تحولت أنظار اللصوص إلى المكتبات الخاصة. وأفضل مناخ يمكن لهؤلاء أن يعملوا به هو حيثما كانت الأوضاع مضطربة. ولعل الحالة التي تمثلها مدينة القدس هي أوضح مثال.

فسجلات المحاكم الشرعية في القدس تشير إلى وجود الكثير من المكتبات الخاصة التي تعود إلى العصر المملوكي والعثماني. ومن هذه المكتبات على سبيل المثال مكتبة القاضي فخر الدين محمد بن فضل الله (توفي عام 1331م) التي أوقفها على مدرسة الخانقاه في المدينة، وتضم هذه المكتبة نحو 10 آلاف مخطوطة في الفقه وعلم الفلك، ومكتبة الشيخ برهان الدين بن جماعة خطيب المسجد الأقصى (توفي عام 1388هـ)، ومكتبة مفتي القدس الشيخ حسن بن عبداللطيف الحسيني، والعشرات والمئات غيرهم.. كل هذه المكتبات المسجلة بدقة كانت تتجمع بمرور الوقت في "خزائن الكتب" - تسمى هكذا لأن مكتبات القدس كانت مجرد خزائن، ولم يكن فيها قاعات للقراءة - ولكن أين أصبحت هذه الخزائن اليوم؟

لا أحد يعرف.

لقد ضاع قسم كبير من محتوياتها وأتلف قسم آخر، وسرق قسم ثالث، بعضه بيع بأبخس الأثمان، وبعضه بيع للعارفين في مكتبات غربية..

والغريب أن الوعي العام الذي صار مهتماً بمصير الفنون والآثار وبوجوب الحفاظ عليها، لا يزال مقصراً جداً على صعيد الاهتمام بالكتاب. فالأضرار وعمليات السرقة التي تعرضت لها الآثار العراقية قبل أشهر قليلة، حظيت بضجيج عالمي واستنفار عام لاستعادة ما يمكن منها. ولكن الحديث عمّا أصاب المكتبات الخاصة في بغداد لم يصل إلى الآذان.. هذا إن دار أصلاً مثل هذا الحديث. فالمكتبة الخاصة شيء يُبنى ببطء على مدى عمر صاحبها، لكنها قد تؤول إلى الزوال في لحظات.. وبصمت.

اقرأ للمكتبات



المكتبات والمعلومات السعودية

يتناول الدكتور علي إبراهيم النملة في كتابه هذا أهمية المكتبات ومراكز المعلومات في المملكة العربية السعودية، والوظائف العديدة التي تقوم بها، خاصة أن هذه المكتبات تعد من المؤشرات الحساسة على تطور أية هيئة، حكومية كانت أم خاصة.

ويتطرق الكاتب إلى الوعي العام بأهمية المكتبات وارتباطها الوثيق بالتنمية. ويعرض جملة أفكار حول الدور المهم الذي يمكن للمكتبة الوطنية أن تلعبه في رعاية الكتاب عموماً وضمان توافره والتأكد من قانونية تأليفه ونشره مع ما يترتب على ذلك من حقوق وواجبات. كما يقترح ربط المكتبات الوطنية الكبرى بمقاعد الدراسة الجامعية ومعاهد الدراسات العليا لتيسير التواصل ودعم الدراسات التي يقوم بها الطلبة.

كما يتطرق المؤلف إلى المكتبات المدرسية ومفهومها المتجدد وضرورة الالتزام بتنشيطها، حتى تنتج قرّاءً في أعمار مبكرة يسهل توجيههم لاحقاً إلى المكتبات الصغيرة، ومنها المكتبات الخاصة.

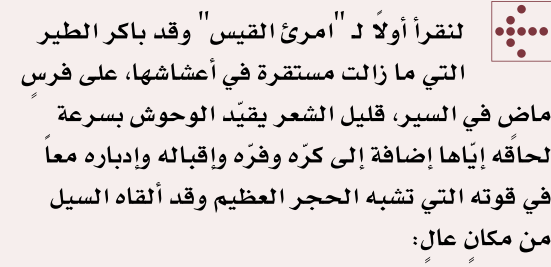
ديوان الشعر ديوان القوم



من صور الخيل

راحلتهم في الغزو، ومطيتهم وقت الصيد، ورهانهم وقت السباق.. أسباب كافية لرسم الخيل في شعر العرب: أشكالها، حركاتها، ألوانها، علاماتها المميزة، وأهميتها في حياة أصحابها. الباحث خالد عثمان* يقرأ في بعض المعلقات ويتوقف أمام التنوع الكبير في أشكال تناول الخيل شعراً وما فيه من زخارف فنية مختلفة.

* كاتب من سوريا



لنقرأ أولاً لـ "امرئ القيس" وقد باكر الطير التي ما زالت مستقرة في أعشاشها، على فرسٍ ماض في السير، قليل الشعر يقيّد الوحوش بسرعة لحاقه إيّاها إضافة إلى كرّه وفرّه وإقباله وإدباره معاً في قوته التي تشبه الحجر العظيم وقد ألقاه السيل من مكانٍ عالٍ:

وقدً اغتدي والطير في وكناتها
بمنجرد قيد الأوابد هيكلِ
مكرٍ مفرٍ مقبلٍ مدبرٍ معاً
كجلمود صخرٍ حطّه السيل من علِ

وللوصف الحسّي، وشكل الفرس نصيب أيضاً.. وهنا تكثر التشبيهات والمقارنات بين الفرس وبعض الحيوانات الأخرى:

له أيطلا ظبي وساقا نعامة
وإرخاءُ سرحان وتقريب تتفلِ
ضليع إذا استدبرته سدّ فرجه
بضاف فويق الأرض ليس بأعزلِ
كأن على المتنين منه إذا انتحى
مداك عروس أو صلابة حنظلِ

ذئب!

ولصورة الفرس عند "طرفة بن العبد" صورة الذئب وقد اجتمعت له ثلاث خصال: إحداها كونه شبيه الغضا وهذا أخبث الذئاب، والثانية إثارة الإنسان إياه، والثالثة وروده الماء، وهذان سببان يزيدان في شدة العدو:

وكرّي إذا نادى المضاف مخبّئاً
كسيدِ الغضا نبّهته المتورد

فطرفة يعطف - في إغاثته - فرساً في يده انحناءٌ.. وهذا شيء محمود في الفرس.

معركة..!

أما عنترة فهو خير من يصف الفرس. وكيف لا؟! وهي راحلته إلى حبيبته، وأداة السفر في تنقلاته، وصهوته في معاركه:

هَلاَّ سألت الخيل يا ابنة مالك
إن كنتِ جاهلة بما لم تعلمي
إذ لا أزال على رحالة سابح
نهد تعاوره الكماة مكلّمِ
يدعون عنترَ والرماح كأنّها
أشطان بئر في لبان الأدهمِ
فازورّ من وقع القنا بلبانه
وشكا إليَّ بعبرة وتحمحمِ

داحس والغبراء

وإذا كانت معلقة "زهير بن أبي سلمى" تخلو من ذكرٍ للخيل، ووصف لها، فإن من أسباب نظمها هو الخيل.. وبالتحديد "داحس والغبراء".. حينما اجتمع القوم وتذاكروا الخيل وانتهوا إلى أن يُنزل قيس بن زهير العبسي داحساً والغبراء (الفرسين) ويُجري رجل من غطفان فرسين أيضاً.. اعترض ناس من فزارة من غطفان داحساً مرتين.. ومع ذلك فقد وصل "داحس" ثانياً.. و"الغبراء" سابقة.. طلب العبسيون حقهم من الرهان، فأباه عليهم الفزاريون. لذا نشبت حرب عرفت باسم "داحس والغبراء".. دامت العداوة بسببها أربعين عاماً.. لكن الحارث بن عوف وهرم بن سنان.. وهما كريمان من غطفان أخمدا النار وحقنا الدماء بما دفعاه من مالهما الخاص، لذلك فقد أفرد الشاعر أبياتاً عديدة في مدحهما.

ونصل إلى معلقة عمرو بن كلثوم التغلبي، فنقرأ له في سياقها عدداً من الأبيات.. مبرزاً في الأول صفة الغرّ للخيل.. وهي ما تشتهر به، يقول في ذلك في معرض حديثه مادحاً قومه:

وأيام لنا غرٍّ طوال
عصينا الملك فيها أن ندينا

لقد استعار إحدى أجمل أوصاف الخيل (الغرّ) وشبّه بها قبيلته العظيمة، ووقائعها التي لا تزول مع الأيام..

تركنا الخيل عاكفة عليه
مقلّدة أعنتها صفونا

حمامة!

ولدى "لبيد" صورة جميلة للخيل حينما يشبه عنقها بجذع باسقة ومنيفة، يسهُل عليها أن تعدو سريعة كالنعام.. وأن تطير كالحمام:

أسهلت وانتصبت كجذع منيفة
جرداء يحصر دونها جرّامها
رفعتها طرد النعام وشلّه
حتى إذا سخنت وخفّ عظامها
ترقى وتطعن في العنان وتنتحي
ورد الحمامة إذا أجدّ حمامها

هذه بعض مشاهد الخيل عند الشعراء الجاهليين الذين أحبوها حتى أن بعضهم لم يتردد في رفعها إلى منزلة البشر وتحميلها المحمود من صفاتهم!.

وشمٌ على نهار وجدان

نمرُّ على الوشم
قلبُ الرياض يدقُّ على باب هذا الجسدْ
يقولُ افتحوا الباب كي يتسلل من رئتي الدخان الذي في سمائي احتشدْ
نمرُّ على الوشم
نصغي لقلبين كانا هنا ولكن نبضهما قد خمدْ
نمرُّ على الوشم يا أربعاء الرماد تقطّرُ من ضفتيك السوادْ
لنا في الرياض فؤادُ البلدْ
أتيتُ هنا قبل عشرين عام
ومن شارعٍ فيه تبدو فلسطين كنا نحث الخطى نحو حلم الصبا وكانت
حديث الرفاق وأول أشعارنا في الحنين وآخر أشعارنا في القمر
وإن أمطرت قلتُ مرّوا على الوشم نلقي عليه السلام .. نقصّ حكاياتنا للمطر

.. وآخر أشعارنا في القمر

وجدانُ كانت هناك تلاعبُ عصفورها في حذرْ
وتسقيه ماء الحياة ولم تدرِ أن الطغاة سيسقونها من شرابٍ آسن
وجدانُ كانت هنا - قرب هذا الجدار - تحدّث عصفورها عن دروس
الصباح وعن حلم أمس الذي ما رأت مثله في المنام: كانت تطير إلى أفقٍ
أخضر وسربِ عصافير بيضٍ يشاركها الدعاء لهذا الوطن
وجدانُ كانت حديث الرفيقات في الصف كانت تجيد التأمل في الكائنات
وكانت تريد التحدث عن أملٍ منتظر
حين تغدو الشهادة كالتاج في الجبين .. وترجو علاماتها كالدرر
وجدانُ كانت هنا دمعةً في البيوت - تحت هذا الجدار - ولكنها سوف
تبقى لنا كنخيل الرياض الذي لا يموت .. وأزهارها تحتضر

ديوان الأمس ديوان اليوم

الروايات النسائية في المملكة بلغت اليوم عقدها الخامس، وهي وإن جاءت متأخرة عن روايات الرجل، إلا أن ساحتها تشهد مزيداً من العطاء، الأمر الذي يدفعنا إلى استنطاق خطابها واستطلاع خصوصياته، وذلك من خلال مراجعة الناقد الدكتور حسن النعمي لنماذج مختلفة من هذه الروايات بدءاً بإنتاج جيل الرائدات ووصولاً إلى روائيات اليوم.

رواية المرأة..
بين خطاب السرد والواقع

مع تزايد عدد الروايات النسائية في المملكة غدا الوقوف أمامها ومحاولة استنطاق خطابها ضرورة معرفية ملحة. وقد أتيحت الفرصة في ملتقى جماعة حوار بنادي جدة الأدبي في هذا العام لقراءة خمس عشرة رواية صدرت ما بين عامي 1960 و 2003م، ومثلت مراحل زمنية مختلفة بدءاً من الكتابات الأولى لسميرة خاشقجي، وهدى الرشيد وهند باغفار، ومروراً بكتابات رجاء عالم ونوره الغامدي وانتهاء بكتابات مها الفيصل ونداء أبو علي على سبيل المثال. وكما تباينت هذه الروايات في أزمنة صدورها، فقد تباينت في مستوياتها السردية من حيث مواكبتها لتقنيات السرد الحديثة. فتواضع روايات سميرة خاشقجي يبرره ضعف البدايات، وهو المبرر نفسه بالنسبة لروايات عبدالقدوس الأنصاري والسباعي والمغربي في الثلاثينيات الميلادية.

تزامن أول ظهور لرواية المرأة مع بداية مرحلة النضج النسبي في الرواية السعودية على يد حامد دمنهوري، خاصة في رواية "ثمن التضحية" الصادرة عام 1959م وروايات إبراهيم الناصر. غير أن مدة ثلاثين عاماً تفصل بين أول صدور لرواية الرجل وبين رواية المرأة لم تقنذ المرأة من الوقوع في انكسارات البدايات، من حيث ضعف الأساليب وجفاف التقنيات. فقد كانت الروايات المنشورة منذ أوائل الستينيات الميلادية تسير في أفق بعيد نوعاً ما عن التطورات السردية في الرواية العربية إلا استثناءات قليلة، مثل رواية نوره الغامدي "وجهة البوصلة"، ورواية ليلى الجهني "الفردوس اليباب"، حيث ظهرتا بمستوى فني يميزهما عن بقية الروايات الأخرى. غير أن الروايات الأخرى لم تكن كلها على مستوى واحد، فتفاوتت بدورها. فهل أن غايات الكتابة لدى المرأة لم تكن روائية أصلاً؟ أي هل كانت الكتابة مجرد منبر تطرح من خلاله الكاتبات أفكارهن من دون الوقوع في مأزق مواجهة سلطة المجتمع طالما أن الرواية تبدو في نظر المجتمعات المحافظة مجرد تسلية لا يحفل بها أحد ولا يؤخذ ما فيها مأخذ الجد؟.



أم كانت الكتابة سعياً من المرأة لاستخدامها أداة لفضح خطاب الرجل المهيمن بثقافة الكتابة؟ هذه مدارات وأسئلة جديرة بأن يعاد النظر فيها من خلال ربطها بمفهوم الخطاب، حيث لا ينبغي عزل الكتابة النسائية عن واقع الثقافة التي تقع تحت هيمنة الرجل.

لعل أهم ملمحين يمكن أن نتبينهما في رواية المرأة هما دلالة المكان، حضوراً وغياباً، ومفهوم الإقصاء والإحلال في علاقة المرأة بالرجل. ونعتقد أن هذين الملمحين، رغم وجود قضايا أخرى يمكن تناولها كالتقنيات السردية، أكثر إلحاحاً بالنسبة لفهم الخطاب الذي تتكئ عليه رواية المرأة.

المكان: إقصاء المتن.. وتثبيت الهامش

تبدأ أزمة المرأة مع المكان من الواقع وتمتد إلى المتخيل السردي. فهي تبدو محكومة بالمكان المغلق. كبرت القناعات حولها حتى بدت هي القاعدة وما عداها هو الاستثناء. ومن هنا تأتي كتابة المرأة السردية لتنقلها من ظل المكان إلى أرض تتخلص فيها من إقصائها. فهل حققت لها كتابتها السردية بعضاً من مطالبها، أم أن لعبة المكان المغلق ظلت تطاردها حتى وهي تكتب خطابها وتفضح أزمتها؟ إن المرأة التي كتبت هذه الروايات هي سليلة واقع الإقصاء هذا، فكيف سيكون تعاملها مع المكان سردياً؟

كنموذج لتغييب المكان تقدم رواية هند باغفار "البراءة المفقودة" مفهوم المكان البديل. تجري حوادث

الرواية صراحة في محافظات مصر من خلال الهروب الدائم للمرأة "غربة" من جريمة قتل لم تقترفها، بل اقترفها رجل تحرش بامرأة أخرى. ورغم أن الرواية في ظاهرها تعالج قصة عامة بحبكة بوليسية قوامها المطاردة والتخفي، فمن الممكن تأويلها إلى أبعد من ذلك، إذا نُظر إليها ضمن آليات الخطاب. ولعل ضرورة المكان هنا ليست في مناقشة علاقته بخصوصية مجتمع الكاتبة، بل رغبة في إتاحة حرية التنقل والحركة للمرأة الهاربة من قدرها. إن الهروب هنا لا يؤخذ في شكله البوليسي، بل في بعده الاجتماعي. فهو هروب من هيمنة الرجل / الضابط المعني بتعقبها والأب الذي لم يتوقف عند إمكانية السؤال عن براءة ابنته مطلقاً. وحتى عندما وصلت إلى براءتها لم تصل إليها بنفسها، بل بإرادة جبارة من الرجل بصرف النظر عن اختلاف الدوافع من رجل إلى آخر. فغربة واقعة بين إرادتين ذكوريتين، إرادة شريرة وأخرى خيرة. ومصيرها يقرره الرجل سواء رضي عليها أم سخط. إن أهم ما في هروب غربة أنها استطاعت أن ترعى نفسها في أحلك الظروف. فمشكلتها ليست في عدم قدرتها على رعاية نفسها، بل في ملاحقة الرجل لها، وهو هنا الأب، وضابط الشرطة، وكثير من الذين يشون بها. وهي ملاحقة إقصاء، أولاً بالتهمة التي لفقها رجل، وثانياً لتقديمها لعدالة الرجل.

هل كانت الغاية من كتابة المرأة روائية أصلاً أم مجرد منبر لطرح الأفكار من دون الوقوع في مأزق؟

وإذا كان إقصاء المكان أو عدم تبرير حضوره سردياً في هذه الروايات يبدو خاضعاً لأسباب اجتماعية أو لإخفاقات فنية، فإن رجاء عالم في رواية "مسرى يا رقيب" تشغل نفسها بالمكان الميتافيزيقي. فهي تهرب من واقعها إلى واقع ما ورائي، حيث تبدأ رحلة الخروج من شرطها الاجتماعي بتأسيس كتابة لا منتمية. قد لا تكون الأسباب نفسها التي حدت بالكاتبات الأخريات في التخفي خلف المكان الآخر، أو تسطيح حضوره إلى أقصى مدى، هي الأسباب التي أملت على رجاء عالم اختيارها. لقد كتبت رجاء لقارئ لا يعيش مشكلاً اجتماعياً، كتبت لقارئ يحتاج إلى أن يعيش العوالم الميتافيزيقية أكثر من رغبته في التعايش مع الفن الذي يسائل الواقع ويستنبت منه جدوى الحياة. إن كتابتها من حيث قراءتها ضمن آليات خطاب الإقصاء، هي أيضاً هروب آخر وراء اللامكان. فهي ليست في نهاية المطاف بعيدة عن مستوى الخطاب في الكتابات النسوية الأخرى. فالكاتبات اللاتي استخدمن تقنية المكان البديل لتمرير قناعاتهن بضرورة التغيير هن أكثر التحاماً بالخطاب على مستوى الاجتماعي والثقافي.

السؤال الآن، هل هناك رهاب حقيقي عانت منه الكاتبات في عدم التصريح بالمكان من ناحية، أو في اتخاذ المكان البديل بوصفه حلاً لتمرير خطابهن من ناحية؟ أم هل هو الخروج من المكان المغلق بغرض الإدانة من ناحية، أو بغرض معالجة موضوعات تبدو معالجتها في ظروف المكان المغلق غير مؤاتية من ناحية أخرى؟ لا نملك إلا التساؤل وقراءة ما قد يكون مدخلاً لفهم الظاهرة. فربط السياقات بعضها ببعض قد يفسر دون أن يحسم الإجابة، قد يبرهن مرحلياً، دون أن يكون هذا البرهان أو ذاك نهائياً. لأن النهاية بالمفهوم الفلسفي غير حتمية، بل متغيرة بحسب البدايات المختلفة. فكل نهاية تحمل بدايتها في أحشائها، كما أن الولادة تحمل نهايتها في أحشائها كذلك.

الخطاب والخطاب المضاد: الإقصاء والإحلال

إن رواية المرأة في السعودية نمط من الكتابات السردية التي تتخذ من الفن السردي منطلقاً للتعبير عن جدل الذات مع الواقع، هاربة من الكائن إلى واقع ينبغي أن يكون حتى ولو في المتخيل. فالمرأة الكاتبة في هذه الروايات لا تشبه شهرزاد إلا في كونها تريد أن تهرب من كونها ضحية إلى الخلاص من واقعها. كما أن إشكالية المرأة في هذه الروايات هي في أنها لا ترى من العالم إلا الرجل. فهو خيبة أملها، وهو شريكها المستبد، وهو مصيرها الذي تهرب منه. لقد تحولت بعض كتابات المرأة إلى ذات ناقمة تفترض سوء الرجل مقدماً. فالمرأة، التي تستخدم السرد في هذه الروايات، ليست شهرزاد التي أشاعت روح التسامح ونقلت الرجل من التدمير إلى التسامح، ومن القتل إلى العفو بفعل السرد، بل إنها امرأة واقعية عانت من تسلط ثقافة الرجل، وعنَّ لها أن تأخذ بعض أدواته لتقهره بها.

تتسم معظم روايات المرأة بضعف فني بارز، مرده على الأرجح الافتقار إلى الموهبة لدى أغلب الكاتبات. ولعل منطلق بعض هذه الروايات لم يكن الفن في الدرجة الأولى، بل استغلال الكتابة لفرض هيمنة الحضور. فالكتابة قادرة على حمل انتصارات متخيلة للمرأة في مقابل انتصارات الرجل الواقعية. وبالتالي فإن الكتابة هنا تنتقل من صفتها الأدبية إلى صفتها الاجتماعية، ومن صفتها السردية إلى صفتها الأيديولوجية، بغية تأسيس خطاب مضاد لخطاب الرجل. فمثلما يمارس الرجل حرب الإقصاء في خطابه الواقعي، تمارس المرأة الإقصاء في المتخيل السردي بعد أن عجزت عن تحقيق الإقصاء أو استرداد حقها في المماثلة لخطاب الرجل في الواقع. غير أن إقصاءها للرجل عن هيمنته هو

إحلال لها في موقع الهيمنة والسيطرة. فإذا كان الرجل يقف على هرم متعال من أخطاء الإقصاء والتهميش والتسلط، فإن سلوك المرأة للخطاب نفسه هو مأزق وضعت نفسها فيه تحت طائلة الدفاع عن حقوقها. لقد بدا واضحاً أن خطابها السردي يقدم نفسه بديلاً لخطاب الرجل. فالعالم، وفقاً لتصوير المرأة السردي، قد سئم من الرجل الذي قاد العالم إلى الخراب. فهو خطاب يؤسس شرعيته على فرضية الأخذ بمبدأ الفرصة. والرجل، في نظر هذه السرود، تسيّد العالم ولم يفلح في إسعاد الإنسانية، وتحولت المرأة إلى سادنة القرابين، حيث ظلت تنجب الأبناء ليجروا إلى ساحات الحروب.

إن هذه الروايات تطرح السؤال الآتي: ماذا لو حلت المرأة مكان الرجل؟ كيف سيكون حال العالم؟

قدمت رواية "آدم يا سيدي" لأمل شطا فرضية الإجابة لخطابي الإقصاء والإحلال عندما أقصت الرجل / حمزة عن حبكة الرواية معترفة له بدور شهم، لكنَّ عليه أن يعتزل الحضور، أن يتقاعد عن دوره، أن تحضر المرأة ويغيب الرجل حتى يظهر دور المرأة. لأن من أساسيات الخطاب استبعاد الثنائي، وتأكيد فرضية الإقصاء. لقد جاء موت حمزة فعلاً حاسماً ليخلو مسرح الأحداث للأم الأرملة لتنهض بدور كان يقوم به زوجها. ولعل أول صدمة واجهتها هي إقرارها أنها لم تكن تعرف العالم الذي عاشت فيه سنوات طويلة، لأن حمزة / الرجل كان هناك دائماً يقوم بدوره. أما هي، فقد ظلت قابعة في شرطها البيولوجي القائم على العطاء دون المشاركة والمبادرة. أما بعد إقصاء حمزة، فقد نجحت الأم الأرملة في تربية الأبناء، حيث كشفت خطاباً مناقضاً للرجل وهو الحوار في حل كل المعضلات التي تواجهها دون اللجوء للقهر والتسلط والاستبداد. وهو ما نلحظه كذلك في رواية "امرأة فوق فوهة بركان" لبهية بوسبيت، حيث تقوم الأم بترميم العلاقة بين الأب وأبنائه. ظهرت الأم شريفة قادرة على تأسيس قناة للتواصل مع ابنها في الوقت الذي رأى الأب أن الحوار مع ابنه فيه قدر من جرأة الابن عليه وتعويد له على تكسير أوامره. وهي إشارة إلى تعطيل الرجل لعقله واستبداله بعضلاته لحل مشكلات العالم. ولا تبتعد رواية "بسمة من بحيرات الدموع" لعائشة زاهر أحمد عن تحمل الأم أخطاء الرجل في ترميم العلاقة المنهارة بين الأب وأبنائه. وإذا كانت رواية "آدم يا سيدي" لا تتنكر للرجل ولا تصمه بالتسلط، بل تمنحه من الصفات الكريمة ما يجعل هذا الوصف يخرج عن سياق كثير من الروايات المقروءة في هذا الملتقى، فإن ذلك لا يبدو مختلفاً في محصلة الخطاب العام الذي تشتغل عليه هذه الروايات وهو أنه لا وجود للمرأة في حضور الرجل، وبالتالي، لكي تحضر المرأة لا بد أن يغيب الرجل. إنها المفارقة بعينها. ففرضية أنهما شريكان في السلطة / المسؤولية فرضية خارج الخطاب الذي لا يمكن أن يتسامح في دحر سلطة الهيمنة التي تتأتى للمفرد لا للمثنى.

إشكاليتها هي في أنها لا ترى من العالم إلا الرجل، فهو خيبة أملها، وهو شريكها المستبد ومصيرها الذي تهرب منه

وإذا كانت رواية "آدم يا سيدي" أكثر دهاء في إقصاء الرجل، فإن هناك روايات لم تحتمل لعبة الدهاء. من هذه الرواية "وهج من بين رماد السنين" لصفية عنبر، حيث أقصت الرجل بطريقة بدت نزقة وغير مبررة سردياً. فالبطلة منى فتاة نذرت نفسها وقلبها لابن عمها أمين، الذي حقق نفسه علمياً ومهنياً وهي منتظرة له. وعندما أرادت أن تكمل تحصيلها العلمي على أن يتزوجا ويسافرا معاً لتكمل دراستها خارج وطنها، اعتذر لأنه لا يمكن أن يترك حياته المهنية. وهو ما جعلها تقرر ألا تنكسر. فسافرت للدراسة وحيدة، مقصية له، مثلما أقصاها من قبل، إقصاء بإقصاء. وإذا كانت الرواية بهذا الترتيب مفرطة في الخيال، فإنها تسعى إلى تأكيد قدرة المرأة على النهوض بنفسها والانتصار مثلها مثل الرجل. وتنتهي الرواية بانتصار متخيل لمنى، يكمن في ثناياه خطاب الهيمنة، الواحد بسلطته، والمشترك بعقلانيته. وإذا كان سفر منى بمفردها للدراسة للخارج غير ممكن في خطاب الواقع، فإن ذلك يؤكد جموح خطاب المتخيل في تعزيز أسبقية خطاب السرد على الواقع. فهناك فرق بين الكائن والممكن، فالكائن خطاب الواقع المعلن، بينما الممكن خطاب متخف يحرص على تحقيق ما ينبغي أن يكون، وهو في الغالب رِدة فعل للخطاب الكائن.

فبشكل عام، إن أهمية قراءة رواية المرأة من منظور الخطاب يتيح فرصة الوقوف عند نقطة استخدام الجمالي لتبرير مواقف مسبقة أو لجعلها الركيزة الأساس في المقولة السردية النهائية في رواية المرأة. فالمرأة تكتب بحس الإدانة المسبقة للرجل، بحس الرغبة في تجاوز وكسر القيود، فتتحول كتابتها إلى نص مقاوم يفتقد المبرر لوجوده الفني. وربما يفسر ذلك ضعف معظم نتاج المرأة الروائي من الناحية الفنية. وهذا لا يعني، بطبيعة الحال، الدعوة إلى كتابة سردية خالية من القيمة الموضوعية، بل إنه تأكيد على ضرورة تلازم الجمالي والفكري في أي عمل سردي.

مقتطفات

الفردوس اليباب

ليلى الجهني

"ها أنت ذي قد رحلت قبل أن تدعيني أكتشف معك جدة، المدينة التي كشفت لحبك عن وجه لم أره فيها. ظللتُ البارحة أتذكر كل الأماكن التي عبرت في أوراقك، الشوارع والمنعطفات والجسور والبنايات الضخمة والبحر قميص جدة الشاحب المتراجع دوماً إلى الوراء، المدفون تحت أطنان الرمل من أجل أن تصير اليابسة أكبر من البحر، وكم كان غريباً أن أكتشف أن كل ما عرفته عن جدة لا يشبه بأي حال من الأحوال ما عرفته أنت وكتبته. وها قد خلت جدة منك. ها هي ذي ستكشف لي عن وجه الموت، تقرأ عليَّ سطرين من كتاب المعرفة ثم تسلمني للشوارع، لنزق الذكريات وجنونها، للبحر - قميصها الشاحب - يفتح عشاقها أزرته واحداً تلو الآخر، وإذ تتبدى التفاصيل تكون الدهشة قد أخذتهم بعيداً وتكون هي قد رتبت شعثها وعدَّلت هندامها في انتظار عاشق جديد.

الآن، لا بحر في البحر، وأنا لم أنم ولم أبكِ (ما أقساك! حتى الدمع أخذته معكِ). وأغسطس يغير طقسه تجاه الموت. أغسطس يعتسف الغيم ويصفع وجه البحر. أغسطس قاس شحيح مستبد وأنا أكرهه وسأكرهك أيضًا يا صَبا. أجل، سأكرهك وسأحقد عليك إذ تغيبين وتتركين للقلب كل تلك التفاصيل التي عشناها معاً تماماً مثلما يفتح المسافرون حقائبهم في غرفات الفنادق ثم يطوونها عند الرحيل على عجل وقد نسوا بعض ما فيها في الأدراج. وأنت لم تنسي شيئاً، بل جئت وفتحت حقائبك في القلب ثم رحلت عنها وعني بلا وداع.

تركت رفوفاً من الذكريات والتفاصيل الصغيرة التي لن تغيب عن القلب، وجهك ونحن نتداول أحاديث العذاب أمام الفردوس المفقود وتنورتك الزرقاء الشاحبة ترتطم بساقي مثل موجة بحرية بلا زبد. في نهاية الأمر يا صَبا، ربما كنا نحن الزبد الهش الذي يذهب جُفاء. ولم نكن نتحدث، كنا فقط نحاول ألا نستسلم لليأس وأحياناً لجدة التي غدت مثل أكُف عملاقة تطبق على الأحلام فتغتالها. جدّة التي لا تعرف منطقة وسطى، ولا تؤمن بأنصاف الحلول، ترهف أسماعها لخطاب المال وكرة القدم والفيديو كليب، وتتثاءب - مثل جمهور أمسية قصصية - أمام خطاب الحلم الهامس الذي يحتاج لتواقع وأذونات كثيرة قبل أن يرفع صوته."

مقتطفات

قطرات من الدموع..

سميرة خاشقجي

"ينفرد الشيخ بابنته يحاول مخاطبتها فلا تجيبه. وينام كل منهما في طرف من الخباء ما بقي من الليل. ويصبح الصباح.. وينادي الرجل على ابنته القابعة أمامه فلا تجيبه.. فيقترب منها منادياً عليها بصوت مرتفع.. وهي تنظر إليه في بله.. ولا حياة لمن ينادي.. وعجب من أمر ابنته.. وتحركت الشفقة في قلبه.. وربت على خدها.. فهاله ارتفاع حرارتها.. فقال لها:

- ماذا بك؟ متى ارتفعت حرارتك يا ذكرى؟ فلم تجبه فيزداد حيرة.. فتشير إلى فمها.. ويعرف الشيخ العلة.. فيرق قلبه.. ويخرج إلى الخلاء يضرب كفاً بكف قائلاً:

- اللهم لا أسألك رد القضاء ولكن أسألك اللطف فيه.

ويجهش بالبكاء.. ويلتف حوله جيرانه ويعرفون الخبر.. فيشيرون عليه بالسفر بها إلى «الرياض» حيث الطب والعلاج.

ترك الشيخ محجوب متاعه لدى جيرانه أمانة وذهب بابنته إلى المدينة «الرياض» بعد ساعتين قضياها، في السيارة.. وكان الجو بارداً.. يلفح الوجوه. ويتجه الرجل وابنته إلى دار صديقه الشيخ صالح بمنطقة الشميسي.

وشيخنا صالح يعمل تاجر بقالة ويقيم بالقرب من متجره الصغير في بيت مصنوع من الطين به مدخل صغير.. وباحة ضيقة.. وثلاث غرف.

ورحب الشيخ صالح بصديقه.. وجلست ذكرى مع زوجته كدمية لا تأتي بحركة ما.. ولا يسمع لها سوى شهيقها.. وزفيرها.. وبعد تناول الغداء أخذ الشيخ محجوب يقص على صديقه حوادث الأيام.. وعوادي الزمن.. والرجل منصت له، حتى إذا ما أتم حديثه رفع الشيخ صالح رأسه إلى السماء وقال:

- اللهم لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، هذا أمر الله وقضاؤه.. إن كان الأمر كما حدثتني يا صاح.. فلقد ظلمت زوجتك وابن أخيك يرحمهما الله..."

مقتطفات

البراءة المفقودة..

هند باغفار

"اقتحم الجمهور المتجمع بيت القتيلة بحثاً عن غربة بينما كانت هي تستقل إحدى سيارات التاكسي للعودة إلى بيتها ولكن صوت إشارات البوليس الذي كان ينطلق في الشوارع أدخل الخوف إلى نفسها فخفق قلبها وخشيت أن يلصق (محي) الجريمة بها..

احتارت.. وارتبكت.. مزق الاضطراب أعصابها.. فقالت لسائق التاكسي.. اتجه بنا نحو محطة القطار الذاهب إلى الاسكندرية.. فأطاع وأوصلها إلى هناك..

طوّق البوليس منزل القتيلة واستمعوا إلى شهادة (محي) ضد (غربة) وساعده في إنجاح كذبته معرفة الكثير من الطلبة بالخصام الذي جرى بين غربة وشهرزاد..

بعد ذلك فتش البوليس المنزل فوجدوا كتب غربة ملقاة على المقعد وشاهدوا بصماتها على السكين وجسد القتيلة ملقى على أرض المطبخ وقد انحدرت منه الدماء بغزارة..

كان هرب غربة دليلاً قاطعاً لدى البوليس والناس على إثبات تهمة القتل عليها. فطلب البوليس الضابط محمد عبدالعاطي والد المتهمة بعد أن بحثوا عنها في الأحياء المجاورة لمنزل القتيلة.. طرق رجال البوليس باب الفيلا الفخمة ففتح لهم البواب وسار بهم إلى غرفة الصالون حيث استقبلهم الضابط وزوجته وأبناؤه الأربعة. سأل أحد الرجال الضابط محمود عن (غربة) فقال له:

- غربة في منزل إحدى صديقاتها..
خيراً إن شاء الله.. ما الذي حدث..
- خيراً يا سيدي.. ولكن في بيت من بالضبط..
- في بيت الحاج عبدالرحمن منير..
- ألم تعد بعد؟
- كلا.. ولكن ما الذي جرى؟
- أعتقد أن الأمر بسيط يا سيدي..
- لقد نفد صبري ما الذي جرى..؟
- ابنتك يا سعادة الضابط متهمة بقتل صديقتها (شهرزاد) منير.. وقد بحثنا عنها فلم نجدها..

نزل الخبر نزول الصاعقة على الجميع.. صرخت الأم صرخة حادة وتهاوت على الأرض مغشياً عليها فتجمع حولها أبناؤها الأربعة وهم يصرخون.. وعقدت المصيبة لسان الأب المسكين فتمتم في ذهول..

- غربة تقتل.. مستحيل.. لا أصدق.. إنها ملاك.. لا يمكن أن تفعل ذلك..

فجذبه أحد رجال البوليس من يده قائلاً:

- هيا بنا يا سيدي.. البوليس ينتظرك.. وانطلقوا مسرعين إلى مكان الحادث.. وقد ركب معهم أخواها مشتاق ومحمد بعد أن تركا والدتهما في رعاية الخدم وشقيقتهم سميرة.. وبعد قليل وصل الجميع إلى مكان الحادث وشاهدوا الجثة واستمعوا إلى شهادة بعض الجيران بأنهم رأوا (غربة) تدخل منزل صديقتها. ثم استمعوا إلى شهادة محي الذي أكد بأنه سمع صرخة الاستغاثة وأنه رأى (غربة) وهي تخرج هاربة ويداها مخضبتان بالدماء.."

قول آخر

تواصل رديء..!

د. محمد حبيبي
شاعر وأكاديمي سعودي

بقيت الثقافة العربية، والأدب العربي، وكل ما له علاقة بالتواصل الثقافي في معاناة أزلية مع إشكالات كبرى كانت تصل أحياناً حد القطيعة، وعدم التواصل الذي من شأنه التعريف بأدب وأدباء المناطق العربية.. فالكاتب والكِتاب في المشرق لا يُعرف عنهما شيءٌ في المغرب، والعكس وبالعكس. وكان من المؤسف أن تجد أديباً مهماً لا يُعرف إلا بمحض الصدفة خارج منطقته.

لذلك فإن من أهم الإيجابيات التي حملها التواصل الكوني الجديد ـ بشقيه الفضائي (التلفزيوني) و(النتّي) ـ المساهمة في تسهيل التواصل، وتوسيع رقعته بأسرع مما كانت تتيحه وسائل التواصل التقليدية. بل، وهذه إيجابية لا تقل عن سابقتها، ألغت قنوات التواصل الجديدة الحواجز التي كانت معيقة لحرية تداول الثقافة، كمشكلات النشر الداخلي و المطبوعات الخارجية.

إن جيلاً جديداً قد وجد طريقه عبر ما يُعرف اليوم بـ "المنتديات"، التي أظهرت مواهب أدبية واعدة كثيرة، ولعل ما يؤكد هذه البشارة ما لمسه المتابع للملتقى الشعري العربي الأخير المنعقد في صنعاء منتصف إبريل الماضي (ملتقى صنعاء الأول للشعراء الشباب العرب) الذي كان خاصاً بشعراء التسعينيات العرب. فقد وجد معظم المشاركين أنهم يعرفون بعضهم بعضاً عن طريق مواقع ومنتديات الإنترنت قبل أن يلتقوا وجوهاً لوجوه في فعاليات الملتقى، بل إن اللجنة المنظمة للمؤتمر صرحت بأنها اعتمدت بشكل كبير في اختيار أسماء الشعراء على منتديات ومواقع الشبكة.

لكن الأسئلة المهمة عقب تلك الإيجابيات تتمثل فيما يلي: هل ما تطرحه منتديات الإنترنت يتسم بالصبغة الأدبية ذات الخصائص الفنية المشروطة في المستوى الأدنى لما يستحق أن يُطلق عليه نص أدبي؟

السؤال الآخر: ما مدى الفصل بين الكتابات الجادة، وبين الخواطر العابرة غير المتكئة على تجربة ثقافية؟ وما مستوى المصارحة لدى القائمين على تلك المنتديات وممارسي النقد فيها عند تعاملهم مع تلك النصوص؟

ما يُؤسَف له، في واقع المنتديات، هو هشاشة الطرح الغالبة وندرة الجودة والتنافس الكمي الذي يسجله الزوار والمتصفحون. فمن الأبجديات التي كانت معروفة قبل (أدب المنتديات) عدم حديث الكاتب عن نصوصه؛ لأن النص ما لم يقدم نفسه بنفسه فلن يكشف صاحبه بواطن الاشتغالات الفنية فيه، إذ يبقى حديث صاحبه ثرثرة مهما كانت المسوغات.

في المنتديات تصطدم بأرتال من صفحات الردود والتعليقات حول المشاركة الواحدة، تجد الكاتب يكتب أضعاف أضعاف عدد كلمات نصه تحت إغراء كلمات المجاملة (الردود). يستمر المنوال، كاتب يحابي آخر، ليرد له الدين في مشاركة لاحقة. والأدهى من ذلك أن الشخص قد يحرك منتدى بأسره من خلال عشرات الأسماء المستعارة غير الحقيقية، بزعم أنها أسماء جديدة. فيضع مشاركته باسمه الحقيقي، ويحلق عالياً بالمشاركة في ردٍ باسم آخر، ويطالب (نفسه) باسم ثالث بالمزيد المزيد من هذه الروعة..!

لا أحد يمكنه الوقوف ضد تجربة المنتديات الأدبية كفعل ثقافي، ولكن محترمي الإبداع لا يمكنهم قبول إساءة استخدامها بما يخلط الجاد بالمفتعل، والحقيقي بالزائف..!

ولكم كان جميلاً لو استُغل فضاء المنتديات لممارسة وتوظيف تلك المساحات على نحو أكثر فاعلية وحراكاً، فترى المثقفين يخوضون في فعل ثقافي مشترك، يشترك فيه الخبير المجرب مع الواعد، والمهاجر مع المقيم، يشترك الجميع فيما يشبه المنتدى (المقهى الثقافي الكبير) الذي يستوعب الخطابات المهمّشة كافة، والأجناس الكتابية، والإبداعية، من دون حجر لشكل، أو انحياز لجنس ضد آخر..!

الملف

القصص المصورة

تُسلّي، تُضحك، تُثري.. وقد تُؤذي

تُضحك الناس، تُثير دهشتهم وحماستهم، تُمكنّهم من السخرية مما يجرح كبرياءهم.. وتنتقم لهم بواسطة أبطالها الذين لا يُقهرون أبداً.

إنها القصص المصوّرة.. "الكارتون" كما تجري الكلمة على ألسنة الناس، هذه الظاهرة الثقافية التي اكتسحت العالم في القرن العشرين، وكانت في معظم الأحيان مرآة صادقة تعكس خفايا النفس الإنسانية وأمانيها وتطلعاتها من خلال تلك "الفقاقيع" التي تعلو رؤوس أبطالها، وتتضمن أقوالهم وأفكارهم.

الباحثة جوسلين حداد الدبس تأخذنا في هذا الملف في جولة على هذه القصص بدءاً بنشأتها وتاريخها الطويل في أمريكا وأوروبا والبلاد العربية، وصولاً إلى آثارها المثيرة للجدل على الصغار.. والكبار أيضاً.

تعود جذور القصص المصورة إلى فترة غائرة في عمق التاريخ، قد تكون بدايتها مع الإنسان القديم الذي رسم الحيوانات والأشخاص على جدران الكهوف، وتمتد إلى الحضارات القديمة والعريقة، لا سيما الفرعونية والعربية.. وصولاً إلى عصر الطباعة الذي بدأ مع غوتنبرغ.

حفظ لنا التاريخ سنة وفاة رسام القصص المصورة السويسري جودوكوس أمّان 1591م، من دون أن يذكر أعماله التي لم يصلنا منها شيء. أما أول قصة مصورّة في الغرب، فقد رأت النور عام 1754م في صحيفة "بنسلفانيا غازيت" في أمريكا، تحت عنوان "إتحد أو مت"، وكانت عبارة عن تعليق على تفكك المستعمرات البريطانية، فأظهرت ثعباناً مُقطعاً إلى ثماني قطع، تحمل كل منها اختصاراً لاسم مستعمرة بريطانية.

ومن يومها بدأت القصص المصوّرة ترى النور بخجل، متكلة على مواهب حفنة من الفنانين للتعليق بشكل طريف على وضع سياسي أو اجتماعي معين. وراحت الفكرة تنضج مع بدايات القرن التاسع عشر الميلادي، حتى طُبع أول كتاب يتضمن قصصاً مصورة عام 1820م في هادسون - نيويورك، وكان بطل هذا الكتاب "دبّور"، ابتكره روبرت روستيكوت.

من السياسة إلى.. كل شيء

سجلت القصص المصورة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر نقلة نوعية، إذ خاضت الميدان السياسي من بابه العريض، خاصة بعد اعتماد الحزب الجمهوري رمزاً له صورة الفيل التي ابتكرها توماس ناست عام 1874م. وبعد ذلك بسنة واحدة رأت النور أول قصة مصورة بمفهومها المعاصر، واحتلت 17 مربعاً متتالياً على صفحة كاملة من صحيفة نيويورك دايلي غرافيكس.

وكرّت سبحة الأبطال
المُبتَكرين مع إطلالة
القرن العشرين الذي
صار غنياً بالرسامين



دنيس المشاكس في 18 جريدة يومية

المبدعين الذين استفادوا إلى أقصى حد ممكن من تطور التقنيات الطباعية، ومن ثم البث التلفزيوني والسينمائي، فالرقمي في الفيديو وغيره.

وما أن حلّ منتصف القرن، حتى صارت كل سنة تشهد ولادة بطل جديد لقصة مصورة تنال حصتها من الشهرة. فكانت صحف عديدة في مقاطعات أمريكية مختلفة تنشر القصة نفسها في الوقت ذاته. فمغامرات البطل "Dennis the Menace" مثلاً كانت تنشر عام 1951م في 18 صحيفة يومية أمريكية في وقت واحد.

كان من الطبيعي في هذه الحال أن تطمح القصص المصورّة إلى الاستقلال عن الصحف اليومية، وإلى أن تكون لها مجلداتها الخاصة. وهكذا ولدت مجلة "Peanuts" التي ابتكرها شارلز شولتز في أوائل عام 1952م، وأصبحت بسرعة أشهر المجلات الترفيهية في التاريخ الإعلامي الأمريكي، حتى أن أبطال هذه المجلة احتلوا أغلفة أشهر المجلات وأكثرها جدية مثل غلاف مجلة "تايم" (1965م)، و"لايف" (1967م)، و"نيويورك" (1971م).

سنوبي.. أحد أشهر أبطال مجلة "بينتس"



أصبحت القصص المصورّة جزءاً أساسياً من نسيج الثقافة الأمريكية خلال القرن العشرين. ولعل قيام الفنان روي ليختنشاين، بطل تيار "البوب آرت" في الفن التشكيلي الأمريكي، باستيحاء أسلوب رسم القصص المصورة في إنتاج لوحاته الزيتية، ما هو إلا إقرار بأهمية هذا الفن الجديد وبدوره الكبير في الحياة الثقافية ككل.

فاق جمهور قرّاء القصص المصورّة القرّاء الآخرين حتى أن متابعي كل منها تعدوا الستين مليوناً. وإضافة إلى أن معظم بلدان العالم راحت تبتكر أبطالها الخاصين بها وتصدر مجلاتها المحلية، حظيت بعض القصص المصورّة برواج هائل دفع إلى ترجمتها ونشرها بلغات أخرى بدءاً من ستينيات القرن الماضي، ومنها على سبيل المثال، مما نعرف، مجلات "سوبرمان"، "الوطواط"، "لولو"، "الرجل العنكبوت"... التي كانت تترجم إلى العربية وتطبع في بيروت.

واليوم، لا يزال جمهور القصص المصورة ينمو ويكبر حتى بعدما احتل التلفزيون والكومبيوتر حيّزاً مهماً من اهتمام الصغار، لأن منتجيها عمدوا بذكاء إلى إدراجها ضمن برامج الأول، والألعاب الإلكترونية في الثاني.

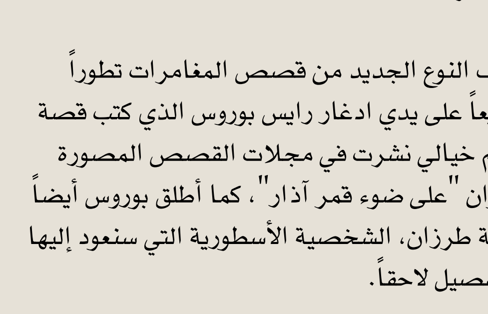
الولد الأصفر..
يطلق القصص الأمريكية

كان الهدف من القصص المصورّة في أمريكا في أواخر القرن التاسع عشر هو جذب القرّاء إلى طبعات يوم الأحد من الصحف المحلية.

وقد ولد هذا النوع من القصص على أيدي خمسة روّاد أساسيين هم: ريتشارد أوتكولت، وليم راندولف هيرست، جوزف بوليتزر، جيمس سونيرتون ورود ولف ديركس.

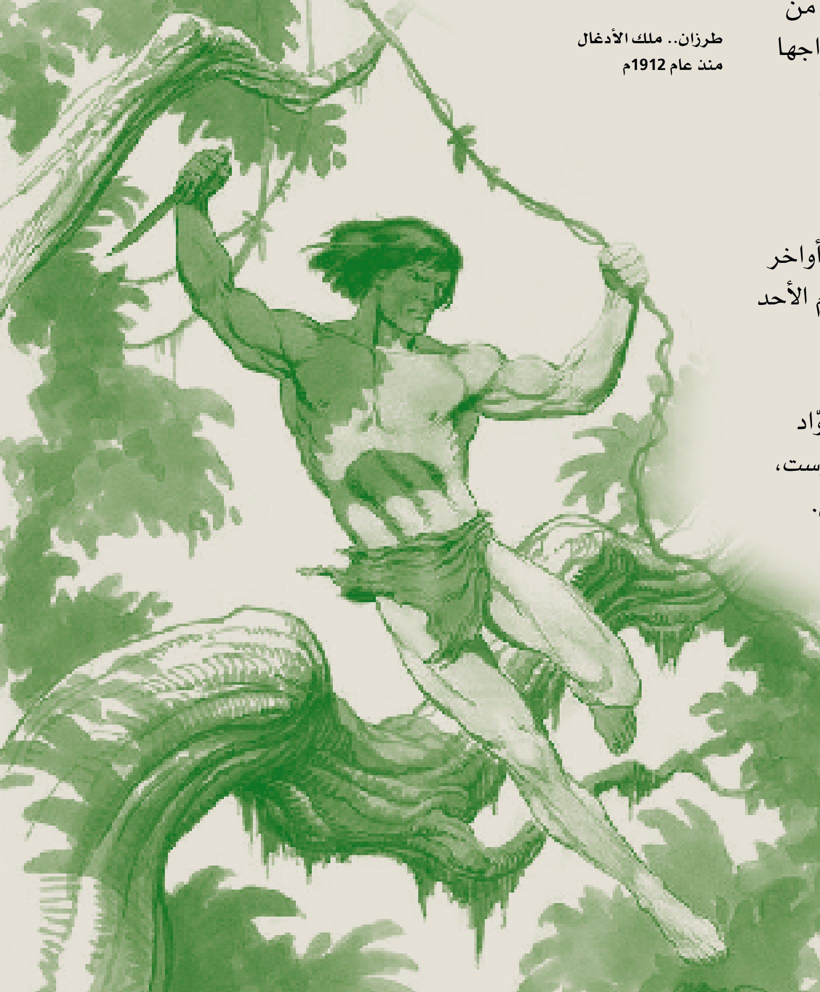
تولى ريتشارد أوكولت مهمة الرسم في فريق جوزف بوليتزر عام 1895م، وابتكر صورة صبي متواضع يرتدي عباءة. ثم بدأ واضعو الكليشيه الطباعي اختبار الحجر الملون، وأضافوا الأصفر إلى العباءة بعد أن كانت السلسلة قد بدأت بالأبيض والأسود. فسمّي الصبي بـ "الولد الأصفر".

بقيت القصص المصورة فكاهية خلال العقود الثلاثة الأولى من عمرها. إلا أن رودي كران ابتكر قصة "واشنطن تيوليس - 2" في عام 1924م، وتدور أحداثها حول شخصية مراهق يحمل الاسم نفسه. فكانت أولى قصص المغامرات.



عرف النوع الجديد من قصص المغامرات تطوراً سريعاً على يدي ادغار رايس بوروس الذي كتب قصة عالم خيالي نشرت في مجلات القصص المصورة بعنوان "على ضوء قمر آذار"، كما أطلق بوروس أيضاً قصة طرزان، الشخصية الأسطورية التي سنعود إليها بالتفصيل لاحقاً.

في عام 1929م، ظهرت قصة بعنوان "باك روجرز"، وبطلها طيار حربي أمريكي يحذر من أن الجيش المغولي سيجتاح أمريكا، فينطلق في حرب "أخلاقية" ضده. بعد ذلك بسنتين، ظهر "ديك تريسي" رجل الشرطة الذي لا يرقى الشك إلى سلوكه ويتمكن دائماً من القبض على المتهمين، وتحول بسرعة إلى الشخصية الأكثر شعبية في تاريخ القصص المصورة.



طرزان.. ملك الأدغال منذ عام 1912م

"فلاش غوردن" ينقذ الأرض

في عام 1932م أطلق روي كران الشريط المصور "كابتن إيزي" الذي كان يُنشر في صحف السبت. وبعد سنتين فقط، ظهرت شخصية جديدة في عالم القصص المصورة تمثلت بـ "فلاش غوردن"، وهو مجرد لاعب كرة قدم يحاول إنقاذ الأرض من نيزك ضخم يندفع نحوها. وفي عام 1933م كان الناشرون في مطبعة "إيسترن كولور" قرروا الاستفادة بشكل أفضل من معدات المطبعة التي تبقى من دون عمل بين كتاب وآخر. من هنا ولدت فكرة طبع ثماني صفحات قصصاً مصورة، فكانت النتيجة ظهور أول كتاب عصري في هذا المجال.

وزِّع هذا الكتاب الاختباري مجاناً، بعدما تضمن إعادة نشر القصص المصورة المنشورة في الصحف والذي أطلق عليه اسم "عرض القصص المصورة"، وأثبت أنه في الإمكان تسويق قصص مصورة منشورة سابقاً. وفي السنة التالية نشرت "إيسترن كولور" القصص المصورة الشهيرة بشجعها النجاح الذي حققه الكتاب، وبدأت تعيد شهرياً طبع قصص مصورة قديمة، الأمر الذي أثار حماسة باقي الناشرين المتلهفين لجني أرباح. وانضم إلى هذه المجموعة ناشر "ناشونال بيرياديكالس"، الذي لم يكتف بإعادة نشر قصص منشورة سابقاً، بل قدم شخصيات جديدة، وكان المثال الأول لكتب القصص المصورة الحديثة.



غلاف قديم لمجلة توم وجيري

ولادة صعبة لسوبرمان

وفي كليفلاند تجرأ المراهقان جيري سيغل وجوزف شوستر اللذان تأثرا بقصص "المصارع"، الإنسان القوي، على كتابة قصص مصورة بعنوان "رجل متروبوليس الخارق" ونشراها في مجلة "العلم الخرافي". واقتنع الناشر دونتفيلد، الذي كان دائم البحث عن أفكار جديدة، بموهبتهما ورأى فيهما منجم ذهب، ومن هذا التلاقي ولدت قصة "سوبرمان" البطل الخارق الذي سرعان ما حقق نجاحاً باهراً. وفتح باب الأبطال على مصراعيه، وانتشر عدد كبير من الأبطال الخارقين، ومعهم ازدهرت كتب القصص المصورة ووصل الحجم الشهري لمبيعات بعضها إلى نحو 500 ألف نسخة، الأمر الذي أدى إلى ابتكار المزيد من الأبطال الخارقين من أمثال "الوطواط" وصديقه "روبن" اللذين نُشرت قصصهما في الصحف اليومية منذ عام 1944م، وصار القرّاء ينتظرون تطوراتها كل يوم.

أبطال لمحاربة النازية

في نهاية الثلاثينيات، كانت القصص المصورة مفعمة بالمغامرات والأساطير الشعبية والخيال، ومليئة بكل أنواع النزوات والبراعة. كان هناك "فلاش غوردن"، وكان هناك الساحر ماندراك الذي يملك القدرة على إطلاق رقية سحرية، وكان أيضاً "طرزان"، الإنسان الخارق الذي استمد قوة من القردة، مكنته من القفز بين الأشجار ومحاربة أقوى الحيوانات في الأدغال. غير أن هذه الشخصيات تمثل قدرات خارقة ليست موجودة في الواقع.

ومع بداية الحرب العالمية الثانية ساهمت هذه القصص في دعم المجهود الحربي، فحاربت كل شخصياتها الخارقة النازية. وأبرزت "كوميك جابيت" على غلافها "كابتن أمريكا" يضرب هتلر على حنكه.

عصر ذهبي للحيوانات الأبطال

إضافة إلى هؤلاء الأبطال ذوي الشكل البشري، شهدت الأربعينيات بزوغ أبطال من نوع آخر: الحيوانات. ففي فبراير 1940م، بث شركة MGM لأول مرة قصة القط والفأر "توم وجيري" التي صارت في ما بعد تختصر مفهوم القصة المصورة المتلفزة. وفي شهر يوليو من العام نفسه أتبعتها بقصة "باغز باني".

وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية بدأ العصر الذهبي للأبطال الخارقين بالانحسار، واستمر تقدم قصص الحيوانات مثل المجموعة الكبيرة من الحيوانات التي احتلت قصص وولت ديزني وحققت حجم مبيعات كبير. كذلك ازدهرت قصص الخيال العلمي مع "Planet Comic" التي كانت قد بدأت بالظهور عام 1940م.

إلا أن مؤسسات القصص المصورة كانت بحاجة إلى شيء جديد ومختلف لتتمكن من إنعاش أرباحها، فوجدت ضالتها في قصص الرعب التي لاقت رواجاً بدءاً من عام 1946م.

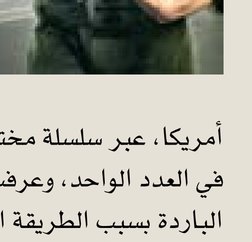
في تلك السنة والسنة التالية، خرجت فجأة مجموعة كاملة من القصص المبنية على مختلف أشكال العنف والجريمة الواقعية المستوحاة من الغرب الأمريكي، وقصص عن نساء طريدات للعدالة، وجنى ناشروها أرباحاً خيالية. وفي عام 1948م بدأت تظهر أنواع جديدة من القصص مرتكزة إلى العنف.

غير أن كل القصص المصورة كانت ترتكز إلى العمل الفني بدلاً من أن تلعب دوراً تثقيفياً. وما لفت فيها طريقة تصوير الفتيات ولباسهن الفاضح وإظهارهن في ميزات لم تكن مألوفة سابقاً عند النساء من حيث القدرة والتصميم.

الرعب يجني مالاً.. والسخرية أيضاً

وفي الخمسينيات طرأ تغيير جديد على هذه القصص. فقد عانى الناشر وليم غينس من تراجع مبيعات كتب القصص المصورة، وكان يحتاج إلى صيغة جديدة لتحسين الوضع. وبمساعدة الناشر الفنان آل فيلدستين تمكن من إطلاق سلسلة قصص مرتكزة على الرعب، كان أول إصداراتها بعنوان "من سرداب الرعب". وفي منتصف الخمسينيات كان له في الأسواق عنوانان إضافيان هما: "شبح الخوف" و"وثبة الرعب"، واحتلت هذه القصص الثلاث الصدارة في مجالها.

وبموازاة الرعب، ظهر مذهب جديد في القصص المصورة كانت مجلة "ماد" (مجنون) أبرز معبّر عنه. فقد تميزت هذه المجلة عن غيرها بالتركيز على السخرية من الثقافة الشعبية في أمريكا، عبر سلسلة مختلفة من القصص المصوّرة في العدد الواحد، وعرفت ذروة نجاحها خلال الحرب الباردة بسبب الطريقة اللاذعة التي تناولت بها مخاوف الأمريكيين وهواجسهم آنذاك.



"ماد": السخرية من الثقافة الشعبية في أمريكا

أطلق هذه المجلة الفنان هارفي كورتزمان والناشر وليم غاينز عام 1952م، ولأنها كانت خالية من الإعلانات لمدة خمسين سنة، فقد تمتعت بهامش عريض من الحرية في نقد أي شأن أو جهة.

محاولة اجتثاث عنف القصص

بعد الرعب جاء دور العلم الخيالي. ففي منتصف الخمسينيات اندلعت الحرب ضد قصص الرعب، وبذلت محاولات حثيثة لاجتثاثها من الأسواق بسبب تأثيرها السلبي على الأطفال، إذ لوحظ جنوح نحو الانحراف في صفوفهم متأثرين بأبطال قصصهم المفضلة.





كوربيس

جيري سيغل وجوزف شوستر مبتكرا سوبرمان



كوربيس

والت ديزني: الانتصار للقصص المتلفزة

أبطال في القصص

أبطال القصص المصورة السابقون يثيرون الحنين إلى شخصيتهم، كانوا مثالاً معنوياً للصغار يقتدون به. يتابعون قصصهم في المجلات المتخصصة، يرونهم على الشاشتين الصغيرة والكبيرة يكافحون الشر حماية للضعيف، ينصرون البريء ويقتلون المجرم... فيتمنون التصرف مثلهم ضرباً واعتداءً وقتلاً من دون أن يميزوا أحياناً كثيرة بين الخير والشر وبين الحق والباطل.

تطور مفهومهم للبطولة عبر الأجيال، فتخلّوا أحياناً عن شكلهم البشري (نينجا تورتل، بوكيمون، ديجيمون...) واستعانوا بأكثر التقنيات تطوراً ودموية.

فمن هم أبرز هؤلاء الأبطال الذين خرجوا من القصص المصورة؟

– طرزان Tarzan: خرج من قلم الكاتب الأمريكي ادغار رايس بوروغز عام 1912م، وأصبح بطل 27 قصة مكتوبة قبل أن يدخل القصص المصورة فالأفلام الصامتة (1918م) ومن ثم الناطقة (1932م). يعلّم الحفاظ على البيئة ومصادقة الحيوانات ومعاقبة الأشرار حضارياً... وما من ولد يقرأ قصصه اليوم.

– الرجل الوطواط Batman: بدأ حياته في الرسوم المصورة بعدما ابتكره البريطاني بوب كاين. ثم دخل عالم السينما وتأقلم سريعاً مع العصر في أعقاب دمجه بأكثر التقنيات تطوراً إلى مختبره الخاص، مما جعله يستمر محبباً في قلوب الصغار.

– سوبرمان Superman: ابتكره جو شوستر وجيري سيغل عام 1938م بطلاً خارقاً يحارب في القصص المصورة دفاعاً عن أمريكا. جاء من كوكب كريبتون ودخل الصور المتحركة عام 1941م ومن ثم المسلسلات التلفزيونية فالأفلام السينمائية منذ عام 1951م، وهو اليوم يحارب "الرجل النووي" ويدافع عن الأمم المتحدة... من دون أن يقنع الأولاد بقدراته الخارقة.

– بوبّاي Poppeye: بطل قصير القامة، مفتول العضلات، لا يفارق الغليون فمه. يستمد قوة جبارة من السبانخ التي يستهلك منها كميات هائلة. أدخله صدفة الكاتب الهزلي إلزي سيغار على عائلة "أويل" في الرسوم المصوّرة الهزلية عام 1929م. فسرق من أعضائها الأضواء وبات هو البطل من دون منازع... وكم من ولد أكثر من أكل السبانخ ليتمثّل به.

– لولو Lulu: بطلة صغيرة عمرها 68 عاماً. رأت النور في 23 فبراير 1935م، على الصفحة الأخيرة من صحيفة أسبوعية بعدما ابتكرت مارجوري هندرسون بويل شخصيتها. عمرها لا يتعدى السنوات العشر، تحمل راية الدفاع عن حقوق المضطهدين من أصدقائها في الحي. فضولية، تتحدّى دائماً الصبيان، وكأنها شبه صبي يرتدي فستاناً. صديقها الحميم هو "تابي" أو طبوش بالعربية، الولد الذي نشأت معه والذي يهوى الأكل فقط... ويظهر ذلك جلياً على شكله البدين. يقومان معاً بمغامرات مسلية ومضحكة أحبها الأولاد لسنوات قبل أن يكتشفوا أبطالاً آخرين يقتلون عشرات القتلى في الدقيقة.

– تان تان Tintin: بطل كل الأعمار، من السابعة إلى السابعة والسبعين... وحتى أكثر. سحرت مغامراته كل القرّاء منذ أن ابتكره "هرجيه" عام 1929م في بلجيكا. فبقي متصدراً القصص المصورة المكتوبة حتى بعد غياب كاتبه عام 1983م، وبات مثال التطفل والفضول المفيدين بشكله اليافع أبداً وبنطاله "الغولف" وكلبه "ميلو" ورفاقه الذين يلازمونه دوماً في ملاحقته للأشرار في كل بقاع العالم... وحتى في الخليج العربي بالقرب من آبار النفط في مغامرة عنوانها: "الذهب الأسود".



وفي تلك الفترة نشرت مجلة "ريدرز دايجست" مقالاً لمحلل نفسي يحمّل القصص المصورة وغيرها من وسائل الإعلام مسؤولية انحراف الشباب. ويرى أن المراهقين باتوا يميلون إلى المخدرات والسرقة والقتل. وكان ذلك بمثابة حكم بالموت على هذا القطاع، إذ كانت نتيجته إحراق كتب مصورة، ورفض أصحاب مكتبات عرضها مكتفين ببيع أشرطة "باغز باني" و"آرسي" و"وولت ديزني"، وحتى "سوبرمان" امتنع البعض عن بيعه.

في عام 1955م كانت مداخيل كل ناشري هذه القصص قد تقلصت بحدة، ومن تمكن منهم من الاستمرار امتنع عن نشرها. وبدا الأمر نهاية العام وكأنه نهاية عصر القصص المصورة، خصوصاً بعدما وضعت سلطة تنظيم هذا القطاع سلسلة محظورات. قلة من الناشرين لم تتأثر بها، فأقفل الصغار منهم، فيما تحول عدد قليل إلى نشر قصص الفكاهة أو إصدار نشرات موجهة إلى العائلة.

عودة "فلاش" الجديدة

بعد هذه الانتكاسة، كان لا بد من ابتكار شيء جديد يسد الفراغ الذي خلفه غياب قصص الرعب. وما لبث يوليوس شوارتز أن أطلق نموذجاً جديداً للبطل الخارق فلاش غوردون، محافظاً على شكله القديم وألوانه الحمراء والصفراء والوجه المقنّع. ثم أطلق بعد ذلك بفترة وجيزة نماذج جديدة لهذا النوع من الأبطال في سلسلة "متحدّو المجهول". إنهم أربعة أبطال نجوا بأعجوبة من تحطم طائرة. أحدهم عالم، والثاني طيّار والثالث مصارع والرابع مدرب سيرك، تدور مغامراتهم في عالم العلم الخرافي. ومع الظهور الثاني لشخصية "فلاش" وهؤلاء بدأ العصر الثاني للأبطال "الخارقين" وأعيد إطلاق شخصيات قديمة ترتكز على البطولة والعلم الخرافي.

فالثقافة الأمريكية اتبعت هنا أيضاً، وإن لفترة قصيرة، "موضة" تلبية أذواق مئات الملايين من الأشخاص.

الرجل العنكبوت



فلاش غوردون القديم الذي أعيد ترويجه بعد ثلاثين عاماً

فعندما نشرت القصص المصورة للمرة الأولى كانت كلها تحتوي على مضمون كوميدي لأسباب عدة، أبرزها اثنان: الأول يكمن في رغبتها في أن تكون وسيلة إعلامية اختبارية بطبعها. والثاني هو أن المغامرين يلزمهم بعض الوقت لإحداث تغيير يسمح لغيرهم القيام بتغييرات أكبر.

من بلجيكا إلى العالم

أما في أوروبا، فقد ارتبط انطلاق الرسوم المتحركة عموماً وبلجيكا خصوصاً بعبقرية الرسامين البلجيكيين الذين ابتكروا أطرف شخصيات هذه القصص وأفضلها على الإطلاق، والتي ظهر أغلبها من خلال مجلة مميزة حملت اسم "جورنال دو سبيرو". ففي عام 1938م، قرر ناشر شاب يدعى جان دوبوي إطلاق مجلة خاصة بالقصص المصورة تتوجه أساساً إلى الشباب. وابتكر الرسّام روبفيل شخصية "سبيرو" لهذه الغاية. إلا أن المجلة تعثرت في مهدها عندما احتل الألمان بلجيكا في مايو من عام 1940م، فهاجر روبفيل من البلاد، وبقيت المجلة من دون رسّام حتى أتى جوزف جيلان الذي أرسى توجهاً جديداً لها، وابتكر "فانتازيو" الشخصية الثانية

ثمن الكرتون: الملايين

لأن مهنة رسم القصص المصورة قد تدرّ الأموال الطائلة على من يعرف "من أين تؤكل الكتف"، ربح الرسّامان من مدينة ميشيغان الأمريكية، جوزيف شيلدز وتوماس رينكس، دعوى ضد شركة "تاكو بل" أكسبتهما مبلغ 30.1 مليون دولار أمريكي بعدما أثبتا أنهما ابتكرا شخصيات القصة المصورة التي بنت عليها الشركة شريطها الدعائي. فأوحت إليهما بأنها تراجعت عن حملتها الدعائية... ثم استعملت الشخصيات من دون علمهما. كما حقق فيلم "الرجل العنكبوت" المبني على القصة المصورة المشهورة، مداخيل خيالية في اليومين الأولين من عرضه في 4512 صالة سينما في الولايات المتحدة الأمريكية وكندا في 1 و 2 يوليو 2004م، بحيث بلغت ملايين الدولارات الأمريكية.

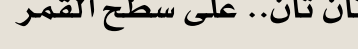
التي أضيفت إلى سبيرو. وباتت مغامرات البطلين راسخة في أذهان كل الشبّان من دون استثناء، خصوصاً أنه أرسى أسس مدرسة جديدة في رسم القصص المصورة هي "مدرسة مارسينيل". ونظراً إلى انتشار المجلة بشكل واسع، طلب جيلان من أندريه فرانكين الانضمام إلى فريق العمل.. فبقي هناك 22 عاماً، يبتكر الشخصية تلو الأخرى والقصة بعد القصة.

وفي عام 1957م، انضم "غاستون لاغاف" إلى العائلة المصورة، وهو أطرفها بمحاولاته العلمية البائسة التي تنقلب دائماً إلى كوارث مضحكة. فبقيت شهرته موجودة حتى عندما غاب عن الأضواء قسراً طوال 14 عاماً، فعاد بألبوم طبعت منه 600 ألف نسخة باللغة الفرنسية فقط. واحتفلت المجلة بعددها الثلاثة آلاف في أكتوبر من عام 1995م. ولم يبق مبدعها فرانكين على قيد الحياة ليراها تكمل المسيرة في ما بعد.

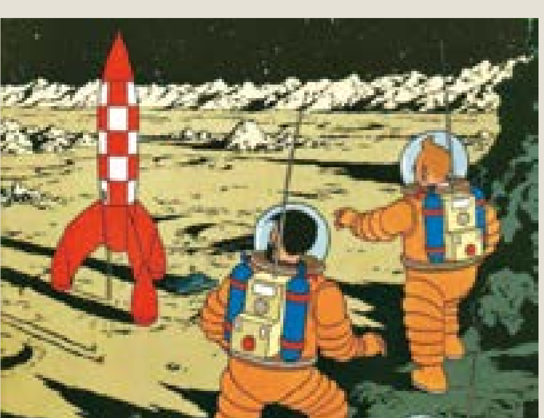
تان تان يغزو العالم

وانطلق من بلجيكا أيضاً البطل الصغير "تان تان" الذي رأى النور عام 1929م بريشة مبتكره "هرجيه" المبدع على صفحات جريدة بلجيكية. وبقي هناك حتى سبتمبر من عام 1946م حيث باتت له مجلته الأسبوعية الخاصة "جورنال دو تان تان" التي أرست شهرته العالمية وجعلت كلاً من رفاقه بطلاً على حدة: من الكلب الصغير "ميلو" إلى الكابتن "هادوك" وتعابيره الفظة، فالأخوين دوبون ودوبون الساذجين والبروفسور تورنسول.. كلهم قاسموه شهرته من دون أن ينزعج أو يحتجّ على الوضع، فكفاه فخراً التمثال الكبير الذي شيّدته العاصمة البلجيكية بروكسيل على شرفه.

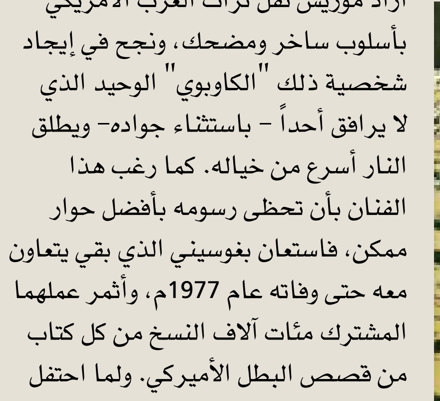
ومع انتشار مجلة "جورنال دو سبيرو" في أوروبا ومن ثم في أمريكا، أدخل أحد رساميها وهو "موريس دو بيفير" شخصية "لاكي لوك" Lucky Luke إلى عالم القصص المصورة في عام 1948م، بعدما كان أمضى 6 أعوام في الولايات المتحدة الأمريكية بعد الحرب العالمية الثانية، وتأثر بقصص "الكاوبوي" هناك.



الكاوبوي الوحيد لاكي لوك



تان تان.. على سطح القمر



أراد موريس نقل تراث الغرب الأمريكي بأسلوب ساخر ومضحك، ونجح في إيجاد شخصية ذلك "الكاوبوي" الوحيد الذي لا يرافق أحداً – باستثناء جواده- ويطلق النار أسرع من خياله. كما رغب هذا الفنان بأن تحظى رسومه بأفضل حوار ممكن، فاستعان بغوسيني الذي بقي يتعاون معه حتى وفاته عام 1977م، وأثمر عملهما المشترك مئات آلاف النسخ من كل كتاب من قصص البطل الأميركي. ولما احتفل

وتان تان في بلاد العرب





كوربيس

البلجيكي هيرجيه مبتكر شخصية تان تان

"لاكي لوك" بعيده الخمسين عام 1996م، كانت مغامراته قد ترجمت إلى معظم لغات العالم، وصولاً إلى اليابانية. وتفرّع عن مغامرات "لاكي لوك" "الإخوة دالتون"، الأشقياء الأغبياء، الذين استقلوا أيضاً في ما بعد في سلسلة خاصة بهم.

وإلى جانب تان تان، ظهرت صدفة في عام 1958م شخصية "الشترومف"، قبيلة برمتها من الأقزام الزرق مع كل عناصرها، ابتكرها الرسام بيار كوليفور لقصة "جوهان وبرلويت"، فنالت استحسان القراء، مما حدا بمبتكرها إلى إطلاقها أوائل الستينيات في سلسلة مستقلة حملت اسمها. ودخلت الرسوم المتحركة المتلفزة في السبعينيات بعدما عمّت كل أوروبا وسلبت قلوب قرائها الصغار والكبار بفعل شخصية كل فرد منها المميزة وتصرفاته الفريدة.. كما لغة القبيلة بكاملها التي تستعمل فعل "شترومف" بدلاً من الفعل الملائم في الجملة.

أبطال فرنسا

رأت القصص المصورة الفرنسية النور عام 1934م مع الفأر الصغير المحتال "ميكي" في المجلة الأسبوعية "مجلة ميكي". وما أن أسرت مغامرات الفأر المحبب قلوب القرّاء الصغار، حتى تشجع العديد من الناشرين الفرنسيين على طبع عدد آخر من القصص المصورة الأمريكية... التي عادت عندهم إلى الأبيض والأسود بسبب نقص الألوان في فترات الحرب العالمية الثانية.

حاول الناشرون الفرنسيون متابعة مغامرات الأبطال الأمريكيين عن كثب عبر استقدام القصص المصورة فور نشرها هناك، إلا أن سوء الاتصالات في تلك الفترة كان يحول دون وصولها بشكل منتظم.

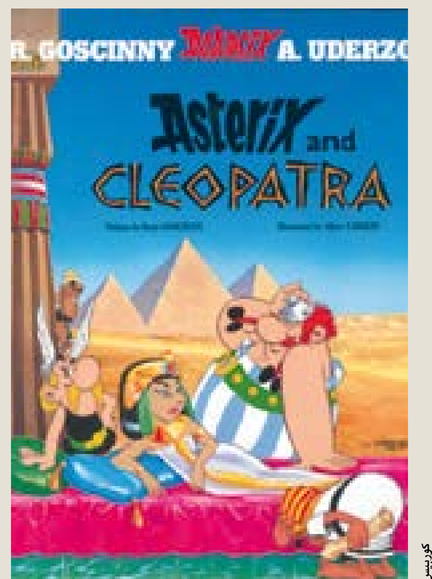
وصادف في تلك الفترة ظهور رسامين خارجين على القاعدة في مدينة ليون هما: بيار موشو ومارسيل نافارو اللذان عشقا القصص المصورة وبدأ بإصدار مجلة خاصة بها باللونين الأبيض والأسود، لكن بشكل غير متقن أبداً... مما ربطها فوراً بالطبقات الاجتماعية الفقيرة وأبعدها عن القراء الارستقراطيين.

ومع نمو هذه المجلة وظهور القصص المصورة في صفحات مجلات أكثر، بدأت القرصنة تطل برأسها



شريطان من قصة استيريكس وكليوباترا

البير اودرزو مبتكر شخصية "استريكس"



كوربيس

"استريكس وكليوباترا": ارتفاع المبيعات إلى مليوني نسخة



رسوم مصورة بشخصية إنسانية

الرسوم المتحركة أو المصورة مجموعة واسعة من الشخصيات التي دخلت قلوب الصغار والكبار معاً، مهما تنوعت انتماءاتهم الاجتماعية وهويتهم الوطنية، خصوصاً أن غالبيتها تكلمت لغتهم الأم بعدما تُرجمت قصصها إلى أكثر من عشرين لغة.

اقتحمت أطر حياتهم اليومية لتتحكم بكثير من تفاصيلها، خصوصاً في ما يتعلق بمن هم دون العاشرة من العمر. فكم من ولد بات يأكل السبانخ بعدما رأى عضلات البطل بوباي تنتفخ بشكل عملاق على إثر ابتلاعه كميات من السبانخ... المعلبة، إذ إن مبتكر هذه القصص أخذ في الاعتبار أيضاً انشغال الأمهات الأمريكيات بالعمل طوال اليوم ولجوءهن إلى استعمال المقادير الغذائية المعلبة في الطهو، ناهيك عن شبه انتفاء وجود الخضار الطازجة قليلة الاستهلاك (مثل السبانخ) بوفرة في المدن الكبرى الصناعية حيث سيلاقي بوباي حتماً شعبية واسعة.

وقد استغل علماء الاجتماع هذا التأثير الإيجابي الذي ظهر سريعاً في شريحة كبيرة من الأولاد ليعالجوا بواسطته بعض المشاكل الاجتماعية مثل استغلال الأطفال وتعرضهم للأذى من أي نوع كان حتى ولو كان من أقرب المقربين إليهم، ألا وهما الوالدان. فبات الحصان أو الهر في الرسوم المتحركة مثلاً، يقف أمام الكاميرا قبيل انتهاء الحلقة اليومية لمغامراته لينظر في عيني الولد وراء الشاشة الصغيرة ويقول له: "أنا هنا، أستمع إليك في كل ما تريد إخباري إياه ولا تجرؤ أن تقوله لأحد غيري. يمكنك أن تقول لي كل ما يؤذيك أو يزعجك. لا تخف، لن أخبر أحداً. اتصل بي على الرقم (كذا)... أنا في انتظارك".

من هنا كان السعي إلى "أنسنة" هذه الرسوم، إذا جاز التعبير، كي تصبح أقرب إلى قلوب المشاهدين. فهي باتت ترتعد خوفاً كالإنسان، تضحك، تبكي، تحزن، تحتال... وتسرق وتضرب أيضاً، ناقلة إلى الشاشة كل الشخصيات الاجتماعية التي يمكن مصادفتها كل ساعة وكل دقيقة أينما كان.

وهي أيضاً باتت متنفساً مهماً لنقمة اجتماعية قُوِّضت قبل أن تكبر لتتحول خطرة في مرحلة ما من نموها. مما جعلها تنفّس الكثير من المشاكل بمجرد الحديث عنها والضحك عليها، خصوصاً إذا اكتسبت صبغة سياسية معينة.

لذا، بات المشاهد الكبير قبل الصغير يضحك لمغامرات الفأر جيري والقط توم. يكاد يصفق متى ينجح المحتال الصغير جيري في تنفيذ مقلب يذهب ضحيته القط الكبير... وكأن الفأر ينتصر حقاً للضعيف ويثأر لكل مسكين ذهب ضحية قوي ما في مكان ما من العالم، إنه الصراع الأبدي بين الضعيف والقوي الذي يقلب على الشاشة الصغيرة كل المقاييس المتعارف عليها: فلا يجعل قانون الغاب يسود، ولا يدع القوي يستقوي على الضعيف... لا بل يسمح لكل مشاهد بأن يقتنع بأن الغاية تبرر الوسيلة مهما كانت ملتوية، وبأن الاحتيال مسموح متى يؤدي إلى النجاح في القضاء على القوي أو المستقوي بشكل غير عادل.

والطريف أن هذه المغامرات المصورة تسرد قصص الصديقين اللدودين ومعاركهما الضارية ومحاولات اغتيال بعضهما بكل الأسلحة المتاحة المعقولة وغير المعقولة... والتي تنتهي دوماً بتوبة القوي بعد تحطيمه وبانتصار الصداقة والمودة بينهما. وكأن الرسالة الأخيرة التي يريد إيصالها مبتكر هذه القصص هي أن الخير سينتصر دوماً على الشر، وأن الحب يساوي مليون حقد وضغينة... متى أدى إلى المساواة بين الطرفين، قاضياً على مبدأ الغالب والمغلوب الذي يسود عادة كل المجتمعات.

فالرسوم، سواء أكانت متحركة على الشاشتين الصغيرة والكبيرة، أم جامدة في الصحافة، نجحت في تقديم مهمتها في التسلية وعكس حقيقة الحياة اليومية التي تتزامن معها، بحيث أنها بقيت "حيّة" لفترات طويلة بعدما استطاعت التأقلم مع كل الظروف والأجيال والمجتمعات: طرزان بات رومنسياً، سوبرمان وقع في الحب، جيري غرق في الغرام، بوباي حضر المقالب المضحكة... لأنها أولاً وأخيراً رسوم تعكس شخصية من يقرأها، أينما كان في العالم.



في كل أنحاء فرنسا... كما عانى بعضها من الانفلات الأخلاقي في رسم هذه القصص وحواراتها بفعل انعدام الرقابة الحكومية، مما حتّم وضع قانون للرقابة، وآخر لحماية حقوق الرسامين، صدرا عام 1949م، ولا يزال القانون الثاني ساري المفعول حتى اليوم.

ولم تكد الخمسينيات تطل برأسها حتى انتشرت في فرنسا الدعاية المعادية للثقافة الأمريكية التي أدت إلى إقفال مجلة "مغامرات ميكي" عام 1952م، فانتقل "ثقل" القصص المصورة إلى بلجيكا القريبة، حيث كانت تقنية الألوان والرسوم في حال أفضل بكثير من باريس. وتوجه قسم منها إلى البنات وآخر إلى الصبيان... والقسمان للصغار الذين لم يتعدوا سن المراهقة.

لم يتحسن الوضع في فرنسا إلا مع بدء الستينيات حين بدأ مارسيل نافارو نشر قصص مصورة عن "سوبر أبطال" أثاروا الذعر في صفوف علماء الاجتماع والقيمين على التربية، بسبب تضمن مغامراتهم مقداراً كبيراً من العنف الذي كان أحياناً كثيرة غير مبرر. لذا، نشطت الرقابة بشكل ملفت في تلك الفترة حاذفة مقاطع كاملة منها.

وفي تلك الفترة أيضاً، لمع نجم رينيه غوسيني، "منفذ" هذه القصص الآتي من الولايات المتحدة الأمريكية: فرنسي يعشقها ويحترم حقاً ما تعنيه. عاش في الأرجنتين ومن ثم في نيويورك حيث عمل في التجارة قبل أن ينتقل إلى استوديو للرسم. كان غوسيني قد عمل مع الفريق الذي أسس مجلة "ماد" أو "المجنون" بالإنجليزية. التقى موريس وساعده في سيناريو "لاكي لوك" قبل أن يعود إلى أوروبا ليعمل في وكالة "World Press" حيث التقى لأول مرة إلبير أودرزو، فتعاون معه وابتكرا أطرف الشخصيات في القصص المصورة.

لم يكتف غوسيني بتعاونه مع أودرزو بل كتب سيناريوهات قصص كثيرة لرسامين معروفين آخرين. وفي عام 1959م، ابتسم الحظ له بعدما أسس مع أودرزو وجان ميشال شارليه مجلة "Pilote" الفكاهية للقصص المصورة التي نالت شهرة كبيرة. وعلى الرغم من أنها أساساً لمن هم دون الخامسة والعشرين كان الآباء يسرقونها من أولادهم لقراءتها.

أستيريكس في مصر

ومع شهرة المجلة، توالت شخصيات القصص المصورة فيها وصولاً إلى "أستيريكس" (Astérix) عام 1961م. وأبطال السلسلة الجديدة هم سكان قرية غالية يقاومون الاحتلال الروماني لبلادهم.

بدأت القصة تلو الأخرى تنال الاهتمام الشعبي الذي تستحق... حتى كان الانفجار الكبير بعد أربعة أعوام مع صدور ألبوم "أستيريكس وكليوباترا" الذي جرت مغامراته في مصر، وشكّل قفزة نوعية مهمة بالنسبة إليهما. فارتفعت المبيعات من ستة آلاف إلى أكثر من مليون. وباتت قصص أستيريكس الأشهر في فرنسا. بيع من هذه الألبومات أكثر من 22 مليون نسخة بين العامين 1961 و1974م. وترجمت إلى عشرات اللغات وصولاً إلى النروجية واليابانية والألمانية، حيث طبعت هناك مرات عديدة.

وشهدت السبعينيات ثورة لهذه القصص التي باتت بكل الأشكال والقياسات والألوان والعناوين والإصدارات: أسبوعية أو شهرية، بشكل مجلة أو كتاب، بلونين أو ملونة، بأبطال فرنسيين أو إيطاليين أو إنجليز أو إسبان، مضحكة أو سياسية، دينية أو ثقافية أو فنية أو رياضية... كلها تجد ملايين القراء أينما كان وبسرعة فائقة. فالمطلوب كان السير عكس التيار السائد وتخطي الممنوعات للحصول على الشهرة من دون أي إعلان أو حملة دعائية... فقد كانت السبعينيات فعلاً الفترة الذهبية بالنسبة إلى هذه القصص.

أفول نجمها

مع بدء الثمانينيات، انقلبت الموازين بسرعة تامة: رينيه غوسيني مرض ومات فجأة، تاركاً مكانه شاغراً من أي مبدع يرثه. وكان رئيس الجمهورية الفرنسية الراحل، فرانسوا ميتران كرّمه بالإعلان أن قصصه المصورة هي فن بحد ذاته.

أما المجلات والكتب فباتت تتسابق وتتبارى في نوعية ورقها وأغلفتها وإصداراتها المحدودة بالعدد، وليس أبداً نوعية قصصها المنشورة ورسومها، إلى أن فقدت كل قرائها الذين توجهوا فوراً الى القصص المصورة المتلفزة. وبدأت مجلات القصص المصورة تموت الواحدة تلو الأخرى بعدما انتفت قواعد اللعبة التنافسية الحقيقية التي تُكسبها القرّاء. ولم تسلم منها سوى تلك المدعومة من الدوائر الحكومية التي أبدعت حقاً لأنها لم تتبع قوانين اللعبة التجارية.

وقد شهدت تسعينيات القرن الماضي إغلاق دور نشر وشراء دور أخرى بحجة "أن القصص المصورة لا تجني مالاً". وبدأت بعدها القصص المصورة الأوروبية تغزو الأسواق الفرنسية: "تيتوف" من سويسرا الذي انطلق من المجلة ليتحول بطلاً في الألعاب وأفلام الفيديو والإعلانات والقصص المتلفزة، و"كيد بادل" من بلجيكا على الطريق الناجحة نفسها... اقتصادياً طبعاً.

وعند العرب أيضاً

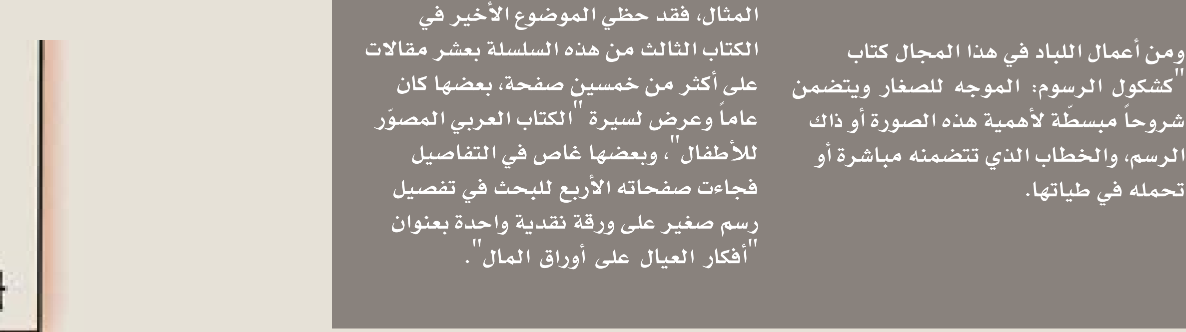
أولت الحضارة العربية اهتماماً فائقاً لفنون الخط وصناعة المخطوطات وتزيينها بالرسوم، خاصة بعد إتقان صناعة الورق التي أخذها العرب عن الصين ونشروها لاحقاً في أوروبا والعالم بأسره.

لذا، لم يكن مستغرباً أن يقاوم العرب الطباعة الآلية التي حرمتهم من متعة التفاعل فنياً مع الكتاب في القرن الخامس عشر الميلادي. فتمت طباعة الكتب العربية الأولى في إيطاليا قبل أن تدخل آلات الطباعة الثلاث الأولى العالم العربي عبر لبنان وسوريا في الأعوام 1610 و1706 و1711م. أما مصر فلم تعرف الطباعة الآلية إلا بشكل عابر عام 1798م خلال الحملة الفرنسية على البلاد، إذ إن فرنسا أعادت معها الآلة الطابعة مع انسحاب جيوشها. وانتظرت القاهرة حتى عام 1822م ليفتتح والي مصر محمد علي مطبعة بولاق التي نشرت خلال السنوات العشرين الأولى من عمرها المهني 243 كتاباً. ولم تطبع أي كتاب للأولاد إلا عام 1870م، حين نشرت "روضة المدارس" بإشراف رفاعة الطهطاوي وهي مجلة قصصية خالية من الرسوم. ولكن بعد سبع سنوات فقط صدرت مجلة "السمير الصغير" عن جمعية التأليف العلمية التي عرّفت عنها بعبارة "مجلة علمية تهذيبية تصويرية"، وتضمنت رسوماً عربية بتوقيع عربي وأخرى مأخوذة عن مجلات أجنبية.

ثم أصدرت دار المعارف عام 1912م الكتب العربية الأولى المصورة للأطفال المطبوعة بلونين، وحملت عناوين: "القطيطات العزاز" و"زوزو وفوفو" و"عند الفلاحين" و"البنت الحمراء". إلا أن وتيرة صدور هذه الكتب خفّت تدريجاً لصالح المجلات المصورة والكتب الحكومية.

في عام 1923م، صدرت مجلة مصورة للأطفال باسم "الأولاد" نالت شهرة واسعة بفضل قصصها الصغيرة الواردة بشكل شرائط، وكان بعضها مقتبساً ومعرّباً من أعمال أوروبية وأميركية. كما صدر في الفترة نفسها

كشكول الرسّام والناقد



إضافة إلى مجموعة القصص المثورة الموجهة للأولاد، انفرد الفنان والناقد المصري محيي الدين اللباد عن غيره باهتمامه الفائق في نقد القصص المصورّة، وتدريب القارئ الكبير قبل الصغير على حسن قراءتها وتنمية حساسيته تجاه الصورة والرسم بشكل عام.

ومن أعمال اللباد في هذا المجال كتاب "كشكول الرسوم: الموجه للصغار ويتضمن شروحاً مبسطّة لأهمية هذه الصورة أو ذاك الرسم، والخطاب الذي تتضمنه مباشرة أو تحمله في طياتها.

أما سلسلة كتبه الثلاثة "نظر"، فكل منها عبارة عن مجموعة مقالات نقدية تتناول فن الكاريكاتير والرسّامين والمطبوعات وشخصيات فنية، والتصميم الطباعي وفنون الإخراج والتصوير الفوتوغرافي، إضافة إلى عدد كبير من المقالات الناقدة في ثقافة الأطفال وكتبهم المصورّة. وعلى سبيل المثال، فقد حظي الموضوع الأخير في الكتاب الثالث من هذه السلسلة بعشر مقالات على أكثر من خمسين صفحة، بعضها كان عاماً وعرض لسيرة "الكتاب العربي المصوّر للأطفال"، وبعضها غاص في التفاصيل فجاءت صفحاته الأربع للبحث في تفصيل رسم صغير على ورقة نقدية واحدة بعنوان "أفكار العيال على أوراق المال".

الكتاب المدرسي "القراءة الرشيدة" الذي وزع في المدارس الرسمية.

بقيت النهضة الأدبية في مصر محرّكاً لصدور الكثير من الكتب، حتى برز بعد الحرب العالمية الثانية الرسّام المصري حسين بيكار (1913 - 2002م) الذي شكّل مفترقاً مهماً في تاريخ القصص المصورة العربية.

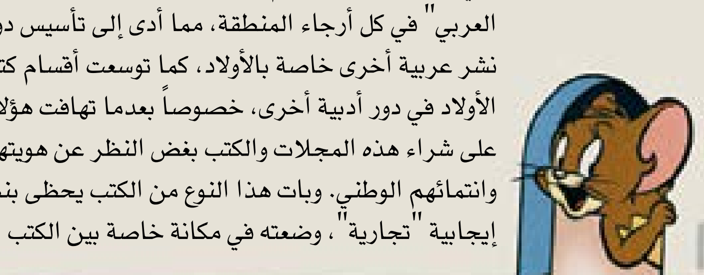
تخرّج بيكار في كلية الفنون الجميلة في القاهرة، قبل أن يسافر إلى المغرب حيث عاد حاملاً مؤونة غنية من الرسوم الهندسية والمعمارية التي أغنت الرسوم التي ألحقها بقصص ألف ليلة وليلة. في عام 1946م أصدرت "دار المعارف" أول كتب بيكار المصورة للأطفال وتحمل عناوين: "علي بابا"، "أبو صير وأبو قير"، "خسرو شاه" وهي عربية بالكامل على عكس المجلات السابقة التي كانت تنقل مضمون الرسوم الغربية وروحها البعيدة عن التراث العربي.

"الفتى العربي" في كل مكان

ولم تكد تمضي 6 أعوام حتى أصدرت الدار نفسها مجلة "سندباد" الأسبوعية المصورة بالألوان. ترأس تحريرها محمد سعيد العريان وأشرف عليها بيكار وشكلت نقلة نوعية في تاريخ المجلات المصورة العربية تاركة أثراً بليغاً في المنحى التصويري لأجيال كاملة من الرسامين في ما بعد.

انفتح رسامو هذه القصص في أوائل الستينيات على مدارس أجنبية جديدة في ميدان رسم كتب الأطفال، ولا سيما منها الكتب الفرنسية والإيطالية والألمانية والأمريكية، ناهيك عن الكتب الواردة من وسط أوروبا وشرقها. وقد برز هذا المنحى في منتصف السبعينيات مع تأسيس "دار الفتى العربي" في بيروت، وهي دار النشر العربية الأولى المتخصصة بكتب الأطفال. فشكلت ملتقى لعدد كبير من الرسامين العرب الذين أتوا من بلدان مختلفة. واختصرت بالتالي النقلة النوعية الثالثة في تاريخ القصة المصورة في العالم العربي.

وفي أقل من عشرة أعوام، انتشر تأثير كتب "دار الفتى العربي" في كل أرجاء المنطقة، مما أدى إلى تأسيس دور نشر عربية أخرى خاصة بالأولاد، كما توسعت أقسام كتب الأولاد في دور أدبية أخرى، خصوصاً بعدما تهافت هؤلاء على شراء هذه المجلات والكتب بغض النظر عن هويتهم وانتمائهم الوطني. وبات هذا النوع من الكتب يحظى بنظرة إيجابية "تجارية"، وضعته في مكانة خاصة بين الكتب الأدبية الأخرى، مما أدخله الدورة الاقتصادية الكاملة: مزيد من الكتب، عدد أكبر من الرسامين، تنوع أكبر في القصص والمجلات، اهتمام تسويقي أكبر وأشمل، فطلب أكبر على الكتب ومزيد منها، وهكذا دواليك... فظهرت دور نشر كثيرة في أرجاء العالم العربي بعدما كانت مقتصرة في السابق على القاهرة وبيروت فقط.



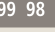




بعض الإصدارات العربية الأكثر رواجاً

ففي الإمارات العربية المتحدة تصدر اليوم مجلة "ماجد" الأكثر انتشاراً في العالم العربي، إذ تطبع ما بين 150 ألف نسخة و175 ألفاً أسبوعياً. كما أن تونس تلعب دوراً مماثلاً في ميدان المجلات المصورة للأولاد، إذ تأتي في المرتبة الثانية بعد القاهرة، خصوصاً أنها توجه مجلاتها إلى القسم الشمالي من أفريقيا بأسره.

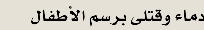
أما في المملكة العربية السعودية، فتلاقي مجلة "باسم" التي تتوجه إلى الأولاد بين سن الثامنة والخامسة عشرة رواجاً كبيراً، وهي تعرض شرائط فكاهية قصيرة وقصصاً صغيرة وألعاباً تربوية مسلية، فتطبع ما يقارب 35219 نسخة أسبوعياً تبيعها في المملكة وفي دول الخليج وشرق أفريقيا وشمالها وأوروبا.



وبشكل عام، تحولت الشرائط المصورة العربية إلى مادة جذّابة للأولاد، ويقدّر مجموعها بمليونين و600 ألف نسخة سنوياً، توزع في 17 بلداً عربياً ويقرأها نحو 270 ألف عربي.

قصص الأولاد لأهداف سياسية

أما في أفريقيا، فتحولت القصص الفكاهية الخاصة بالأولاد إلى مادة ملائمة لنشر التوعية الطبية والديمقراطية والبيئية. وقد استوحى عدد من الرسامين والكتّاب الأفارقة القصص المصورة التي واكبت الحربين العالميتين الأولى والثانية ليؤسسوا الدار الأولى لنشر القصص المصورة الفكاهية في جنوب أفريقيا. وتعاون هؤلاء أخيراً مع وزارات الصحة والبيئة والتربية والدفاع المدني والمجلس النيابي من أجل نشر التوعية ضد مرض "الإيدز" وغيره من الأمراض والشؤون الاجتماعية، وعلى رأسها وجوب تلقيح الماشية وعدم استهلاك النافق منها. وفي الموزامبيق، دعمت الولايات المتحدة الأميركية برنامج توعية ضد وجود الألغام ووجوب تفاديها عبر كتب القصص المصورة.


دماء وقتلى برسم الأطفال









غراندايزر.. نصف إنسان ونصف آلة

كما أن هذه الرسوم تستعمل في الصومال من أجل توعية الأهل للاهتمام بتلقيح أولادهم. وفي أعقاب انتشار وباء الكوليرا، طُبعَ في عام 1994م أكثر من 500 ألف نسخة من المنشورات المصورة لإرشاد الأهل إلى كيفية تفادي هذا المرض. كما نشرت اليونيسيف 20 الف نسخة من مجلة "وقائع الحياة" تبيّن يوميات أب وأم صوماليين يواجهان مشاكل صحية مع أولادهما وكيفية معالجتها.

وفي الإطار التثقيفي للقصص المصورة، تضمن كتاب "التاريخ المصوّر للعالم" للكاتب لاري غورنيك التاريخ العالمي في سلسلة من الشرائط المصورة الفكاهية التي تروي حضارات العالم انطلاقاً من الشرق الأوسط ثم غرب أفريقيا والصحراء ووسط آسيا والإمبراطورية البيزنطية والعصور الأوروبية المختلفة...

أبطال الصغار دمويّون

أبطال القصص المصورة في العالم دمويّون... حقيقة اكتشفها علماء الاجتماع والنفس في السنوات العشرين الأخيرة وحاولوا جاهدين الحؤول دون انتشارها، نظراً إلى ثبوت انعكاساتها السلبية على الأطفال والمراهقين الذين يواجهون كمّاً هائلاً من العنف لا يمكن أبداً التهاون بشأنه، خصوصاً أنه يشير كما يرى البعض إلى تطور سوسيولوجي إجتماعي يكاد يكون سادياً في أساسه.

فمبدأ القوي يلتهم الضعيف ساد المجتمعات منذ عصر الكهوف، منذ أن اضطر الإنسان الأول إلى اصطياد الحيوانات ليعيش. وانتشار العنف في مفهوم اجتماعي ثابت يجعل من الضعيف أضحوكة ومن القوي بطلاً يُحتذى بأفعاله، شرط ألا يعبر الخط الرفيع الموجود بين "أخلاقية" عنفه وعدمها.

وقد جاءت مصطلحات الحضارة وقوانينها لتشرّع العنف انطلاقاً من القانون والشرف، ووصولاً الى البطولة التي لا تجد وسيلة لها في قصص اليوم إلا عبر مجازر دموية مقززة يتلذذ بها حتماً المشاهدون مهما كانوا صغاراً، لأنهم اعتادوا على التعايش مع العنف يومياً عبر مئات المشاهد العنيفة التي تنهال عليهم من الشاشة الصغيرة ومهما كانت البرامج التي ينتقونها. فالمجتمعات تبحث دوماً عن أبطال يختصرون القيم التي تعيشها، والتي تجد

أفضل ترجمة لها عبر شخصيات الرسوم المتحركة التي انكبّ علماء الاجتماع على دراسة تطور تصرفاتها كدلالة واضحة الى التطور الإجتماعي الذي تمثله.

وباستثناء الحيوانات الصغيرة مثل "توم وجيري" و"سنوبي" و"الفهد الزهري"، التي تضحك وتقدم العبر البسيطة في مغامراتها، تبرز الشخصيات الإنسانية لترمز فعلاً إلى هذا المنحى. فالبطل الأول، طرزان، كان شرطي الأدغال الذي وضع عضلاته وصرخته الشهيرة في خدمة الحفاظ على البيئة وتوازنها الدقيق، فكان يواجه السلاح الناري بالذكاء والدهاء. ثم جاء "الرجل الوطواط" ورفيقه "روبن" ليستعملا التقنيات الحديثة والبهلوانيات الرياضية لمكافحة الشر، فيما رمز "تان تان" إلى الذكاء الحاد الذي لا يرتبط بالضرورة بعمر الرشد والحكمة.

واللافت في هؤلاء الأبطال الذين سادوا الجزء الأول من القرن العشرين أن ما من أحد منهم بادر الى قتل مجرم أو سجنه، لا بل كانوا يسلمونه دوماً إلى العدالة لأنهم مجرد أدوات بشرية تعمل على مكافحة الشر تحت سقف القانون... ولأن المجتمع يثق كلياً بأجهزته العدلية.

إلا أن هذا المفهوم البطولي تبدل مع دخول العالم الجزء الثاني من القرن العشرين. فظهر أبطال من أمثال جيمس بوند، يقتلون من دون أن تفارق البسمة ثغرهم، يطلقون النار أو السكاكين بتهذيب تام يجعل العنف مقبولاً متى أتى من "جنتلمان" يتقن أصول اللياقة الاجتماعية وحسن التصرّف.

"هالك".. الضعف والرعب في صيغته الحديثة

ولم يكد القرن المنصرم يشارف على نهايته حتى برز أبطال يتفننون بأصول العنف وكأنهم خرّيجو أقبية الاستخبارات في الأنظمة الدموية الدكتاتورية: يمارسون هواية البحث عن الأشرار، يخططون لتعذيبهم قبل قتلهم، لأن البطولة لا تمر إلا بنشوة القتل والاستمتاع بتعذيب الخصم وقتل كل روح تعاطف وشفقة في النفس.

مآثر القصص المصورة المتلفزة

تكمن مآثر الإعلام العصري في أنها أثرت سلباً وبشكل عميق لا عودة عنه على الأطفال والأولاد والمراهقين، من خلال تنمية العدوانية في شخصيتهم في شكل غير مباشر، يتحول في ما بعد مباشراً ومؤذياً للغير. فالدراسات الاجتماعية انكبت في السنوات العشرين الأخيرة على التعمق في دراسة آثار التلفزيون وبرامجه التي تمتد على 24 ساعة متواصلة بحيث تطاول الأولاد في أية لحظة من النهار أو الليل، في ظل غياب الأهل، خصوصاً متى ما كانت هذه البرامج مخصصة أساساً لمن هم دون العاشرة.

وقد برزت في السنوات الأخيرة برامج للأطفال ورسوم متحركة وقصص مصورة تجعل من العنف فعلاً يومياً وعادياً مبسطاً. وأفادت دراسات اجتماعية أن المرحلة الأساسية لفهم تأثير التلفزيون وإثارته العدوانية في الشخصية تكمن في العمر الذي يتراوح بين السادسة والحادية عشرة، حيث يركز الأولاد على تتابع مراحل القصة التلفزيونية، وعلى اكتشاف دوافع تصرفات شخصياتها ونتائجها. فالولد في الثامنة من عمره لا يتأثر بالعنف الذي يراه إذا كان هذا العنف مرتبطاً بمفهوم الشر ويؤدي إلى الألم البشري وينجم عنه عقاب وقصاص. إلا أن النتيجة تصبح معكوسة عندما يعتقد أن العنف هو انعكاس للحياة الحقيقية أو عندما يتماثل مع البطل العنيف الذي يتابع مغامراته من دون أن يميز بين الواقع والخيال. فيبدأ "بالاعتياد" على العنف وبالتسامح به في الحياة اليومية.

فالعنف يبدأ كلاماً قاسياً في الخامسة من عمر الولد. وما يلبث أن يتحول ركلاً وضرباً... حتى عمر الثانية عشرة الذي يشهد تحولاً جذرياً في الشخصية التي تصبح أكثر عدوانية وتميل إلى استعمال السلاح.

قصة فلسطين المصورة

في عام 1996م حازت سلسلة من تسعة كتب مصورّة للفنان والصحافي جو زاكّو "جائزة الكتاب الأمريكي" وتكمن أهمية الخبر في أن مواضيع الكتب التسعة كانت حول فلسطين وواقع الحياة اليومية في الأراضي المحتلة، وأخيراً جمعت هذه الكتب التسعة في مجلد واحد حمل عنوان "فلسطين".

وينتمي هذا الفنان إلى مدرسة جديدة ظهرت في أمريكا خلال حرب فيتنام، وانصرف فنانوها عن الرسوم المصورة المسلية أو المضحكة، إلى معالجة مسائل سياسية وجديّة وعلى مستويات رفيعة من الجدية والخطورة. حتى أن معظمهم أسقط الهوس بالنواحي الجمالية من أعماله ليركز مهمته على نقل دعوة معينة وتصوير واقع بأقصى حد ممكن من الأمانة.

جو زاكو كما يرسم نفسه في كتابه

غلاف الكتاب وبعض صفحاته الداخلية

القصص التسع في هذا المجلد مستوحاة بالكامل من الانتفاضة الفلسطينية الكبرى ما بين عامين 1987 و 1992م، ومن مشاهدات الفنان الذي أمضى شهرين من شتاء عامي 1991 - 1992م في الأراضي المحتلة. وتظهر أمانته للواقع في أن الكثير من المشاهد الخارجية التي رسمها تمثل شوارع غطتها الوحول وبرك مياه الأمطار، كما أنه يرسم نفسه (كما هو حال معظم الشخصيات التي يرسمها) مرتدياً ملابس شتائية وقفازين من الصوف.

الكاتب والناقد المعروف ادوارد سعيد خصّ الكتاب بمقدمة من أربع صفحات، ومما جاء فيها: "باستثناء الشعراء وروائي واحد أو اثنين، لم يتمكن أحد من التعبير عن واقع الأحوال الرهيبة المتمثلة في الشكوك المثيرة للقلق، والكآبة الجماعية والحرمان كما فعل جو زاكو، وذلك من دون أية محاولة من قبله لتلطيفها أو التخفيف منها".

ويضيف سعيد: "إن معظم القصص المصورّة تنتهي عادة بانتصار أحد أبطالها، بانتصار الخير على الشر، أو العادل على الظالم.. في "فلسطين" زاكو هذه، تختلف الأمور تماماً. فالناس الذين يعيش بينهم (ويمثلون الخير) هم الخاسرون تاريخياً.. ولا يبدو عليهم أنهم يعلقون آمالاً كبيرة، بل يكتفون بسرد واقعهم، وبمقاومة مشاريع محوهم جميعاً".

فبشكل عام يجمع هذا الكتاب، أو كل قصة منه المشاهدات الحيّة من جهة والبحث الأرشيفي من جهة أخرى. وعندما نضيف إلى ذلك حضور الصحافي الفنان نفسه في معظم هذه الرسوم وكأنه أحد أبطال القصص المصورّة (يبدو كولد غليظ الشفتين، يضع نظارتين على عينيه ويحمل حقيبة المهنة على كتفه)، يصبح بإمكاننا القول إن الكتاب هو في مرتبة تقع بين القصة المصورة والاستطلاع الصحافي المرسوم، وربما كان الأصح القول: فوقهما.



القافلة
مجلة ثقافية تصدر كل شهرين
عن أرامكو السعودية
سبتمبر - أكتوبر 2004
المجلد 53 العدد 5

ص . ب 1389 الظهران 31311
المملكة العربية السعودية
www.saudiaramco.com